بولاق في عصر دولة المماليك الجراكسة

(٧٨٤-٩٢٣هـ / ١٣٨٢-١٥١٧م)

د. ليلى عبدالجواد إسماعيل
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب .جامعة القاهرة

دار الثقافة العربية
القاهرة ٢٠٠٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

سبق قلمي في الكتابة عن تاريخ بولاق قليل من الباحثين المحدثين، أخص بالذكر نيللي حنا في كتابها المعنون بـ :

An Urban History of Būlāq in The Mamluk and Ottoman Periods, Supplément aux Annales Islamologiques, Le Caire 1983.

وعادل شحاتة طايع في رسالته للدكتوراه والتي جاءت تحت عنوان : " حي بولاق – ثغر مصر – منذ نشأته حتى نهاية العصر العثماني " دراسة أثرية حضارية، وتقع الرسالة في مجلدين، كلية الآثار – جامعة القاهرة ٢٠٠٦م.

وبعد قراءة متأنية لهذين العملين، حاول القلم التراجع عن الكتابة في تاريخ بولاق، ولكن ما لبث أن عاوده الحنين للكتابة في تاريخ بولاق خلال عصر دولة المماليك الجراكسة، خاصة وأن العملين السابقين أعطا مساحة واسعة للغاية للعصر العثماني دون العصر المملوكي، على اعتبار أنه العصر الذي ذاع فيه صيت بولاق، وازدهرت فيه ازدهارًا ملحوظًا، فضلاً عن الاهتمام الشديد بالجانب الأثري والمعماري دون التعمق في الجانب التاريخي خاصة عصر دولة المماليك الجراكسة. واستكمالاً لمنظومة تاريخ بولاق، وحتى تتضح صورتها التاريخية بشكل أكثر عمقًا خاصة من البدايات الأولى التي راحت فيها بولاق تطل برأسها على صفحة التاريخ، وحتى نهاية عصر دولة المماليك الجراكسة حين صارت في هذا العصر ميناء القاهرة الأول، أطلق القلم لنفسه العنان من أجل معالجة تلك الفترة من خلال المصادر التاريخية المعاصرة.

عالجت هذه الدراسة تاريخ بولاق منذ مرحلة التمهيد لظهورها فالظهور والنشأة، ثم مرحلة النمو والاتساع والإعمار، كما تناولت المنشآت المعمارية التي عرفتها بولاق في الفترة موضوع الدراسة ومنها المنشآت الدينية (المساجد – الزوايا)، والتعليمية

(المدارس)، والمنشآت الاجتماعية (القصور والدور ــ الحمامات ــ الأسبلة ــ مغسل بولاق وجبانتها)، والمنشآت التجارية (كالأسواق ــ الرباع ــ الوكالات والقياسر). وتطرقت الدراسة إلى دور بولاق في حياة سلاطين المماليك الجراكسة وكيف كانت استراحة السلاطين، ومقر للحكم ودار مملكة فضلاً عن استقبالها الرسل والسفراء وإقامتهم فيها.

وعرجت الدراسة إلى الدور الاجتماعي لبولاق في ذلك العصر وكيف كانت دارًا للاستشفاء ومنتزهًا من أجمل منتزهات القاهرة، وما كان يجرى بها من احتفالات فضلاً عن بعض الأطعمة والحلوى التي اشتهرت بها بولاق، وأخيرًا طوفت الدراسة في ساحل الغلة وصورت الحركة في سوق الغلال ببولاق، وارتفاع أسعار الغلال وانخفاضها وأسباب ذلك وما يجبى من مكوس، فضلاً عن دور السلاطين والأمراء في سوق الغلال ببولاق، وما امتلكوه من أهراء ومخازن وشون بها. ولم تغفل الدراسة النشاط الصناعي والتجاري في بولاق فعرضت لصناعة السفن وعصر الزيوت والقصب، وصناعة السكر وطحن الغلال والصباغة وصيد السمك وغيرها من الحرف والصناعات التي أمكن التعرف على ممارستها في بولاق من خلال المصادر المعاصرة، كذلك لم تغفل الدراسة دور بولاق كميناء في حركة التجارة والنقل، وديوان الجمرك وعماله، والرسوم التي تجبى في الميناء، عن طريق ديوان الجمرك، فضلاً عن صفقات البيع والشراء التي كانت تجرى في الميناء بحضور الشهود ودور قاضي بولاق، وأسدل الستار على تاريخ بولاق في عصر دولة المماليك الجراكسة بالحديث عن النقل وطرق المواصلات النهرية والبرية.

وآمل بهذه الدراسة أن أكون قد استكملت ركنًا في دراسة تاريخ بولاق وخاصة في العصر المملوكي.

والله أسأل التوفيق أنه نعم المولى ونعم النصير.

د. ليلى عبدالجواد إسماعيل

القاهرة في أكتوبر ٢٠٠٧م.

الفصل الأول

ظهور بولاق وإعمارها واتساعها

- مرحلة التمهيد.
- مرحلة الظهور والنشأة.
- مرحلة الإعمار.
- مرحلة النمو والاتساع.

الفصل الأول

ظهور بولاق[١] وإعمارها واتساعها

تلعب العوامل الطبيعية دورًا كبيرًا في ظهور مدن وضواحي جديدة واختفاء أخرى، وكان لانحسار النيل الدور الأكبر في ظهور بولاق كبقعة جديدة على أرض القاهرة في العصر المملوكي، وسرعان ما تدخلت عوامل أخرى جعلت نجمها يلمع في سماء القاهرة إذ أصبحت ميناؤها الأول بعد أن كانت المقس[٢] ومصر القديمة تؤديان هذا الدور.

---

(١) اختلفت الآراء حول معنى كلمة بولاق فقيل أن الصواب هو (بلاق) بكسر الباء والعامة تقولها بولاق، وهي كلمة مصرية قديمة Bilaq معناها المرساة أو الموردة التي ترسو فيها السفن. وقيل أن بلاق هي الأرض المرتفعة المطلة على النهر. وجاء في لسان العرب في مادة (بلق) أن منها البلوق والبلوقة وهي ما استوى من الأرض، وقيل هي بقعة ليس بها شجر ولا تنبت شيئًا، وقيل البلوقة أرض واسعة مُخصبة. وذهب البعض إلى أن كلمة (بولاق) مشتقة من كلمة قبطية معناها Fragmentum أي كِسرة أو كسراو شج، في حين يرى البعض الآخر، أن كلمة بولاق كلمة تركية Bulaq أو Bilaq معناها ماء الربيع أو ربيع الماء Spring of Water، ويذهب فريق آخر إلى القول بأن كلمة بولاق ذات قطعين الأول (بو وتعني الجميلة بالفرنسية) و(لاك أي البحيرة)، وهذا يعني أن معنى الكلمة " البحيرة الجميلة "، ثم حرفت بولاك إلى بولاق ولكن ليس هناك ما يؤكد هذا المعنى الأخير.
انظر : تاج العروس مادة بلق؛ ابن منظور، لسان العرب، مادة بلق، ص٣٤٧؛ محمد رمزي، القاموس الجغرافي، ق٢، ج٣، ص٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٩، طبعة دار الكتب ص١٢٨، هامش ٣ من وضع محمد رمزي؛
Nelly Hanna, An Urban History of Būlāq in The Mamluk and Ottoman Periods, Supplement aux Annales Islamologiques, Le Caire 1983, p.2, not 1;
عادل شحاتة طايع، " حي بولاق ثغر القاهرة منذ نشأته وحتى نهاية العصر العثماني، دراسة أثرية حضارية " مجلدان، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ٢٠٠٦م، ص١، هامش ٢.

(٢) المقس وهي أم دنين (الأزبكية الآن) وكانت تقع على شاطئ النيل إلى الشمال من حصن بابليون على البر الغربي للخليج، وسميت بالمقس في العصر الإسلام لأنها كانت مقرًا لصاحب المكس أو العاشر الذي كان يأخذ العشر من بائعي السلع في الأسواق مكسًا أو جباية للدولة، ثم قلبت الكاف قافا في كلمة المكس وأصبحت المقس. انظر : ابن تغري بردي، النجوم، ج٧، حاشية ٢، ص٣٠٨-٣٠٩؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٢، ص١٩٥-١٩٦.

مر ظهور بولاق وإعمارها بعدة مراحل هي على النحو التالي :

المرحلـة الأولى : يمكن أن يطلق عليها مرحلة التمهيد لظهور بولاق : بـدأت هذه المرحلة تحديدًا في عام ٥٧٠هـ/١١٧٤م عندما انحسر النيل عن مدينة المقس، وظهرت جزيرة عرفة باسم " جزيرة الفيل[١] ثم ظهر إلى جانب هذه الجزيرة عدة جزر أخرى ورمال، وما من سنة إلا وهي تكثر وتتزايد عامًا بعد عام وتتسع، حتى أصبحت جزيرة واحدة كبيرة، اتصلت من بحريها بجزيرة الفيل ومن قبليها بأرض اللوق[٢]. ولم يعد النيل يمر بها إلا في أيام الفيضان، ولا ينمو فيها على مدار العام سوى الحلفاء ويغطيها البوص. وقد اتخذ المماليك السلطانية[٣] من هـذه الجزيـرة الرملية مكانًا لرمي النشاب (الأقواس) والتدريب على الرماية، كما كانت الأمـراء تلعب بها الكرة[٤]. ويعني هذا أن بولاق في مهدها كانت عبارة عن جزر صـغيرة تغطيها الرمال وتحيط بها البرك وينمو بها الحلفاء والبوص.

---

(١) جزيرة الفيل (شبرا وروض الفرج الآن) وذكرها ابن دقماق فقال : هي الآن (أي عـصره) من حد أرض منية السيرج إلى أرض بولاق، ويقال أنها عرفت بشخص كان يزرعها أول ما طلعت كان يعرف بالفيل، وحكى لي شخص من أصحابنا الثقاة أن أصل منشأها إنـه كـان لأحد الخلفاء مركب يسمى بالفيل فانكسر مكان الجزيرة فتربت عليه، فسميت به. وصـارت كبيرة جدًا وبها نحو مائة بستان، وبها كفور وأسواق وطواحين وأفران ومـساجد وجوامـع وحمامات. انظر : الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ق٢، ص٤٦. وعنها انظر : المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٨٥-١٨٦؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج٧، ص٣٠٩، حاشية ٢.

(٢) اللوق هي الأرض اللينة التي تزرع بطريق التلوين، فبعد أن ينتهي الفيضان، يُصرف المـاء عنها وتتكشف أرضها، ولا تحتاج للحرث للينها ورخاوتها بل تلاق لوقا عند نثر البذور حيث تزرع بها أصناف شتوية. لمزيد من التفاصيل انظر : المقريزي، المواعظ والاعتبـار، ج٢، ص١١٥؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج٧، ص٣٠٨، هامش ٣.

(٣) المماليك السلطانية هم مشتريات السلطان وجلبانه، وما يتبقى عنده من مماليك من سبقه فـي السلطنة، ومرتباتهم جميعًا من ديوان المفرد. سعيد عاشور، العصر المماليكي فـي مـصر والشام، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٤٧٧.

(٤) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٣٠-١٣١؛ السلوك لمعرفـة دول الملـوك، ج٢، ق٢، ص٥٣٩.

أما **المرحلة الثانية** فتمثل ظهور بولاق وبدأت في عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م إذ يروي ابن تغري بردي في حوادث هذه السنة أنه " تربت جزيرة كبيرة ببحر النيل تجاه اللوق ... وانقطع بسببها مجرى البحر ... واتصل ما بين المقس وجزيرة الفيل بالمشي "[١]. وذلك بعد أن كان النيل يجري بينهما آتيًا من الجنوب. وسرعان ما أصبحت أرض متصلة بعد أن كانت جزر متفرقة، ثم طرح النيل على هذه الجزيرة فتربت، وارتفعت أرضها عن منسوب النيل، وذلك بسبب ما كان يتركه عليها من الطمي سنويًا، وأصبحت أرضها صالحة للزراعة والسكنى، وذلك بعد أن كانت تكسوها الحلفاء والبوص والرمال[٢].

وشكلت هذه الجزيرة أرض بولاق فهناك نص أورده كل من المقريزي والعيني[٣] في حوادث عام ٦٩٢هـ/١٢٩٢م يؤكد على تكون أرض بولاق في هذا التاريخ وأنها صارت معروفة فقد جاء في هذا النص أن السلطان الأشرف خليل بن المنصور قلاوون (٦٩٠-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م) كان قد عهد إلى الوزير الصاحب شمس الدين بن السلعوس[٤] بتجهيز الشواني[٥] وشحنها بالعدد وآلات

---

(١) النجوم، ج٧، ص٣٠٧-٣٠٨، ص٣٤٧؛ وانظر أيضًا : السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، مصر ١٢٩٩هـ، ص٢١٠.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم، ج٧، ص٣٠٧، هامش ٢.

(٣) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٩٤، ١٩٥؛ العيني، عقد الجمان في تواريخ أهل الزمان، ج٣، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٩٠م، ص١٨٥.

(٤) كان ابن السلعوس في بداية حياته تاجرًا من أهل دمشق، ثم تقرب من وزير دمشق الصاحب تقي الدين، وأخذ يتنقل في المناصب حتى ولي حسبة دمشق ٦٨٧هـ، ثم نظر ديوان الأشرف خليل بالشام، ثم نقله الأشرف خليل إلى ديوانه بمصر في ٦٨٩هـ، وعندما ولي الأشرف خليل السلطنة جعله وزيرًا له في عام ٦٩٠هـ. لمزيد من التفاصيل انظر : ابن الفرات، تاريخ، ج٨، ص١٠٦-١٠٨.

(٥) الشواني ومفردها شيني أو شاني أو شينية أو شونة هي السفينة الحربية الكبيرة، وكانت من أهم القطع التي يتكون منها الأسطول في الدولة الإسلامية وتسير بمائة وأربعين مجدافًا. لمزيد من التفاصيل انظر : درويش النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم، الإسكندرية، ١٩٧٩م، ص٨٣-٨٥.

الحرب، فلما انتهى من ذلك نزل السلطان من قلعة الجبل للتفرج عليها .. وخرج الناس مثل الجراد المنتشر من المقياس إلى بولاق، للفرجة كذلك، وحدث نفس الشيء في عام ٧٠١هـ/١٣٠١م في سلطنة الناصر محمد الثانية (٦٩٨-٧٠٨هـ/١٢٩٩-١٣٠٨م)، مما يؤكد ظهور بولاق على السطح، بل وحدد المقريزي موقعها فذكر " وصارت بولاق حينئذ تجاه بولاق التكرور "[1]. وتذكر المصادر كذلك أنه في أثناء الزلزال الذي ضرب البلاد في عام (٧٠٢هـ/١٣٠٢م)، وكان عنيفًا اضطر الناس لترك القاهرة، فضرب كثير من الأمراء خيامًا في الفضاء وأخرجوا حريمهم إليها، وكذلك خرجت خلق كثير نحو بولاق، ونصبوا الخيم من بولاق إلى الروضة[2].

أما **المرحلة الثالثة** وهي مرحلة إعمار أرض بولاق بعد أن أصبحت صالحة للزراعة والسكنى، وبدأت هذه المرحلة تحديدًا في عام (٧١٣هـ/١٣١٣م) في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م) وفي ذلك يروي المقريزي تحت عنوان ذكر بولاق " فلما كانت سنة ثلاث عشرة وسبعمائة رغب الناس في العمارة بديار مصر، لشغف السلطان الملك الناصر بها، ومواظبته عليها، فكأنما نودى في القاهرة ومصر أن لا يتأخر أحد من الناس عن إنشاء عمارة. وجدّ الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامة في البناء"[3].

يتضح من هذا النص أن عمارة أرض بولاق بدأت في سلطنة الناصر محمد الثالثة، فقد كان الناصر محمد شغوفًا بالعمارة والبناء، لذلك أمر بعمارة تلك الأرض البكر، ونادى بذلك في القاهرة ومصر (أي الفسطاط أو مصر القديمة)، فسارع الأمراء والجنود والكتاب والتجار بل والعامة في إعمار هذه المنطقة، وشجعهم

(١) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٣١.

(٢) المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٩٢٨، ٩٤٣؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص١٨٦، ص٢٦٣.

(٣) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٣١.

الناصر محمد على ذلك حتى قيل أنه كان إذا سمع بأحد قد أنشأ عمارة بمكان شكره في الملأ، وأمده في الباطن بالمال والآلات وغيرها، مما شجع الجميع على التشييد والبناء[1].

وكان أول من عمر في بولاق رجل من التجار، عمر قنطرة وأحاط جـدارًا على قطعة من الأرض وغرس فيها عدة أشجار، وتردد إليها للنزهة، وعمر الناس بجانبها دورًا على النيل، وسكنوا وشجعوا غيرهم ورغبوهم في السكنى هناك. وما لبثت المناظر والقصور أن امتدت على النيل من الدار المذكورة حتى جزيرة الفيل كما يروي المقريزي[2]. وسارع الأغنياء إلى إنشاء القصور العظيمة هناك وغرسوا وراءها البساتين، كذلك تنافس الناس في العمارة حتى أصبحت بولاق عامرة بالدور والأسواق والحمامات والمساجد والجوامع وغيرها[3]. ولم يكن اختيارهم لتعمير هذه المنطقة عفويًا بل لأنهم أدركوا أهمية هذا الموقع في النشاط الاقتصادي.

ولم يقتصر الأمر على إعمار بولاق بالبناء والتشييد ولكن ما لبثت أرضها أن اهتزت وربت وأصبحت تنتج من كل زوج بهيج فقد خصبها طمي النيل وروتهـا مياهه حتى صارت صالحة للزراعة، زراعة الخضر والفاكهة فقد ذكر المقريزي : " يزرع فيها القصب[4] والقلقاس على ساقية تنقل الماء من النيـل "[5]. كـذلك راح الناس يغرسون فيها الأشجار، والبساتين العظيمة وقد ذكر المقريزي أمثلة كثيـرة لهذه البساتين التي غرست خلال تلك الفترة من العمران الأول لبولاق ومن أهمها : بستان القاضي ابن المغربي رئيس الأطباء ثم اشتراه منه القاضي كريم الدين ناظر

---

(١) عبدالرحمن زكي، القاهرة تاريخها وآثارها، القاهرة، ١٩٦٦م، ص١١٥.

(٢) المواعظ، ج٢، ص١٣١.

(٣) المواعظ، ج٢، ص١٣١. وانظر تفصيل ذلك فيما يلي ص

(٤) عن شهرة بولاق بالقصب انظر أيضًا: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنـشا، ج١٤، ص٢٧٠.

(٥) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٦٦؛ السلوك، ج٢، ق١، ص٢٥١.

الخاص للأمير سيف الدين طشتمر الساقي[1] بنحو مائة ألف درهم فضة؛ كذلك أنشأ القاضي شرف الدين بن زنبور[2] بستانًا هناك، وأنشأ فخر الدين المعروف (بالفخر)[3] ناظر الجيش بستانًا وغيرهم كثير[4].

وكانت هذه البساتين كلها والحدائق الممتدة من بولاق وعلى طول النهر تروي عن طريق القنوات كما سبق وأشار المقريزي وأكده الرحالة مشولام بن مناحم الذي زار مصر في عام (١٤٨٤م)[5].

استمر عمران بولاق وإعمارها يجري على قدم وساق في عصر الناصر محمد بن قلاوون، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل ساهمت بفاعلية في هذا الإعمار ويسرت الوصول إليها والبناء والتشييد على أرضها، وسكناها, **ومن أهم هذه العوامل :**

أولاً : حفر الخليج الناصري في عام ٧٢٥هـ/١٣٢٤م ليمر من خارج القاهرة إلى سرياقوس حيث بنى الناصر محمد قصوره وخانقاته المشهورة[6].

وقد ترتب على حفر الخليج نتائج هامة ساهمت في إعمار بولاق وتعميرها، وذلك لأن الأهالي اشتروا عدة أراضي على جانبي الخليج الناصري وغرسوا فيها

---

(١) هو طشتمر بن عبدالله الناصري الساقي، المشهور بحمص أخضر، وهو من مماليك الناصر محمد بن قلاوون، وأحد خواصه، ولي نيابات حلب، وصفد، ونيابة السلطنة بمصر في عام ٧٤٢هـ، وكان وافر الحرمة، ظاهر الحشمة، عزيز الهمة، جزيل الأموال، كثير الجود والأفضال، كبيرًا في الدولة، معروفًا بالسطوة والصولة. لمزيد من التفاصيل انظر : ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٦، ص٣٩٢-٣٩٤. وعن وظيفة ناظر الخاص انظر ما يلي ص .

(٢) عن ابن زنبور، انظر : المقريزي، المواعظ، ج٢، ص٦٠-٦٢.

(٣) انظر ترجمة الفخر فيما يلي ص٢٩، هامش ٢.

(٤) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٣١.

(٥) Alder. E. N., Jewish Travellers, London 1930, p. 170.

(٦) لمزيد من التفاصيل حول حفر هذا الخليج، انظر : المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٤٥؛ وانظر أيضًا : قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص٣١-٣٢.

الأشجار، كما أخذوا في العمارة على حافتي الخليج فعمروا ما بين المقس وساحل النيل ببولاق ... وتنافس الناس في السكنى هناك، وأنشأوا الحمامات والمساجد والأسواق كما يروي المقريزي[1].

وذكر ابن تغري بردي أيضًا " وعمرت بجانبي هذا الخليج عدة بساتين وأملاك ... وعمرت ناحية بولاق بعد أن كانت رمالاً، يرمي بها المماليك النشاب وتلعب الأمراء بها الكرة، فصارت كلها دورًا وقصورًا وجوامع وأسواق وبساتين ... واتصلت العمائر من ناحية مُنية السيرج[2] على النيل إلى جامع الخطيري ... إلى منشأة المهراني[3] حتى أن الإنسان تعجب لذلك، فإنه كان قبل ذلك بمدة يسيرة تلالاً ورمالاً وحلفاء، فصار لا يُرى قدر ذراع إلا فيه بناء "[4].

وقد عمرت على الخليج الناصري عدة قناطر ساهم بعضها في سهولة الوصول إلى بولاق وشجعت الكثيرين على سكناها والعيش والإقامة بها وأهمها بالنسبة لبولاق " قنطرة باب البحر " أنشأها الناصر محمد بن قلاوون في عام ٧٢٥هـ/١٣٢٤م عند الانتهاء من حفر الخليج الناصري، ويتواصل إليها من باب

---

(١) المواعظ، ج٢، ص١٤٥؛ وانظر أيضًا : عبدالرحمن زكي، القاهرة، ص١٧٠-١٧٢؛ منى سعد محمد الشاعر "شبكة الري المصرية في عصر سلاطين المماليك البحرية " بحث منشور في أعمال مؤتمر التاريخ الاقتصادي، جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٥٧-٥٨، ٨٨.

(٢) منية السيرج أو الشيرج ذكرها المقريزي في المواعظ تحت عنوان " منية الأمراء "، وهي بلدة فيها أسواق، على بعد فرسخ من القاهرة، ووجدها المقريزي عامرة بكثرة المساكن والناس والأسواق والمناظر، واعتاد الناس على النزهة بها فقد كانت من منتزهات القاهرة، وهي الآن من الضواحي التابعة لقسم شبرا بالقاهرة. انظر : المواعظ، ج٢، ص١٣٠؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج٩، ص٨٣، حاشية ١، وانظر الخرائط.

(٣) منشأة المهراني ذكر المقريزي أنها تقع بأول بر الخليج الغربي، عند قنطرة السد. انظر : المواعظ، ج١، ص٣٤٥، ج٢، ص١٣١-١٣٢، ١٤١، وانظر الخرائط.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم، ج٩، ص١٨٣-١٨٥؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٣٩؛ وانظر أيضًا : أندريه ريمون، القاهرة، ترجمة لطيف فرج، القاهرة، ١٩٩٣م، ص١٢٠.

البحر، ويمر الناس من فوقها إلى بولاق وغيرها. وقد ترتب على إنشاء هذه القنطرة أن تتابع الناس في العمارة حتى انتظم ما بين شاطئ النيل ببولاق وباب البحر عرضًا، وما بين منشأة المهراني ومنية السيرج طولاً ... وتقاسمت الطرق وتعددت الشوارع. كما يروي المقريزي[1].

سعى الناصر محمد بن قلاوون كذلك إلى ربط الخليج الناصري بساحل النيل ببولاق، فأنشأ في عام ٧٣٠هـ/١٣٢٩م خليج آخر عُرف باسم " خليج قنطرة الفخر"[2]. ويبدأ هذا الخليج من ساحل النيل ببولاق وينتهي إلى حيث يصب في الخليج الناصري، وقد ساعد ذلك بطبيعة الحالة على غرس البساتين وتعمير جانبيه بالأملاك والدور المطلة عليه[3].

ثانيًا : إنشاء الجسور، فالجسور تلعبًا دورًا هامًا في السيطرة على حركة النيل وترويضه، وتمنع أخطار الفيضان التي تهدد عمائر بولاق وبساتينها وحدائقها.

أ – جسر من بولاق إلى مُنية الشيرج :

تعرضت بولاق ـ بحكم موقعها على النيل ـ شأنها شأن غيرها من أحياء القاهرة المطلة عليه لخطر الفيضان، فحدث في عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣م أن ارتفع النيل في ١٧ رمضان من هذا العام، واندفع الماء، ودخل بولاق، وغرَّق عددًا من البساتين، كما غرقت كثير من المزروعات خاصة القلقاس والقصب وغيرها من

---

(١) المواعظ، ج٢، ص١٥١.

(٢) قنطرة الفخر واحدة من القناطر التي عمرت على الخليج الناصري، وهي أول قنطرة عمرت على هذا الخليج وتقع على فمه، أنشأها القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله المعروف بالفخر ناظر الجيش وذلك في سنة ٧٢٥هـ عند انتهاء حفر الخليج الناصري. المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٤٨؛ عبدالرحمن زكي، القاهرة، ص١٧٢.

(٣) انظر المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٤٦. ويذكر محمد رمزي أنه بالبحث عن هذا الخليج تبين أن فمه كان من النيل الحالي تجاه مدخل شارع اصطبلات الطرق ببولاق، ثم يسير بالشارع المذكور إلى أن يتلاقي بشارع فؤاد الأول .. ويسير حتى يصب في الخليج الناصري، وقد زال الآن. انظر : ابن تغري بردي، النجوم، ج٩، ص١٢٤-١٢٥، هامش٣.

المحاصيل التي اشتهرت بولاق بزراعتها، كما ترتب على هذا الفيضان أن قطعت الطرق من جهة بولاق، وانهدمت عدة بيوت بها. ثم زاد الماء وفاض على منية السيرج وجزيرة الفيل ومنشأة المهراني ومنشأة الكتبة[١] حتى صار ما بين بولاق ومصر (أي مصر القديمة) بحرًا واحدًا، كما يروي المقريزي[٢].

أدرك السلطان الناصر محمد بن قلاوون ما يترتب على زيادة النيل من دخول الماء إلى القاهرة وغرق أهلها ومساكنها، لذلك قرر إقامة جسر لمواجهة الزيادة، واستدعى من أجل ذلك متولي القاهرة والمهندسين ورسم بعمل جسر يحجز الماء، ويمتد من بولاق إلى منية الشيرج لتلافي خطر الفيضان وحجز الماء عن القاهرة، وبدأ المهندسون والعمال في إنجاز هذا العمل، ونودي في القاهرة ومصر من كان عنده تراب فليرمه بناحية بولاق .. وألزم أرباب الأملاك التي ببولاق وغيرها أن يقف كل واحد على إصلاح مكانه، ويحترس من عبور الماء على غفلة. واستمر العمل في بناء الجسر حتى أنجز في حوالي عشرين يومًا، وكان ارتفاعه عن الأرض أربع قصبات[٣] في عرض ثمانية[٤].

لم يكتف السلطان الناصر محمد بعمل الجسر من بولاق إلى مُنية الشيرج بل ألزم كل من له دار على النيل بمصر ومنشأة المهراني ومنشأة الكتبة وبولاق أن

---

(١) منشأة الكتبة أو الكتاب وتقع بين بولاق ومنشأة المهراني، وسميت بذلك لأن عدة من الكتاب عمروا دورًا جليلة في هذا الموضع، حتى اتصلت العمارة بمنشأة المهراني. انظر : المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٣١-١٣٢؛ السلوك، ج٤، ق١، ص٣٠٣، حاشية ٦.

(٢) المواعظ، ج٢، ص١٦٦؛ السلوك، ج٢، ق١، ص٢٥١.

(٣) القصبة : متوسط قيمتها هو ٣,٩٩ مترًا، انظر : فالترهنتس، المكاييل والأوزان، ص٩٤-٩٥.

(٤) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٦٦؛ السلوك، ج٢، ق١، ص٢٥١؛ وانظر أيضًا : منى سعد الشاعر، شبكة الري، ص٦٤.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الجسر قد اندثر اليوم، ومكانه اليوم شارع الترعة البولاقية من بولاق إلى منية الشيرج. انظر : ابن تغري بردي، النجوم، ج٩، ص١٩٢، حاشية ١.

يعمر أمامها زربية[1]، ولا يطلب منهم عليها حكرًا، ونودي بذلك، فشرع الناس في عمل الزرابي[2].

انتفع الناس في بولاق وفي غيرها انتفاعًا كبيرًا من جـراء إنـشاء الجـسر وعمل الزرابي، فقد آمنوا خطر الفيضان، وراحوا يزرعون أرضهم وبساتينهم بعد أن أفسدها الفيضان وغرق الأقصاب والقلقاس والنيلة وغيرهـا وأفـسد مطـامير الغلات ومخازنها وشونها، وآخرَّ الزرع عن أوانه؛ مما دفع السلطان إلـى عـدم مطالبتهم بالخراج عن البساتين ومسامحتهم بنظير ما فسد من الغرق. أما وقد بنـى الجسر فقد حسن الزرع للغاية ــ كما يروي المقريزي ــ في تلك الـسنة وانحـط السعر لكثرة ما زرع من الأرض[3].

ب ــ الجسر بوسط النيل :

هدد النيل شاطئ بولاق من جديد عام ٧٣٨هـ/١٣٣٧م، وهدم جانـب مـن جامع الخطيري، فأمر السلطان بعمل زربية بجانبه، كما أمر السكان على شـاطئ النيل بعمل زرابي لجميع الدور الواقعة على النيل وإلا يؤخذ منهم حكرًا، وكتبـت بذلك مسامحات لأرباب الأملاك، فبنى صاحب كل دار زربية أمـام داره، وعمـر الناس الكثير من الزرابي، ولكن ذلك لم يفد في شيء لاشتداد تيار النيل من ناحيـة البر الشرقي، فخشي السلطان أن يقطع النيل بر بولاق، لذلك جمع المهندسين مـن مصر والشام، فلما تكاملوا عنده، نزل بنفسه النيل في حراقة[4] وبين يديه الأمـراء

---

(١) زربية والجمع زرابي هي ما يبتنيه أصحاب البيوت المطلة على النيل من حـوائط لحمايـة بيوتهم من فعل الماء، ومن سلالم لتسهيل الوصول من تلك البيوت إلى النهر. وقيل أيضًا هي نوع من الأرصفة المبنية على أوتاد أو دعائم على شـواطئ النيـل. انظـر : المقريـزي، السلوك، ج٢، ق١، ص٢٥١، حاشية ٣؛ المواعظ والاعتبار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المجلـد الثالث، لندن، ٢٠٠٢، ص٤٣٥، هامش ٢.

(٢) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٦٦؛ السلوك، ج٢، ق١، ص٢٥١.

(٣) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٦٦.

(٤) يقصد بها هنا المركب النيلية العظمى التي يتخذها الملوك والسلاطين والأمراء للنزهة أو لقـضاء أشغالهم ومهماتهم. وعن الحراقة، انظر : درويش النخيلي، السفن الإسلامية، ص٣٢-٣٧.

وسائر أرباب الخبرة من المهندسين، وكشف أمر شطوط النيل، وبعد إتمام عملية الاستكشاف اتفق رأي السلطان مع رأي المهندسين على عمل جسر في وسط النيل فيما بين بولاق وناحية أنبوبة[1] من البر الغربي، والغرض من هذا الجسر أن يكون سدًا عاليًا، إذا وصل إليه تيار الماء ضربه، حتى يتراجع عن بولاق والقاهرة[2].

اتخذ السلطان الناصر محمد كافة الاستعدادات للشروع في بناء الجسر فاستدعى شاد العمائر[3] السلطانية، وأمره بطلب الحجارين وقطع الحجر من الجبل، كما طلب من رئيس البحر وشاد الصناعة إحضار المراكب التي عندهم، وعهد بالإشراف على بناء الجسر إلى كل من الأمير أقبغا عبدالواحد والأمير برصبغا الحاجب، وأمر والي القاهرة بأن لا يدع أحدًا حتى يسخره في هذا العمل[4].

بدأ العمل في بناء الجسر جديًا من يوم الأحد الموافق العاشر من ذي القعدة من عام ٧٣٨هـ/١٣٣٧م، تحت سمع وبصر كل من الأمير أقبغا والسلطان الناصر محمد الذي حرص بين الحين والحين على النزول من القلعة ومتابعة سير العمل في الجسر، بل قيل إنه كان ينزل يوميًا لمباشرة العمل، وكان يغلظ في القول على أقبغا ويستحثه على السرعة واستنهاض العمال، حتى تم إنجاز العمل في مدة شهر[5].

---

(١) تعرف اليوم بأمبوبة وتقع شمال مدينة إمبابة على بعد ٣ ك.م ومشتركة مع قرية وراق الحضر في سكن واحد. لمزيد من التفاصيل انظر تعليق محمد رمزي في النجوم، ج٩، ص١٢٤، هامش ١؛ ص١٢٦، هامش ١.

(٢) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٦٧؛ السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٤٩-٤٥١؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج٩، ص١٢٥-١٢٧؛ اليوسفي، نزهة الناظر في تاريخ الملك الناصر، تحقيق أحمد حطيط، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٤٤٩؛ الشجاعي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون، تحقيق بربارة شيفر، فيسبادن، ١٩٧٨م، ص٣١.

(٣) هو الملاحظ أو المشرف أو المفتش على العمائر السلطانية.

(٤) لمزيد من التفاصيل عن عملية البناء، انظر : الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، ص٢٣١؛ اليوسفي، نزهة الناظر، ص٤٥٠؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج٩، ص١٢٧.

(٥) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٦٧؛ الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، ص٣٢؛ اليوسفي، نزهة، ص٤٥٠؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج٩، ص١٢٧-١٢٨.

وأنفق السلطان على بناء هذا الجسر أموالاً كثيرة من خزائنه كما يذكر ابن تغـري بردي[1]. وبلغ عدد المراكب التي ملئت بالحجارة حتى ردم وصار جسرًا ثلاثة وعشرون ألف مركب سوى ما عمل فيه من آلات الخشب والسرياقات[2]. والحلفاء وغير ذلك حتى صار الجسر عاليًا فوق الماء، ويمشون عليه من بر بولاق[3].

سُر السلطان والناس قاطبة لإنجاز ذلك العمل الضخم في فترة وجيزة لما ترتب على بنائه من نتائج هامة فقد ساهم هذا الجسر مساهمة فعالة في انطراد الماء عن بر بولاق[4]. وآمنت به خطر زيادة النيل وما كانت تتعرض له من غرق للزرع والدرع؛ كما ساهم هذا الجسر في ربطها بالبر الغربي للنيل، وسهل الوصول إليها.

وفي عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م تم إقامة جسر بين الروضة والجيزة[5] فترتب على ذلك أن اندفع الماء على ناحية بولاق، وسقط أحد عشر بيتًا من بيوتها دفعة واحدة كما سقط ما خلفها، ولما سقطت تلك البيوت وذهب فيها مال كبير للناس في الغرق، ونهب الأوباش، ثم خرب ربع السنافي وقطعة من ربع الخطيري وعدة دور أخرى. وذلك كله بسبب إقامة الجسر بين الروضة والجيزة، ورغم ما أنفقه السلطان الناصر من أموال باهظة في سبيل إقامته[6].

---

(١) النجوم، ج٩، ص١٢٨.

(٢) السُرياقات، جمع سرياقة وهي السوط الذي يصنع من جلد فرس البحر وهي المعروفة اليوم بالكرباج، انظر : ابن تغري بردي، النجوم، ج٩، ص١٢٨، هامش ٢؛ المقريزي، المواعظ، تحقيق أيمن فؤاد، م٣، ص٥٥٧.

(٣) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٦٧؛ اليوسفي، نزهة الناظر، ص٤٥٠-٤٥١؛ الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، ص٣١-٣٢؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج٩، ص١٢٨.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم، ج٩، ص١٢٨.

(٥) لمزيد من التفاصيل عن بناء هذا الجسر، انظر : المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٦٧-١٦٩؛ السلوك، ج٢، ص٣٦٢-٣٦٣، ق٢، ص٧٠٤؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص١٣٠.

(٦) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٦٩؛ عبدالباسط بن خليل، نيل الأمل في ذيل الدول، ج١، ص١٦٩-١٧٠؛ وانظر أيضًا : أندريه ريمون، القاهرة، ص١٢٠؛ حياة الحجي، أحوال العامة في حكم المماليك، الكويت، ١٩٩٤م، ص٣٤٣. وعن ربع الخطيري انظر ما يلي عند الحديث عن الرباع.

على أية حال كان اهتمام السلطان الناصر محمد بن قلاوون ببناء الجسور والخلجان وبالإنشاء والتعمير عامة، قد لعب دورًا كبيرًا في إعمار بولاق، وساعد على زراعة أرضها وسهولة الوصول إليها وتشجيع الناس على سكناها والإقامة فيها، واشتداد تيار العمران بها.

المرحلة الرابعة : تمثل نمو اتساع مساحة بولاق وامتدادها من سائر الجهات، على حساب النيل الذي بدأ ينحسر أمام ساحلها شيئًا فشيئًا، وبدأت تظهر جزر أخرى، لا تلبث أن تمتد وتتصل ببولاق، فيذكر المقريزي " أنه ظهرت جزيرة قريبة من ساحل بولاق في حدود سنة ثمانين وسبعمائة ... واتسعت شيئًا فشيئًا في الطول والعرض حتى لم يبق بناحية بولاق إلى أوائل جزيرة الفيل شيء من ماء النيل البتة، وإنما هي أرض "(1). وهذا يعني أن حدود بولاق وصلت في هذه السنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م إلى أوائل جزيرة الفيل، بل ما لبثت أن امتدت إلى الجزء الجنوبي من هذه الجزيرة وضم إليها، وأصبح جزءًا منها، وليس أدل على ذلك مما ذكره ابن دقماق (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) عند حديثه عن جزيرة الفيل من أن " الجوامع بها .. جامع الفخر المطل على النيل وجامع الأسيوطي بطرفها "(2). في حين تذكر المصادر المتأخرة أنهما في بولاق. كذلك ما ذكره المقريزي(3). من أن دار أي قصر الطنبدي التاجر كانت بجزيرة الفيل في حين تجمع المصادر المتأخرة على أنها تقع في بولاق(4). وهذا أمر طبيعي لأن الطرح الجديد للنيل دفع الكثيرين إلى البناء والتعمير، وتشييد الدور والقصور والمناظر بل والمساجد وغيرها على شاطئ بولاق.

ما لبثت أرض بولاق أن اتسعت ثانية فقد حدث في سنة ست وثمانمائة ــ كما

---

(1) السلوك، ج٤، ق١، ص٣٠٤.

(2) الانتصار، لواسطة عقد الأمصار، بيروت، بدون تاريخ، ص٤٦؛ وانظر أيضًا :
Nelly Hanna, An Urban, p. 46, 47.

(3) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٨٦.

(4) عن هذا القصر انظر ما يلي ص٦٦-٦٧.

يروي المقريزي ـ[1] أن انحسر ماء النيل عن ساحل بولاق تجاه جامع الخطيري، وصار رملة[2] لا يعلوها الماء إلا في أيام الزيادة. وهذا يعني تكون أرض جديدة على ساحل بولاق، فبعد أن كان جامع الخطيري على الساحل مباشرة ابتعد وصارت أمامه ساحة واسعة[3] ما لبثت أن عمرت وكانت هذه الساحة تمتد من جامع الخطيري إلى قصر ابن البارزي[4]. كذلك تم تعمير جامع الخطيري، وراح الناس أيضًا يعمرون هذه الأرض الجديدة، ويبنون ويشيدون دورًا وقصورًا ومناظرًا ومنتزهات.

وفي عهد السلطان المؤيد شيخ المحمودي (٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢١م) شهدت بولاق نهضة عمرانية جديدة، فقد ذكر الرحالة جلبرت لانوي Gillebert de Lannoy الذي زار مصر عام ٨٢٤-٨٢٥هـ/١٤٢١م " أن بولاق تجاور بابليون (الفسطاط) وتصطف بها المنازل على طول النهر "[5].

وشجع على تلك النهضة العمرانية التي شهدتها بولاق في ذلك العصر قيام السلطان المؤيد شيخ ببعض المشروعات العمرانية إذ أمر في ربيع الأول سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م بحفر الرمال من عند المقياس إلى جامع الخطيري ببولاق، وجعل هناك أمراء وأجناد وفعلة كثيرين، وأبقار بالجراريف، كما نودي بخروج أهل الحرف والصنائع في ٣ ربيع الآخر من نفس العام للعمل، وأخذ السلطان المؤيد

(١) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٣١٢.
(٢) هذه الرملة كان يقال لها مُنية بولاق ومكانها المنطقة التي لا تزال تعرف برملة بولاق الواقعة عند كوبري إمبابة بين النيل وشارع كوبري روض الفرج بقسم بولاق. انظر: ابن تغري بردي، النجوم، ج٧، ص٣٠٩، حاشية ٢.
(٣) ذكر محمد رمزي أن هذه الساحة كانت تقع في الجهة الشمالية لجامع الخطيري الكائن بشارع فؤاد الأول (٢٦يوليو حاليًا) ببولاق القاهرة، وأنها كانت تمتد على شاطئ النيل القديم، وكان حدها البحري شارع حواصل الكسب، وحدها الشرقي شارع سيدي الخطيري ببولاق. انظر ابن تغري بردي، النجوم، ج٩، ص١٨٦، حاشية ١.
(٤) ابن تغري بردي، النجوم، ج٩، ص١٨٦، وانظر ما يلي.
(٥) انظر Dopp, Le Caire, p. 120.

شيخ الفأس بيده، وحفر بعض الشيء، وعندئذ لم يبق أحد من أعيان الدولة، وأرباب الوظائف والمباشرين إلا وأخذ القفف بأيديه وخول التراب من موضع الحفر، وأقام السلطان هناك إلى العصر، ومد الأسمطة والأطعمة[١].

وقد ساعد ذلك على جريان المياه في سهولة ويسر بين المقياس وبولاق مما يسر حركة المراكب في هذه المنطقة وسهولة العبور إليها والسكنى والإقامة بها.

ودلل المقريزي على اتساع بولاق الجديد بقوله : " أن ناحية بولاق (الآن أي عصره ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) عامرة، وتزايدت العمائر بها، وتجددت فيها عدة جوامع وحمامات ورباع وغيرها "[٢]. وتحدث ابن ظهيرة (٨٢٥-٨٩١هـ) عن هذا الاتساع وتلك النهضة العمرانية، كما تحدث عن القصور والمناظر والبيوت والمساكن، التي اصطفت على شاطئ النيل ببلاق (بولاق)، وذكر أيضًا أن بولاق نتيجة لذلك " صارت مدينة ضخمة ذات أسواق، وحمامات وشوارع وأزقة، يتيه السالك فيها، إن لم يكن معه دليل، وسكنها خلق عظيم من سائر البلاد "[٣]. توحي هذه العبارات بمدى الاتساع والعمران الذي بلغته بولاق في تلك المرحلة لدرجة أن سالكها يتيه إذا لم يكن معه دليل؛ ونتج عن هذا العمران كثرة عدد السكان بها. وما لبث ابن ظهيرة أن دلل على هذا الاتساع الجديد في مساحة بولاق في عصره فذكر: " وامتدادها طولاً من جهة البحر من جزيرة الفيل إلى الجزيرة الوسطى[٤]

---

(١) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج٢، ص٣٤٩؛ المقريزي، السلوك، ج٤، ق١، ص٣٠٣-٣٠٤؛ العيني، عقد الجمان (٨١٥-٨٢٣هـ) تحقيق عبدالرازق الطنطاوي القرموط، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٢٢١-٢٢٤.

(٢) المواعظ، ج٢، ص١٣١؛ السلوك، ج٣، ق٢، ص٨٩٤، هامش ١.
عن الحمامات والرباع والمساجد والجوامع، انظر ما يلي.

(٣) الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة، ١٩٦٩م، ص٢٠٢؛ وعن القصور والمناظر التي شيدت في بولاق انظر ما يلي.

(٤) تعرف بجزيرة أروى، وتقع في وسط النيل بين بولاق والقاهرة وجزيرة الروضة وبر الجيزة، وعرفت باسم جزيرة بولاق لوقوعها تجاهها، وتعرف اليوم باسم الجزيرة أو جزيرة الزمالك. لمزيد من التفاصيل عنها انظر : ابن دقماق، الانتصار، ق٢، ص٤٥-٤٦؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج٩، ص١٢٦، هامش ٢؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٨٦.

فراسخ[1] كثيرة "[2]. أما خليل بن شاهين الظاهري (ت ٨٧٢هـ/١٤٦٨م) فقد جعل مساحتها تضاهي مساحة مدينة طرابلس[3].

وترجع تلك النهضة العمرانية التي شهدتها بولاق في ذلك الوقت والناجمة عن اتساعها إلى اهتمام سلاطين تلك الفترة بأمرها، فقد اهتم السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م) بأمر بولاق فأمر بإنشاء جسر بين قصر الطنبدية[4] ومعصرة الخليفة، ونزل من القلعة في ١٨ جمادي الأول سنة ٨٥٤هـ/١٤٥٠م وبين يديه جميع أمرائه وأعيان دولته، وتوجه إلى بولاق ليرى ذلك الجسر، فوصل إليه، ونظر إلى عمارته وهو راكب على فرسه، فأعجبه، لذلك خلع على المعلم زين ابن البلقيني[5] وعلى البدر بن ظهيرة ناظر العمائر السلطانية، وعلى جماعة آخر ممن باشروا عمل الجسر المذكور، ثم عاد إلى القلعة[6]. وبذلك أدرك جقمق أهمية بولاق، فبنى بها طرقًا جديدة لتسهيل حركة التجارة والنقل بشكل أكبر عبر النهر والبر معًا.

وانتابت السلطان الأشرف إينال (٨٥٧-٨٦٥هـ/١٤٥٣-١٤٦٠م) رغبة في الحفاظ على جمال بولاق والتخطيط العمراني لها، وإزالة ما بها من عشوائيات

---

(١) الفرسخ يتألف من ثلاثة أميال، والميل حوالي ٢كم٤، ومن ثم الفرسخ طوله حوالي ٦كم٤. انظر فالترهنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، عمان، ١٩٧٠م، ص٩٤.

(٢) الفضائل الباهرة، ص٢٠٢.

(٣) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس، ١٨٩٤م، ص٢٨.

(٤) عن قصر الطنبدية، انظر ما يلي ص٦٦-٦٧.

(٥) ذكر ابن تغري بردي أن السلطان خلع على المعلم علي بن اسكندر في حين ذكر السخاوي أن المعلم يدعى زين بن البلقيني. انظر : حوادث الدهور، ج١، ص٢١٧؛ السخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، ج٣، ص٣٩.

(٦) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج١، ص٢١٦-٢١٧؛ السخاوي، التبر المسبوك، ج٣، ص٣٩؛ Nelly Hanna, An Urban History of Būlāq, p. 27

وتوسيع طرقها، خاصة عندما توجه إليها في جمادي الأولى ٨٦٢هـ/١٤٥٨م بصحبة الأمراء وأرباب الدولة، فرأى العمائر قد كثرت هناك، وحالت دون الوصول إلى البحر أو إلى ساحل بولاق إلا في قليل من المواضع، لذلك أمر بهدم ما كان ببولاق من الأخصاص (الأكواخ) التي كانت تضيق الطريق على السالك، كما أمر بهدم بعض البيوت التي ضيقت الطريق، وأمر أيضًا بأن ينادي بألا يبنى ببولاق بناء يضيق به الطريق(١). وتم تنفيذ أوامر السلطان فيذكر عبدالباسط أن صاحب الشرطة نزل بأعوانه، واستمر ببولاق حتى هدم ما أمر السلطان بهدمه، وتمادى في ذلك أيامًا(٢). في حين ذكر البقاعي أن " الوالي أصبح يهدم بيوت الناس، فحصل من ذلك جملة أموال، وهدم ما لم يكن لصاحبه مال أو جاه ... "(٣).

وهكذا حرص السلطان على إتاحة الفرصة أمام الأفراد للوصول إلى ساحل بولاق في حرية ودون أي عقبات قد تعترض طريقهم إليه، لأنه كان يؤمن بأنه لا يجب أن تطغى حرة الفرد على حرية الغير(٤). وذلك بعد أن ازدحمت بولاق ازدحامًا شديدًا وأصبحت أهله بالسكان وبالعشوائيات، مع عدم توافر الأرض اللازمة للبناء عليها.

غير أن بولاق ما لبثت أن تعرضت لكارثة كبيرة، قضت على الكثير من عمائرها فقد تعرضت لحريق هائل في شهر رجب من نفس العام ٨٦٢هـ/١٤٥٨م(٥) أكل الكثير من رباعها وأبنيتها، وهو ما سنفصل له فيما بعد.

---

(١) عبدالباسط بن خليل، نيل الأمل، ج٦، ص٢٩؛ البقاعي، تاريخه، ق٢، ص٣٥٢؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٦، ص١١٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٣٤٦؛ وانظر أيضًا : أندريه ريمون، القاهرة، ص١٦٠.

(٢) عبدالباسط بن خليل، نيل الأمل، ج٦، ص٣٩.

(٣) البقاعي، تاريخ، ق٢، ص٣٥٢.

(٤) أندريه ريمون، القاهرة، ص١٦٠.

(٥) لمزيد من التفاصيل عن هذا الحريق وأضراره، انظر ما يلي ص

ورغم هذا الحريق ألا أن بولاق ما لبثت أن استعادت رونقها من جديـد، وارتـدت ثوبها القشيب، بعد أن تم إزالة أضرار ذلك الحريق الهائل الذي تعرضت له؛ واستمر اتساعها وعمرانها حتى أواخر العصر المملوكي، ففي عام ٩١٢هـ/١٥٠٨م ظهرت جزيرة أمام بولاق وما لبثت أن اتصلت بها، وهرع الناس إليها يزرعون بها الورود والرياحين لذلك اتخذها أهل بولاق متنزهًا لهم يقضون به أطيب الأوقات(١).

شهد الرحالة الذين زاروا بولاق في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي على ما بلغته مساحة بولاق من اتساع حتى أصبحت باب القاهرة على البحر المتوسط، فقد وصف الرحالة جوس فان جستيل Joos Van Ghistele الذي زار مصر خلال عامي (١٤٨٢-١٤٨٣م) وصف بولاق بقوله : " أن بولاق مكان جميل، يمتد على طول النيل، وإنها أكبر من بابليون (الفسطاط أو مصر القديمة)، ولكن ليس لها أبواب ولا أسوار "(٢). كما ذكر جوس أنها أي بولاق أحد حدى القاهرة الحد الأول هو بابليون (الفسطاط) والحد الثاني هو بولاق(٣).

وحدد بعض الرحالة أيضًا الذين زاروا مصر في العشرينات من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي المسافة بين القاهرة وبولاق فذكر الرحالة المدعو جلبرت لانوي Ghillebert de Lannoy أن بولاق تقع على بعد ثلاثة أميال من القاهرة(٤). ولكن هذه المسافة ما لبثت أن تقلصت مع اتساع مساحة بولاق

---

(١) لمزيد من التفاصيل، انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١١٠-١١١؛ وانظر ما يلي ص

(٢) Joos Van Ghistele, Voyage en Egypt (1482-1483) Tran. Introduction et Notes, par Renée Bauwens-Préanx, Le Caire 1977, p. 56.

ولد جوس فان جستيل في إحدى كبرى العائلات في إقليم الفلاندرز في عام ١٤٤٦م، وبدأ رحلته إلى الشرق في عام ١٤٨١م.

(٣) Joos Van Ghistele, Voyage, p. 18.

(٤) نقلاً عن :

Dopp. P.H., " Le Caire Vu Par Les Voyageurs Occidentaux du Moyen Age " dans Bulletin de La Société Royale de Geographie d'Égypte, T.XXIV, Deuxiéme Article, November, 1951. p. 120.

وامتداد العمران فيها وقد دلل على ذلك الرحالة الذين زاروا بولاق في مطالع القرن السادس عشر ومن أشهرهم الحسن الوزان الزياتي الذي زار مصر عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م) والرحالة بطرس بيلون مانس Pierre Belon du Mans الذي زار مصر (٩٥٤هـ/١٥٤٧م) والرحالة أندريه تيفي André Thevet الذي زارها (٩٥٦هـ/١٥٤٩م) وأجمع الثلاثة على أن " بولاق ربض كبير يبعد مسافة ميلين تقريبًا من المدينة المسورة (أي القاهرة)[1]. مما يدل دلالة قاطعة على امتداد العمران في بولاق حتى اقترب من القاهرة. فبعد أن كانت المسافة بينهما ثلاثة أميال أصبحت ميلين.

ذكر الوزان كذلك أن بولاق تضم أربعة آلاف أسرة ... وتوجد بها أبنية جميلة كالجوامع والبيوت والمدارس ... والبيوت المبنية على ضفة النيل على الخصوص جميلة جدًا، وأنها لمتعة كبيرة أن يرى الإنسان من نوافذ هذه البيوت السفن التي تأتي عن طريق النيل لميناء القاهرة الواقع بها[2]. وتشير عبارات الوزان إلى النهضة العمرانية المذهلة التي شهدتها بولاق في أواخر عصر سلاطين المماليك وبداية العصر العثماني على الرغم من الاختلال الذي أمست مصر تعاني منه خاصة بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في عام (٩٠٤هـ/١٤٩٨م)، ثم الفتح العثماني لها في عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م). ورغم ذلك فإن الحركة في بولاق كانت نشطة اعتمادًا على مكانتها في تجارة العبور بين الشرق والغرب[3].

---

(١) ابن الوزان الزياتي، وصف أفريقيا، ترجمة عبدالرحمن حميده، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٥م، ص٥٨٥.

Pierre Belon du Mans, Voyage en Egypt (1547), Le Caire 1970, Ch. 103., André Thevet, Voyage en Egypt, Presentation et Notes de Frant Lestringant, Le Caire, 1984, p. 24.

(٢) ابن الوزان الزياتي، وصف أفريقيا، ص٥٨٥.

(٣) Nelly Hanna, An Urban History of Būlāq, p. 29.

الفصل الثاني

المنشآت العمرانية في بولاق

- المنشآت الدينية والتعليمية (الجوامع ـ المدارس ـ الزوايا)
- المنشآت الاجتماعية: (القصور والمناظر والدور ـ الحمامات ـ الأسبلة ـ مغسل بولاق وجبانتها).
- المنشآت الاقتصادية: (الأسواق ـ الرباع ـ الوكالات ـ الفنادق والقياسر).

الفصل الثاني
المنشآت العمرانية في بولاق

حفلت بولاق في عصر سلاطين المماليك بالعديد من المنشآت العمرانية، وقد تنوعت هذه المنشآت ما بين منشآت دينية تعليمية، واجتماعية، واقتصادية. ويأتي على رأس المنشآت الدينية التعليمية الجوامع والمساجد والزوايا والمدارس. ولما كانت البداية الحقيقية لتعمير بولاق قد تمت في عصر الناصر محمد بن قلاوون وتحديداً في عام ٧١٣هـ/١٣١٣م، فقد تم تشييد كل من جامع الفخر وجامع الخطيرى في عصر الناصر محمد بجهود اثنين من أهم أمراء عصره.

أما عن **جامع الفخر** ناظر الجيوش(١)، فقد شرع القاضى فخر الدين(٢) في بناء هذا الجامع في حوالى سنة ٧٣٠هـ/١٣٣٠م في مكان يعرف بخط (خص الكيالة)(٣) بناحية بولاق(٤). وظل هذا الجامع يؤدى دوره الدينى حتى عصر

---

(١) ناظر الجيوش وظيفة ديوانية موضوعها التحدث في أمر الإقطاعات والكتابة بالكشف عنها، ومشاورة السلطان عليها، وأخذ خطه، ويتحدث صاحبها أيضاً في أحوال الجيش. انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٠-٣١.

(٢) هو محمد بن فضل الله القاضى فخر الدين القبطى، كان نصرانيا من القبط، فأسلم وحسن إسلامه، شغل في بداية حياته وظيفة كاتب المماليك السلطانية، ثم انتقل منها إلى وظيفة ناظر الجيش، في عصر الناصر محمد بن قلاوون، وعلت مكانته عنده. اهتم الفخر ببناء العديد من المنشآت فأنشأ ثلاثة جوامع من بينها جامعه في بولاق وآخر بالروضة وثالث بجزيرة الفيل، فضلاً عما أنشأه من أحواض سبيل في الطرقات ومارستان ومدرسة بنابلس وقنطرة على فم الخليج الناصرى؛ وتوفى في رجب سنة ٨٣٢هـ/١٣٣١م؛ عن عمر ينيف عن سبعين سنة. لمزيد من التفاصيل انظر: المقريزى، المواعظ، ج٢، ص٣١١؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج٨، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ٢٠٠٣، ص٢٦٣-٢٦٥، النجوم، ج٩، ص٢٩٥-٢٩٦؛ ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، ص٣٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٢٥٥-٢٥٦.

(٣) هو مكان كان يؤخذ فيه مكس الغلال المبتاعة وعنه انظر ما يلي: ص .

(٤) ابن أيبك الدوادار، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص٣٨٨.

المقريزى، فقد ذكر في المواعظ "أنه موجود تقام فيه الجمعة إلى اليوم"، وذكر في السلوك في شعبان سنة ٨٤٤هـ/١٤٤٠م" جددت عمارة جامع الفخر[١] وجدد الخواجا نور الدين على أحد أثرياء البرلس وتجارها جامع الفخر أيضاً حوالى سنة ٨٩٠هـ/١٤٨٥م في أيام السلطان الأشرف قايتباى للشيخ الصالح حسين أبى على المكنى بأبى العلاء، وكان هذا الشيخ قد سكن في خلوة بزاوية كانت بالقرب من النيل، وكان للناس فيه اعتقاد كبير، فكثر مريدوه ومعتقدوه، وكان من بينهم التاجر الكبير الخواجا نور الدين على البرلسى، فطلب منه الشيخ أن يجدد زاويته وخلوته التي كان يتعبد فيها، فصدع للأمر، وجدد جامع الفخر في عام ٨٩٠هـ/١٤٨٥م، والحق به قبة دفن فيها الشيخ أبو العلاء عندما توفى في عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م، وعرف جامع الفخر منذ ذلك الحين بجامع أبى العلاء، ويسميه العامة (جامع السلطان أبو العلاء)[٢] لأنه كان سلطان زمانه في الشفاعات، وقضاء حاجات الناس بالسعى لدى الحكام والسلاطين في زمانه[٣]. وقد أنفق الخواجا نور الدين على هذا الجامع بسخاء، وأوقف عليه الأوقاف العديدة للصرف على مصالحه وإقامة شعائره[٤].

أما عن جامع الخطيرى فيعد أهم منشأة دينية تعليمية عرفتها بولاق شيده الأمير

(١) المواعظ، ج٢، ص٣١١؛ السلوك، ج٤، ق٣، ص١٢٢٩؛ وانظر أيضاً الصيرفى، نزهة النفوس، ج٤، ص٢١٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٥، ص٣٤٨.

(٢) لا يزال موجوداً حتى اليوم بشارع ٢٦ يوليو ببولاق.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص٢٠٢، حاشية ٤؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، القاهرة ١٩٤٦م، ص ٢٨٦-٢٩٠؛ عباس الطرابيلى، أحياء القاهرة المحروسة، القاهرة ٢٠٠٣م، ص١٧٥-١٧٦؛ شاهندة فهمى كريم، "جوامع ومساجد أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون" رسالة دكتوراة غير منشورة، آثار القاهرة ١٩٨٧م، ص ٢٨٢-٢٨٤.

(٤) عادل شحاته، حى بولاق، ص ١٠٧.

عز الدين أيدمر الخطيرى[١]. في بولاق على شاطئ النيل، وكان مكانه دار على النيل عمَّرها رجل يعرف بالحاج محمد بن عز الفراش وكثيراً ما كان يتردد إليها، ولما مات أخذها شخص يقال له تاج الدين بن الأزرق ناظر الجهات، وسكنها فعرفت باسم دار الفاسقين لكثرة ما كان يجرى فيها من أنواع المحرمات، ولما تم القبض على ابن الأزرق، وصودرت أمواله وأملاكه، بيعت هذا الدار في جملة ما بيع من أملاكه، فاشتراها الأمير عز الدين أيدمر الخطيرى بثمانية آلاف درهم، وهدمها، وبنى مكانها الجامع المنسوب إليه، وسماه جامع التوبة، وقد شجعه السلطان الناصر محمد على بناء هذا الجامع بأن أمده بما يحتاج إليه من أخشاب وغير ذلك من مستلزمات البناء، وذلك حرصاً من السلطان على تحويل دار الفاسقين إلى دار عبادة يصلى فيها الناس، ويتعلمون ويتفقهون في أمور دينهم[٢].

بالغ الأمير عز الدين أيدمر في عمارة جامعه، وتأنق في رخامه، فجاء من أجل جوامع مصر وأحسنها، كما يذكر المقريزى[٣] وقد عمل له منبراً من الرخام في غاية الحسن، وركب فيه عدة شبابيك من حديد، تشرف على النيل العظيم، وجعل فيه خزانة كتب جليلة نفيسة، ورتب فيه درساً للفقهاء الشافعية. مما يوضح

---

(١) كان أصله مملوكاً لشرف الدين أوحد بن الخطيرى، وتنقل في خدمة كل من المنصور قلاوون والناصر محمد بن قلاوون حتى صار أحد أمراء الألوف ومن أكابر الأمراء، ولى في عهد الناصر محمد الاستادراية، وندب لعمارة جسور الشرقية، ثم جلس رأس ميسرة السلطان الناصر محمد، وعمل أميراً لركب الحاج في سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م، وكان جواداً، حشماً، كبير الهمة، فيه خير كثير، وتوفى في عام ٧٣٧هـ/١٣٣٦م؛ لمزيد من التفاصيل انظر: المقريزى، المواعظ، ج٢، ص٣١٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص٣١٢؛ اليوسفى، نزهة، ص٣٨٤-٣٨٥؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج٣، ص١٨٠-١٨٢؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٤٥٨؛ الصفدى، الوافى بالوفيات، ج١٠، فيسبادن ١٩٨٢م، ص١٧-١٨.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر: المقريزى، المواعظ، ج٢، ص٣١٢؛ السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٢٣؛ اليوسفى، نزهة الناظر، ص٣٧٩-٣٨٠؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص١١٨؛ الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص١٢. وانظر أيضاً البيومى اسماعيل، "الأمن البيئى في عصور السيادة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك)". بحث منشور في مجلة الدراسات الشرقية، العدد ٣٣ يوليو ٢٠٠٤م، ص٩٢.

(٣) المواعظ، ج٢، ص٣١٢.

أن دور هذا الجامع لم يكن قاصراً على أداء الشعائر الإسلامية فيه من آذان وصلاة وإقامة فحسب، بل كان دار علم كذلك، فقد حرص الأمير عز الدين أيـدمر علـى ترتيب دروس فيه للفقه، مع تزويده بمكتبة جليلة لتكون عوناً للدارسين بـه، فقـد احتوت هذه المكتبة العديد من الكتب ومنها ثمانية عشر جزءاً مجلداً من كتاب "غاية الطلب، ونسخة من كتاب البخارى عدد أجزائها ثمانية وأربعون جزءاً، وجزء واحد كامل من كتاب (الوجيز) وثلاثة أجزاء أخرى منه وغيرها[1].

وأوقف الأمير عز الدين على جامعه هذا عدة أوقاف للنفقة عليه وعلى مـن يعملون به، ومن أهمها داره العظيمة التي تقع في الدرب الأصفر[2] تجـاه خانقـاه بيبرس. كما اشتملت هذه الأوقاف على عدة حوانيت بخط الخطيـرى، ومخـزنين مجاورين لفرن الخطيرى، وعدة شون، وهذه جميعها بسوق الخطيرى، إلى جانـب خمسة حوانيت بسويقة أبو الوفا بخط الخطيرى كذلك، وثلاثة حواصل (مخـازن) بحارة برجوان كما جاء في سجلات محكمة بولاق[3]. وقد تزايدت هـذه الأوقـاف يوماً بعد يوم وربت، حتى عمر بها ولده من بعده حوض سبيل ومكتب سبيل كذلك كما يذكر اليوسفى[4].

اكتملت عمارة جامع الخطيرى في سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م، وأقيمـت فيـه الجمعة في يوم ١٠ جمادى الأخرة من ذات السنة، وكان الشيخ الإمام العالم كمـال الدين بن عمر بن أحمد النشائى[5] الشافعى أول من ولى الخطابة والإمامة به[6].

---

(١) عادل شحاته طايل، حى بولاق، م١، ص ٨٠-٨١، هامش ٦.
(٢) عن الدرب الأصفر انظر المقريزى، المواعظ، ج٢، ص ٤٤. وانظر أيضاً، ص ٣١٢.
(٣) نقلاً عن عادل شحاته طايع، حى بولاق، ص ٨١، هامش ٢.
(٤) نزهة الناظر، ص ٣٨٥.
(٥) نسبة إلى بلدة نشا إحدى القرى المصرية القديمة، وهى اليوم إحدى قـرى مركـز طلخـا بمديرية الغربية وهى عمل من أعمالها. أما الشيخ كمال الدين النشائى فقـد كـان خطيبـاً فصيحاً، ومصنفاً. ومن مصنفاته كتاب جامع المختصرات وكتاب المنتقى وغيرها. انظر ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٠، ص ٣٢٣، ٣٢٤.
(٦) المقريزى، المواعظ، ج٢، ص ٣١٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٠، ص٣٢٣، ٣٢٤.

ورغم ما أنفقه الأمير عز الدين الخطيري من أموال جزيلة، بلغت أربعمائة ألف درهم نقرة في أساسات جامعه، مخافة زيادة النيل وتأثيره عليه، إلا أنه ما إن تم البناء، وأفتتح الجامع حتى قوى عليه ماء النيل في نفس عام افتتاحه (٧٣٧هـ/١٣٣٧م) وهدم جانباً منه، فأعاد الأمير عز الدين الخطيري بنائه من جديد، وأنشأ أمامه زربية لتحميه من تأثير ماء النيل، وزيادة في الاحتياط رمى أمامها ألف مركب مملوءة بالحجارة[1].

ساهم بناء جامع الخطيري ببولاق بدور فاعل في عمران بولاق وإعمارها لوقوعه على النيل وموقعه المتميز، فقد فضل كثير من الناس اتخاذه متنزهاً، ورغب الكثيرون في السكنى بجواره فيذكر اليوسفي[2] " وفضلته سائر الناس على جامع طيبرس[3] الذي عمره بجوار ربع السعدى على النيل ". أما المقريزى فيذكر "ولم يزل هذا الجامع مجمعاً يقصده سائر الناس للتنزه على النيل، ويرغب كل واحد في السكنى بجواره، وبلغت الأماكن التي بجواره من الأسواق والدور الغاية في العمارة، حتى صار ذلك الخط أعمر أخطاط مصر وأحسنها"[4]. مما يوضح أنه تم عمارة العديد من الدور والأسواق بجوار هذا الجامع، ونشطت حركة البيع والشراء في تلك الأسواق، فمن المعروف أن هذه الأسواق هي أسواق دينية، يتبرك الكثيرون بالشراء منها لمجاورتها لتلك المنشأة الدينية التي عُمرت على أرض بولاق في

---

(١) ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص ١١٨؛ المواعظ، ج٢، ص ٣١٢؛ السلوك، ج٢، ق٢، ص ٤٢٣؛ اليوسفى، نزهة الناظر، ص ٣٨٠؛ الشجاعى، تاريخ الناصر، ص ١٢؛ الصفدى، الوافى بالوفيات، ج١٠، ص١٨.

(٢) نزهة الناظر، ص ٣٨٥.

(٣) عمر هذا الجامع الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار نقيب الجيوش بشاطئ النيل في أرض بستان الخشاب سنة ٧٠٧هـ، وكان من أحسن المتنزهات في مصر وأعمرها، وكثيراً ما كان الناس يجتمعون به للنزهة. لمزيد من التفاصيل انظر المقريزى، المواعظ، ج٢، ص٣٠٤.

(٤) المواعظ، ج٢، ص ٣١٢.

القرن الرابع عشر الميلادى.

لعب جامع الخطيرى أيضاً دور المدرسة، ومن أشهر من تولوا التدريس به كمال الدين أبو العباس أحمد، وقد ولد في عام ٦٩١هـ/١٢٩١م، وأخذ عن والده، وكان إماماً حافظاً للمذهب للشافعي، متصوفاً، وإلى جانب تدريسه بجامع الخطيرى، فقد كان خطيبه وإمامه - كما سبق أن ذكرنا - وله مصنفات منها جامع المختصرات وشرحه، وكتاب المنتقى، ونكت التنبيه، ومات في صفر من عام ٧٥٧هـ/١٣٥٦م ودفن بالقرافة[١]. وأفتى ودرس بجامع الخطيرى أيضاً الشيخ علاء الدين على بن محمد الأقفهسى، الفقيه الشافعي وقد برع في الفقه وناب في الحكم بالقاهرة وتوفى في ٢٢ شوال سنة ١٣٩٢/٧٩٥م[٢].

وتولى التدريس والخطابة أيضاً بجامع الخطيرى (أحمد بن محمد بن عبد الرحمن التاج أبو العباس) البلبيسى ثم القاهرى الشافعى المولود في عام ٧١٨هـ/١٣١٨م وقد ولى مهام أخرى إلى جانب تدريسه بجامع الخطيرى منها أنه ولى أمانة الحكم بالقاهرة للبرهان بن جماعة، وكذلك ناب في الحكم ببولاق، وكان سكنه بجامع الخطيرى، وتوفى في ١٢ ربيع الأول سنة إحدى وثمانمائة[٣].

ظلت الحركة العلمية والاقتصادية نشطة في بولاق حول جامع الخطيرى حتى عام ٨٠٦هـ/١٤٠٣م حينما انحسر ماء النيل عما تجاهه، وصار رملة لا يعلوها الماء إلا في أيام الزيادة، وتكاثر الرمل تحت شبابيك الجامع، وقربت من الأرض بعد ما كان الماء تحته لا يكاد يدرك قراره كما يذكر المقريزى[٤] ونتج عن

---

(١) السيوطى، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج١، تحقيق محمد أبو الفضل، القاهرة ١٩٦٧م، ص ٤٢٢-٤٢٣؛ ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج١، ص ٢٢٤.

(٢) المقريزى، السلوك، ج٣، ق٢، ص ٧٩٣.

(٣) السخاوى، الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، ج٢، ص ١٢٣؛ ابن حجر، أبناء الغمر، ج٤، ص٤٤-٤٥.

(٤) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ٣١٢.

ذلك أن قلت الاجتماعات، التي كانت تعقد بهذا الجامع عما كانت عليه قبل انحسار النيل، كذلك اتضع حال ما يجاوره من الأسواق والدور، ولكن ما لبث هذا الجامع أن عاد يؤدي دوره الديني والعلمي، واستمر الفقه يدرس فيه إذ يذكر السخاوي بعض أسماء من تصدوا لتدريس الفقه بجامع الخطيري ومنهم: زين العابدين محمد بن الشرف يحيى بن محمد المناوي الأصل القاهري الشافعي، فقد ولي نصف تدريس الفقه – كما يذكر السخاوي – بجامع الخطيري عقب البدر النسابة، وشريكا لفتح الدين بن البلقيني، وتوفى سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م[1]. وقد استناب زين العابدين بن المناوي عنه في تدريس الفقه بجامع الخطيري عثمان بن عبد الله بن موسى بن عمران الفخر الجمالي الحسيني ويعرف بالمقسي[2]. كذلك ظل جامع الخطيري يؤدي دوره الديني عامراً بذكر الله تعالى حتى أواخر عصر سلاطين المماليك الجراكسة كما أشارت إلى ذلك بعض الوثائق ومنها وثيقة شراء مؤرخة في عام ٨٧٤هـ/١٤٦٩م، ووثيقة أخرى مؤرخة بعام ٨٩٣هـ/١٤٨٧م، فقد جاء فيهما عبارة "جامع الخطيري المعمور بذكر الله تعالى..."[3].

عمرت عدة جوامع أخرى في بولاق بعد عصر الناصر محمد بن قلاوون منها **(جامع الأسيوطي)** أنشأه القاضي شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عمر الأسيوطي ناظر بيت المال في عام ٧٤٥هـ/١٣٤٤م ثم توفي في عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م[4]. وجدده ناصر الدين محمد بن عثمان بن محمد المعروف بابن

(١) الضوء اللامع، م٦، ج١١، ص ١٧٣-١٧٤، ترجمة رقم ٥٤٧.

(٢) السخاوي، الضوء اللامع، م٣، ج٥، ص ١٣٢، ترجمة رقم ٤٦٤.

(٣) وثيقة وقف رقم ٦٦٦ ج وزارة الأوقاف، وثيقة شراء رقم ٢١٧ أوقاف جديدة وزارة الأوقاف. ولازال جامع الخطيري موجوداً حتى اليوم بناحية بولاق بشارع ٢٦ يوليو (بولاق سابقاً) بالقرب من النيل، وأصبح اليوم تحت منسوب الشارع بنحو ثلاثة أمتار. لمزيد من التفاصيل انظر ابن تغري بردي، النجوم، ج٨، ص ٢٢٣، حاشية ٢، ج٩، ص ١١٨، حاشية ٣.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص ٢٤٢.

البارزى الحموى كاتب السر، فجاء في أحسن هندام وأبدع زى، وأقام فيه الخطبة في يوم الجمعة ١٦ جمادى الأولى سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م[١]. وكان هذا الجامع يقع بجوار بيت أو قصر ابن البارزى الذي في بولاق[٢]. وصلى السلطان المؤيد شيخ المحمودى بهذا الجامع بعد تجديده صلاة الجمعة أول جمادى الآخرة سنة ٨٢٣هـ/١٤٢٠م، وخطب به وصلى شيخ الإسلام قاضى القضاة جلال الدين البلقينى. وظل هذا الجامع يعرف بـ "جامع الأسيوطى" حتى جدده ابن البارزى، فصار يعرف به[٣].

أوقف ابن البارزى العديد من الأوقاف على هذا الجامع منها الجنينة المعروفة بـ (البارزية) التي غرس فيها أشجار النخيل، نخيل البلح، وأشجار الليمون واللارنج وغير ذلك، أوقف عليها بئر ماء معين وساقية خشب على فوهتها، كاملة العدة والآلة[٤]. وقد اعتاد السلطان المؤيد شيخ الصلاة بجامع ابن البارزى هذا مدة إقامته بدار ابن البارزى، وطالما أقام فيها[٥]. وممن تولوا وظائف هذا الجامع ولد النجم عمر بن حجى ثم من بعده عبد اللطيف بن عثمان البولاقى[٦].

تصدى للتدريس في جامع ابن البارزى العديد من الفقهاء والعلماء منهم محمد

---

(١) المقريزى، المواعظ، ج٢، ص ٣١٥-٣١٦؛ السلوك، ج٤، ق١، ص ٥٢٩؛ عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، ج٤، ص ٦١؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ١٤، ص ٩٥-٩٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٥٢.

(٢) من هذا القصر انظر ما يلي: ص٥٣-٥٥.

(٣) توفى ابن البارزى في عام ٨٢٣هـ، انظر ترجمته عند السخاوى، الضوء اللامع، م٥، ج٩، ص ١٣٧-١٣٩. أما عن قاضي القضاة جلال الدين البلقيني (٧٦٢-٨٢٤هـ/١٣٦٠-١٤٢١م) فانظر ترجمته في المنهل الصافي، ج٧، تحقيق محمد محمد أمين، ص١٩٧-٢٠٣.

(٤) انظر: عادل شحاته طايع، حى بولاق، ج١، ص ٨٤.

(٥) المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٥٢٩، ٥٣٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ١٠١، ١٠٢ وانظر ما يلي: ص٩٩ وما يليها.

(٦) السخاوى، الضوء اللامع، م٢، ج٤، ص ٣٣١، ترجمة ٩١٤.

بن يحيى بن عمر البهاء بن النجم[1]. الذي تولى تدريس الفقه بهذا الجامع مدة، كذلك قام بالتدريس في هذا الجامع على بن أحمد بن عثمان بن محمد النور بن البهاء المناوى الأصل القاهرى الشافعي، كذلك ربما أفتى، وتوفى في ٨٧٧هـ/١٤٧٢م[2]. ودرس في جامع ابن البارزى بالنيابة موسى بن أحمد بن عمر بن غنام الشرف الأنصارى ويعرف بالبرنكيمى[3]، وصار مقصوداً في هذا الجامع بالاستفتاء، ومات سنة ٨٨٤هـ/١٤٧٩م[4]. ومن العلماء الذين سكنوا بجامع ابن البارزى لسد مباشرته أحمد بن على بن عبد القادر الشهابى ابن الشيخ نور الدين الميقاتى، كان فاضلاً متميزاً في الميقات، متقن للحسابيات الوضعيات، خبير بالمباشرة في الرياسة وتوفى ٨٩٧هـ كما يذكر السخاوى[5].

(جامع الباسطى) أنشأه أحد الفقهاء لا يُعرف اسمه في سنة سبع عشر وثمانمائة، وذكر المقريزى[6] أنه أدرك موقعه وإنه يقع في بولاق خارج القاهرة، وهو مطل على النيل. وتجدر الإشارة إلى أن ابن الفنرى قاضى الروم قد ألقى به عدة دروس في الفقه والأصول أثناء زيارته لمصر عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م. وممن سكنوا الجامع الباسطى ودرسوا به الشيخ الفاضل شهاب الدين أحمد الأندى المالكى، ويذكر البقاعى أنه توفى في ١٢ شهر رمضان سنة ٨٦٠هـ بسكنه من المدرسة الباسطية من القاهرة[7].

(جامع تغرى برمش) بناه الأمير تغرى برمش بن عبد الله الزردكاش[8] – أحد

---

(١) توفى في ٨٩٧هـ؛ السخاوى، الضوء اللامع، م٥، ج١٠، ص ٧٥.

(٢) السخاوى، الضوء، م٣، ج٥، ص ١٦٩-١٧١، ترجمة رقم ٥٨٩.

(٣) نسبة إلى برنكيم من أعمال الشرقية.

(٤) السخاوى، الضوء، م٥، ج١٠، ص ١٧٥-١٧٦، ترجمة رقم ٧٤٩.

(٥) الضوء اللامع، م١، ج٢، ص ٢٥، ترجمة ٦٧.

(٦) المواعظ، ج٢، ص٣٢٧؛ السلوك، ج٤، ق١، ص٥٢٥.

(٧) البقاعى، تاريخه المعروف بإظهار العصر لأسرار أهل العصر، ق٢، ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٨) أصله من مماليك الأمير يشبك، تولى الزردكاشية الصغرى أولاً ثم الكبرى، ثم جعله جقمق من جملة أمراء الطبلخانات، وكان مغرماً بجمع الأموال، وعمر عدة أملاك بالقاهرة وبولاق، =

أمراء الطبلخانات[1]، وزردكاش السلطان جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م) – ببولاق على ساحل النيل، وأوقف عليه أوقافاً هائلة، وأقيمت فيه الخطبة في شهر رمضان سنة ٨٥١هـ/١٤٤٧م بإذن من السلطان جقمق[2]. وقد وصفه ابن تغرى بردى "بأنه جامع حسن"[3].

ويعد (**جامع زين الدين**[4] **الأستادار**[5]) هو ثاني أكبر وأضخم منشأة دينية

= وتوفى في سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م. انظر ترجمته في ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج٤، ص ٦٦؛ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ج١، ص٢٥٧؛ السخاوى، الضوء، م٢، ج٣، ص٣٤-٣٥؛ والزردكاش لفظ فارسى معناه صانع الزرد، ومن ثم يطلق على صناع الأسلحة والذخائر والقائمين على حفظها وإصلاحها وتنظيفها وإعدادها.

– انظر القلقشندى، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٤، ص١٢؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص ٤٤٥.

(١) مفردها أمير طبلخاناه وهى مرتبة حربية من مراتب أرباب السيوف في عصر سلاطين المماليك، ويطلق على صاحبها أيضاً أمير أربعين، بمعنى أن يكون في خدمته أربعين مملوك، وسمى أمير طبلخاناه لأحقيته في دق الطبول على أبوابه كما يفعل السلاطين وأمراء المئين. انظر سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص ٤١٤؛ وانظر أيضاً محمد قنديل البقلى، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٤٣.

(٢) انظر ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج٤، ص٦٦؛ عبد الباسط، نيل الأمل، ج٥، ص ٢٣٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٢٦٠.

(٣) حوادث الدهور، ج١، ص٢٥٧.

(٤) هو يحيى بن عبد الرازق الزين القبطى القاهري، تولى العديد من الوظائف الديوانية ومنها نظر ديوان المفرد غير مرة، كما تولى نظر الأسطبل السلطانى في عام ٨٤٢هـ، واستقر في الاستادارية في عام ٨٤٤هـ، وأضيفت إليه الحسبة بعد ذلك. شيد مدارس ومساجد من أهمها مسجده في بولاق، ومغاسل للموتى وربعاً وغيرها، وأطلق له السلطان جقمق العنان، وبعد وفاته نكب وصودر وعصر وضرب وقاس أهوالاً، وتوفى في ٨٧٤هـ/١٤٦٩م عن ثمانين عاماً ويزيد.

– لمزيد من التفاصيل انظر السخاوى، الضوء اللامع، ج١٠، ص ٢٣٣-٢٣٤؛ الصيرفى، أنباء الهصر بأبناء العصر، ص١٧٢-١٧٥؛ ابن إياس، بدائع، ج٣، ص ٣٩-٤٠.

(٥) الاستادار من وظائف أرباب السيوف، يتولى صاحبها شئون بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان، الفراش خاناه والطشت خاناة وغيرها، وعنه انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٠، ج٥، ص٤٥٧؛ محمد قنديل البقلى، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة ١٩٨٤م، ص ٢٨-٢٩؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص ٤١١.

تعليمية عرفتها بولاق بعد (جامع الخطيرى) أنشأه يحيى بن عبد الرازق الزين الأستادار فيما بين سنتى (٨٥٢-٨٥٣هـ/١٤٤٨-١٤٤٩م) بشاطئ النيل ببولاق، وذكر البقاعى إنه كان يقع بالقرب من ربع الصاجاتى[١] وقد باشر عمارة هذا الجامع عبد اللطيف بن محمد بن عبد الله الزفتاوى القاهرى الشافعى فيذكر السخاوى في ترجمته "وباشر بأجرة عمارة الجامع الزينى ببولاق" وتولى رئاسة هذا الجامع حتى توفى في ٨٧٧هـ/١٤٧٢م[٢].

وخطبت فيه الجمعة في الثالث من رمضان سنة ٨٥٢هـ/ ٣١ أكتوبر ١٤٤٨م بإذن من السلطان جقمق، قبل أن تتم عمارته، وكان الخطيب – كما يذكر السخاوى[٣] – هو صاحبنا الشيخ المقرى تاج الدين عبد الوهاب السكندرى المالكى. وانتهت عمارة جامع الأستادار في ذى الحجة ٨٥٣هـ/ يناير ١٤٥٠م، في حين يجعل ابن تغرى بردى[٤] الفراغ من بنائه في عام ٨٥٤هـ فيذكر "وفيها كان الفراغ من مدرسة زين الدين الاستادار بخط بولاق على النيل ولم أدر المصروف على بنائه من أي وجه".

عين زين الدين الاستادار بجامعه بعد الانتهاء من عمارته رجلاً يقوم بمصالحه من إمامة وآذان وتنظيف مقابل ستة دراهم وربع شهريا[٥]. وقرر في مشيخته على بن محمد النور بن البهاء المناوى، لذلك قطن في هذا الجامع[٦].

أوقف الزين الاستادار على جامعه أوقافًا عديدة منها الحوانيت والمقاعد

---

(١) تاريخه، ج٢، ص٢٥٨، وعن ربع الصاجاتى، انظر ما يلي في الرباع.

(٢) الضوء، م٢، ج٤، ص٢٣٦، ترجمة ٩٢٣. وعن الوصف المعمارى لهذا الجامع انظر ليلى كامل محمد على الشافعى، "منشآت القاضى زين الدين الاستادار، دراسة أثرية معمارية"، رسالة دكتوراه غير منشورة، آثار القاهرة ١٩٨٢م، ص ١٥٤، ١٦١-١٧٩.

(٣) التبر المسبوك في ذيل السلوك، ج٢، ص ٩٤، ١٨٤.

(٤) النجوم، ج١٥، ص ٤٠٥.

(٥) ليلى كامل، منشآت القاضى زين الدين الاستادار، ص ١٥٢.

(٦) السخاوى، الضوء اللامع، ج٥، ص ١٦٩-١٧١، ترجمة رقم ٥٨٩.

الكائنة سفل الجامع، وثلاثة بيوت كائنة بخط الاستادارية، وفرن وعصارة، إلى جانب الحوانيت المجاورة للفرن والشونة المعروفة بسكن قاسم، والشونة المعروفة بسكن المغسل، وقاعة السيرج والخربة المجاورة للجامع ببولاق[1].

امتدح ابن سوودن البشبغاوى (ت ٨٦٨هـ/١٤٦٣م) في معرض قصيدته عن بولاق[2] جامع زين الدين الاستادار فقال فيه عدة أبيات وصف فيها الجامع ومنارته وأثره على بولاق ودعا فيها لمنشئ هذا الجامع وهذه الأبيات يقول فيها:

حظيت بجامع يسبى البرايا ... سبى بالظرف والحسن المتين
(شمائله حماه الله أضحت ... تفرح ياهنا القلب الحزين)
منارته إذا اتقدت صباحا ... تباشرنا بيوم العيد نى نى
(تفوق عروسة في الحسن تجلى ... بها ياليت أهلى زوجونى
(محاسنه – حماه الله – أضحت ... تُفرج بالمنى هَمَّ الحزين)
شمايله لجمع الشمل دامت ... تبشر بالمنى عقلى الرصين
لقد أحياك مذ حياك حقاً ... ليحيى الذكر فيك بكل حين
أدام الله أيام التهانى ... لمنشئه على طول السنين
(فكم أنشأ لذكر الله بيتاً ... حماه الله من ريب المنون)
(ألا يا زين أرباب المعالى ... ومِن قد فاق بالجود المتين
مقامك لابن سودون مديح ... يقصر عنه مع طول السنين)

ويلاحظ أن البعض ذكر مؤسسة زين الدين الاستادار على أنها جامع في حين ذكرها البعض الآخر على أنها مدرسة، ولا عجب في ذلك فهناك ترابط وثيق بين الجامع والمدرسة في عصر سلاطين المماليك، فالجامع إلى جانب دوره في تأدية

---

(١) انظر عادل شحاته طايع، حى بولاق، ص ٩٦، هامش ١.

(٢) ابن سودون البشبغاوى، ديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس، تحقيق منال محرم عبد المجيد، القاهرة ٢٠٠٣، ص ١٨٧.

الشعائر الدينية، كان مقراً لتدريس العلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير، ودار لها يجلس به العلماء والفقهاء ورجال الدين لإلقاء الدروس على طلاب العلم وراغبيه، ومن ثم صار الجامع مكاناً للعبادة والدرس، ولذا يحلو للبعض أن يطلق عليه اسم "جامع مدرسة"[١]. وقد عرفت بولاق هذا الطراز من الجامع المدرسة في جوامعها الكبيرة كجامع الخطيرى السابق الذكر، وجامع الزينى الاستادار.

كان جامع الزينى الاستادار يجمع بين وظائف الجامع والخانقاه والمدرسة فإلى جانب كونه جامعاً هائلاً تؤدى فيه الصلوات، عمل فيه كما يذكر السخاوى[٢] صوفية ودرس وغير ذلك. مما يوضح أن جامع الزينى كان مؤسسة دينية وتعليمية متكاملة، فإلى جانب كونه جامع تؤدى فيه الصلوات، الحق به الزينى خانقاه يمارس فيها الصوفية عبادتهم، وحدد لهم مواعيد فيذكر السخاوى في موضع آخر "وعمل بالجامع تصوفاً وميعاداً، وقرر الزينى في مشيخته الشيخ نور الدين على المناوى سبط ابن الملقن"[٣]. أوردت المصادر بعض أسماء من تولوا مشيخة الصوفية بجامع الزينى الاستادار ومنهم البدر بن الغرس، ثم حل محله عبد اللطيف بن عثمان بن سليمان الزينى البولاقى[٤]. كذلك اهتم الزينى الاستادار بتدريس العلوم الدينية في جامعه، وخاصة الحديث الشريف، وعهد إلى الشيخ أبى حامد القدسى بأن يتولى قراءة الحديث وتدريسه بهذا الجامع[٥].

---

(١) سعيد عاشور "العلم بين المسجد والمدرسة" بحث منشور في مجلة المؤرخ المصري، العدد السابق، يوليو ١٩٩١م، ص ٢٢ وما يليها.

(٢) الضوء اللامع، م٥، ج١٠، ص٢٣٤؛ وعن الوصف المعمارى لهذا الجامع انظر حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، ص ٢٣٨-٢٤٠.

(٣) التبر المسبوك في ذيل السلوك، ج٢، ص ٩٤، ١٨٤.

(٤) السخاوى، الضوء اللامع، م٢، ج٤، ص ٣٣١، ترجمة ٩١٤.

(٥) توفى الشيخ أبو حامد القدسى في عام ٨٨٨هـ/١٤٨٣م؛ عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، ج٥، ص٢٦٤؛ السخاوى، التبر المسبوك، ج٢، ص ٩٤، ١٨٤؛ على مبارك، الخطط التوفيقية، ج٤، ص٢١٧.

أما عن إمامة هذا الجامع فقد عرضت – كما يذكر السخاوى إمامة المدرسة الزينية الاستادارية أول ما فتحت – على القاضى زكريا بن زكريا بن أحمد الزين الأنصارى القاهرى الشافعى، وأن يسكن بها ولكنه توقف أي امتنع، ويذكر السخاوى أيضاً أن الذي استقر فيها بعد ذلك هو الشهاب بن أحمد بن البدر البرماوى[1]. فكان بذلك أول من تولى إمامة جامع زين الدين الاستادار، وظل يشغل هذه الوظيفة حتى مات في عام ٨٧٧هـ/١٤٧٢م. كذلك تولى القاضى تقى الدين البرماوى إمامة الجامع بعد ذلك والخطبة فيه، وذلك في عهد السلطان قايتباى، ففى ذى القعدة عام ٨٧٨هـ/١٤٧٤م ثار المماليك الجلبان[2] وتوجهوا إلى بولاق، فنزل السلطان من القلعة لمطاردتهم، وبات تلك الليلة في جامع زين الدين الأستادار ببولاق، واستضافه هناك بعض قضاة بولاق ضيافة حافلة، وفى مقدمتهم أمام الجامع وخطيبه القاضى تقى الدين البرماوي، فشكر له السلطان ذلك[3]. وتجدر الإشارة إلى أن محمد بن حسن بن على بن الشمس بركات شغل وظيفة المؤقت بهذا الجامع[4].

تكمن أهمية مؤسسة الزينى الاستادار الدينية والتعليمية في إنها صارت

---

(١) الضوء اللامع، م٢، ج٣، ص ٢٣٧، ترجمة رقم ٨٩٢؛ السخاوى، التبر المسبوك، ج٢، ص ٩٤، ١٨٤؛ عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، ج٥، ص ٢٦٤.

(٢) هم المماليك المشتروات أو المشتريات التابعون للسلطان القائم، وكان هؤلاء عند شرائهم إما في سن البلوغ أو بعد بلوغهم سن الرشد، ثم صار اصطلاح المماليك الجلبان يطلق على المماليك المشتروات الذين يجلبهم كل سلطان جديد. لمزيد من التفاصيل انظر: هدية إمام على، "المماليك الجلبان ودورهم في عصر دولة المماليك الجراكسة"، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب القاهرة ٢٠٠٣، ص ١٢ وما يليها؛ لبيبة إبراهيم "الفتن والقلاقل الداخلية في دولة المماليك، "رسالة دكتوراة غير منشورة، آداب القاهرة ٢٠٠٠، ص ١٧٦ وما يليها.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٩٤؛ عبد الرحمن عبد التواب، قايتباى المحمودى، القاهرة ١٩٧٨م، ص ١٠٢-١٠٣، والبرماوى نسبة إلى برما من نواحى الغربية بمصر.

(٤) السخاوى، الضوء اللامع، م٣، ج٥، ص ٢٩٨.

مركزاً هاماً في بولاق في تلك الآونة، ساهم في عمران بولاق، إذ شجع وجودها الكثيرين على البناء والتشييد، فبنيت فيها أسواق وحمامات ووكالات جديدة، محل القصور القديمة ذات الحدائق الفسيحة، لدرجة أصبح من المتعذر معها – بسبب الكثافة السكانية للمنطقة أن تجد أرضاً للبناء عليها، إلى جانب ارتفاع أسعارها، لذلك لجأ البعض إلى وسائل غير مشروعة لوضع أيديهم على الأرض من أجل امتلاكها والبناء عليها[١]، مما دفع السلطان إينال – كما سبق أن ذكرنا – إلى إصدار أوامره بإزالة العشوائيات ببولاق.

عرفت بولاق جوامع أخرى، وإن ضنت المصادر بتفاصيل حول تاريخ إنشائها ومن هذه الجوامع (جامع ابن الجابى) و (جامع ابن السينتى) فقد ذكر المقريزى في ختام حديثه عن الجوامع "وتجدد في بولاق جامع ابن الجابى وجامع ابن السينتى"[٢]. وقد جاء ذكر اسم الجامع الأخير في قائمة الأبنية التي تلفت في حريق بولاق عام ٨٦٢هـ/١٤٥٨م فيذكر ابن تغرى بردى "أنه تلف في هذا الحريق" ربع ابن السنيتى داخل بولاق بل وسكنه وجامعه الذي بناه"[٣]. كذلك ذكر ابن تغرى بردى جامعاً آخر ببولاق يعرف (بجامع الواسطى) ولكنه سلم من الحريق بعد أن أحاطت به النار[٤].

أما عن **جامع الواسطى** فقد بناه شمس الدين محمد الواسطى بالقرب من سوق أو وكالة نور الدين على الطنبدى التاجر الشهير[٥]، وقد اتضح ذلك من خلال وثائق الوقف، واتضح من خلالها أيضاً أن هذا الجامع كان قريباً من موردة البورى، وأن

(١) Nelly Hanna, An Urban, pp. 43, 45, 46.

(٢) المواعظ، ج٢، ص ٣٣١.

(٣) منتخبات من حوادث الدهور، ج٢، ص ٣١٤.

(٤) ابن تغرى بردى، منتخبات من حوادث الدهور، ج٢، ص٣١٤.

(٥) عنه انظر ما يلي ص٦٦-٦٧.

دخلها كان وقفاً على هذا الجامع[1]. هذا وقد أوقف شمس الدين الواسطى على جامعه هذا عدة أوقاف منها : الحوش الصغير الخرب بخط سويقة عليو الدار ورميلة بولاق، المشتمل على فسحة كشف سماوى، بها معالم قاعتين أرضـيتين مبنيتـين بـالطوب والطين الحلو وحفرة ومرحاض ومنافع، جارى في وقفه على جامعه هذا[2]. وأقـام بجامع الواسطى أحد المعتقدين وهو أحمد الوراق، وقد قام السخاوى بزيارته[3].

(جامع التاج موسى) يقع بساحل بولاق بالمنطقة المعروفة بالقرابيص، ويعتقد أن مؤسسه هو الخواجا شمس الدين موسى بن على سليمان الشرف التتائى المتوفى في ٨٨١هـ/١٤٧٦م، وهو من مشاهير تجار الكارم[4]. وممن تولوا الخطابة بهذا الجامع محمد بن محمد بن إبراهيم الشمس أبو عبد الله القاهرى الشافعى، ويعـرف بابن البهلوان[5].

شهدت بولاق في النصف الثاني من القرن التاسع الهجرى / الخامس عـشر الميلادى بناء **(المدرسة الجامع المعروفة بابن الجيعان)**. وقد شرع إبـراهيم بـن الجيعان[6] في عمارتها في سنة ٨٥٦هـ/١٤٥٢م، على النيل بساحل بولاق بـين

---

(١) انظر وثيقة رقم ٤٣١، ج أوقاف مؤرخة بـ ٢٣ جمادى الآخرة سنة ٩١٠هـ (مبايعة) نشر جزء منها أحمد محمد أحمد، "المنشآت الصناعية في العصر المملوكى من خلال الوثـائق"، رسالة ماجستير غير منشورة، سوهاج ١٩٨٥م، ص٣٢؛ وثيقة وقف الغـورى رقـم ٨٨٣ نشرها عبد اللطيف إبراهيم، دراسات تاريخية وأثرية في وثائق عصر الغـوري " رسـالة دكتوراة غير منشورة، آداب القاهرة، ١٩٥٦م، ج٢، الملحق، ص٣٠.

(٢) عادل شحاته طايل، حى بولاق، م٢، ص ٦٥٠.

(٣) الضوء اللامع، م٦، ج ١١، ص ١٨١.

(٤) السخاوى، الضوء اللامع، م٥، ج١٠، ص ١٨٥.

(٥) السخاوى، الضوء، م٤، ج٨، ص ٣٠١.

(٦) هو إبراهيم بن عبد الغنى بن شاكر بن ماجد بن عبد الوهاب، سعد الدين بن فخر الدين ناظر الخزانة الشريفة في عهد الظاهر جقمق، كان رئيساً عاقلاً محتشماً وقوراً محباً في العلمـاء مكرماً لهم، مات في ١٣ ربيع الأول سنة ٨٦٤هـ/١٤٥٩م. انظر ترجمته في الـسخاوى، الضوء اللامع، ج١، ص ٦٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٥٧.

قصرى الحجازية والبرابخية[1]، أو بالقرب مـن منظـرة الحجازيـة كمـا ذكـر السخاوى[2]، هذا ويذكر البقاعى[3] أنها بحذاء القاعة المعروفة بالبرابخية.

اكتملت عمارة جامع ومدرسة ابن الجيعان في يوم الجمعة ٢٩ جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م، كما يذكر ابن تغرى بردى. أما البقاعى فيذكر أن عمارتها اكتملت في شهر جمادى الآخرة من نفس السنة[4]، وأقيمت بها الخطبة، وصلى فيها إبراهيم بن الجيعان الجمعة، وحضر فيها جماعة من أعيان الدولة. وكان الخطيب – كما يذكر البقاعى هو أحد المنتمين إليهم، المعروفين بهم، المنقطعين إليهم، لذلك قرأ في إحدى الخطبتين ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ إِنَّمَا يَعْمُـرُ مَـسَاجِدَ اللهِ ... ﴾ سورة التوبة الآية ١٧، ١٨. لذلك عزله ابن الجيعان من الخطابة، فسعى إليها ولى الدين أحمد بن تقى الدين محمد بن الشيخ بدر الدين بن شـيخ الإسـلام الـسراج البلقينى. وعلق البقاعى على سعيه لتولى الخطابة بهذه المدرسة بأنـه كـان مـن العجائب، والأغرب من ذلك في رأيه أنه قرأ في الصلاة ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا للهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا ﴾ ووقف عند شاكرًا، يشير إلى باني المدرسة وأخيه علم الدين شاكر[5].

وهكذا كان أول من خطب بهذه المدرسة بعض الفضلاء ثم جعل ابن الجيعان ولى الدين بن تقى الدين البلقينى خطيباً لها[6]. وجعل منها ابن الجيعـان مدرسـة

---

(١) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج١، ٣٢١، ٣٧٦. وعن هاتين المنظرتين أو القـاعتين انظر ما يلي: ص٥٩-٦٤.

(٢) الضوء، ج١، ص ٦٨؛ وانظر أيضاً ابن إياس، بدائع، ج٢، ص ٣٥٧.

(٣) تاريخه، ج١، ص ٣٧١.

(٤) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج١، ص ٣٧٦؛ البقاعى، تاريخه، ق١، ص ٣٧١.

(٥) البقاعي، تاريخه، ق١، ص٣٧١-٣٨٢.

(٦) انظر السخاوى، الضوء اللامع، ج١، ص ٦٨.

للصوفية وعين لهم شيخاً إلى جانب كونها مسجداً للصلاة. ووصف ابن ظهيرة المدرسة الجيعانية هذه بأنها "ظريفة لطيفة"(١).

امتلك ابن الجيعان بالقرب من المدرسة الجامع عمائر هائلة بل كان هو صاحب قاعة أو منظرة البرابخية وغيرها وقد جعل ذلك كله وقفاً على مدرسته(٢). وعين ابن الجيعان ناظراً على أوقاف المدرسة الجيعانية، إلى جانب مؤذن وفراش للمدرسة ومزملاتي مسئول عن المزملة بالمدرسة، وشخص مسئول عن تعهد المطهرة وتنظيفها على العادة. وقد ألزم ناظر أوقاف المدرسة الجيعانية طائفة الملاحين بالبحر، بأن يدفعوا لجهة وقف الجيعانية في كل يوم مبلغاً معيناً، كما ألزمهم بتنظيف الطريق تجاه المدرسة، وذلك ما داموا يحملون الأحمال من البحر تجاه المدرسة، كما أشارت وثائق وقف محكمة بولاق(٣).

أدت المدرسة الجيعانية دورها كمسجد فتولى الخطابة فيها عدد من الفضلاء منهم أبو بكر بن على بن محمد بن سليمان الزين الأنصارى التتائى، ولد بتتا من المنوفية، وتولى خطابة المدرسة الجيعانية حتى وفاته(٤)، وناب عنه في الخطابة كذلك محمد بن أحمد بن عبد النور بن المحب بن البهاء الفيومى، واستمر ينوب في الخطابة بالجيعانية مدة، وتميز فيها كما يذكر السخاوى(٥). كذلك تولى مشيختها ودرس فيها أحمد بن أحمد بن عمر بن غنام الشهاب البرنكيمى ثم الزنكلونى ثم القاهرى، وقد استمر في مشيختها بعد أخيه موسى، الذي ولاه السعدى بن الجيعان

---

(١) الفضائل الباهرة، ص ٢٠٣؛ وانظر أيضاً إبن إياس، بدائع، ج٢، ص ٣٥٧.

(٢) السخاوى، الضوء اللامع، ج١، ص ٦٨.

(٣) نقلاً عن عادل شحاته طايع، حى بولاق، ص ٨٨.

(٤) السخاوى، الضوء اللامع، ج١١، ص ٥٦، ترجمة رقم ١٤٨.

(٥) الضوء اللامع، ج٩، ص ٢٤، ترجمة رقم ٦٩.

أول ما فتحت[1]. وتصدر للتدريس في المدرسة الجيعانية أيضاً أبــو بكــر عبــد الرحمن بن محمد بن أبى بكر بن عثمان السخاوى الأصل وهو شقيق الــسخاوى، وتوفى في ٨٩٣هـ/١٤٨٧م[2].

أنشأ القاضى زين الدين بن مزهر[3] كاتب السر جامع مدرسة ببولاق بالقرب من المدرسة الجيعانية أو بجوارها، كذلك كانت تقــع بجــوار قــصره، ووصــف السخاوى هذه المدرسة بأنها "بديعة الوصف، آنسة، بهجة"[4]. أما السيوطى[5] فعدها من الجوامع إذ يذكر أن ابن مزهر "بنى جامعاً تجاه بيته". وممــا يؤكــد علــى أن مدرسة ابن مزهر كانت مدرسة جامع شأنها شأن جوامع بولاق فقد قرر ابن مزهر في مدرسته مدرسين للتفسير والحديث والفقه وطلبة وصوفية[6]. مما يــدل علــى استمرار الحركة العلمية نشطة في بولاق في هذا العصر.

أما عن **(مدرسة ابن الزمن)** فقد شرع في بنائها الخواجا شمس الدين محمــد بن عمر المعروف بابن الزمن[7] بــشاطئ بــولاق عنــد الرصــيف[8] ، فيــذكر

---

(١) انظر ترجمة أحمد بن غنام عند السخاوى، الضوء، ج١، ص ٢١٨؛ أما عن ترجمة أخيــه موسى فانظر، السخاوى، الضوء اللامع، ج١٠، ص ١٧٥-١٧٦، ترجمة رقم ٧٤٩.

(٢) السخاوى، الضوء اللامع، ج١١، ص ٤٤-٤٥.

(٣) عن القاضى ابن مزهر انظر ما يلي ص٧، هامش ٣.

(٤) الضوء اللامع، ج١١، ص ٨٩.

(٥) نظم العقيان في أعيان الأعيان، حرره فيليب حتى، نيويورك ١٩٢٧م، ص ٩٧.

(٦) السخاوى، الضوء اللامع، م٦، ج١١، ص ٨٩؛ السيوطى، نظم العقيان، ص ٩٧.

(٧) هو محمد بن عمر بن محمد بن أبى بكر بن يوسف، الخواجا الشمس بن الــسراج القرشــى الدمشقى ثم القاهرى الشافعى ويعرف بابن الزمن وهو من تجار الكارم. ولد عام ٨٢٤هــــ بدمشق ونشأ بها، واشتغل مثل أبيه بالتجارة، وكان كثير السفر، دخل مصر أكثر من مــرة، والتقى بكثير من العلماء، اتصل بالأشرف قايتباى ولما تسلطن عينه مباشراً للعمائر المكيــة والمدنية، ومات بمكة في ١٨ شوال سنة ٨٩٧هـ/١٤٩١م. لمزيد مــن التفاصــيل انظــر: السخاوى، الضوء اللامع، ج٨، ص ٢٦٠-٢٦٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٩٣.

(٨) يقصد به رصيف ميناء بولاق وقد بناه الظاهر جقمق علم ٨٥٤هـ. وعنه انظر ما يلي، ص٢٠٠.

السخاوى[١] " أنه أنشأ مكاناً هائلاً ببولاق مع مدرسة هناك ما أظنها كملت". ويظهر من تلك العبارة إن ابن الزمن لم يكمل بناء هذه المدرسة، ولكن ذلك لم يمنع ابــن الزمن من أن يحفظ بهذه المدرسة مقتنياته الهامة ومنها شعرة تنسب للنبى صلى الله عليه وسلم، وبعض الأحجار أحضرت له من خيبر لأن بها أثر القــدم الـشريف، فضلاً عن كتاب قيل أنه بخط شرحبيل أحد كتاب الوحى. وقد حفظ ابن الزمن ذلك كله بالمدرسة التي بناها في بولاق، فيذكر السخاوى "والكل محفوظ بالمدرسة التي شرع في إنشائها بشاطئ بولاق"[٢].

وإذا كان بناء مدرسة ابن الزمن لم يكتمل كما ذكر السخاوى حتى عــصره (توفى ٩٠٢هـ/١٤٩٦م) فيبدو أنه اكتملَ بعد ذلك بدليل ما ذكره ابن إيــاس فــي حوادث المحرم من عام ٩١٣هـ/١٥٠٧م من أنه عُمــل مولــد الــشيخ ســويدان المجذوب في مدرسة ابن الزمن التي ببولاق عند الرصيف، كذلك ذكر ابن إيــاس في ذى القعدة من عام ٩١٦هـ/١٥١٠م أن السلطان الغورى أتــى إلــى بــولاق وبصحبته أعيان المباشرين ومر من على الرصيف، ووقف عند مدرسة ابن الزمن، وزار أحد شيوخها ويدعى (سيدى سويدان) وقد كان مقيما بالمدرسة[٣]. ومن ثم فقد اكتملت عمارة هذه المدرسة وظلت تؤدى دورها حتى بعد وفاة مؤســسها فــي ذى الحجة سنة ٨٩٧هـ/١٤٩١م. وعرفت هذه المدرســة أيــضاً باســم "المدرســة السويدانية" نسبة إلى الشيخ سويدان المجذوب الذي أقام بهذه المدرسة عدة سنوات، وظل مقيمًا بها حتى توفى في عام ٩١٩هـ/١٥١٣م[٤].

أما عن الزوايا فلم يرد في المصادر سوى ذكر زاوية أبو بكر الحسينى سكناً

---

(١) السخاوى، الضوء، م٤، ج٨، ص ٢٦١.

(٢) السخاوى، الضوء، م٤، ج٨، ص ٢٦١.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١١٤، ٢٠٢.

(٤) انظر ترجمة سويدان المجذوب في الغزى، الكواكب السائرة بأعيان المائــة العاشــرة، ج١، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، بيروت ١٩٩٥، ص٢١٣.

ثم البولاقي، وكان أحد المعتقدين، وأقام في بداية حياته بالحسينية ثم تحـول إلـى بولاق وأقام بها، وبنيت له بها زاوية، وتحكى عنه كرامات ومكاشفات، وتوفى في المحرم من عام ٨٣٧هـ/١٤٣٢م كما يذكر السخاوى(١). وأوردت سجلات محكمة بولاق أسماء عدد من الزوايا الأخرى منها على سبيل المثال لا الحصر زاوية عمر البسطامى بخط الخطيرى والحبالين، وتنسب إلى الشيخ العارف عمر بن أبى يزيد البسطامى، وزاوية الشيخ رمضان السرياقوسى بخط الحبالين كذلك؛ وكان نـاظر وقفها هو الشيخ أحمد بن الحجازى الواعظ، وقد اشتمل الوقف على أربعة أمـاكن بخط الحبالين، كانت تؤجر بالسنة للسكنى(٢).

القصور والمناظر والدور :

كان من الطبيعى أن يصاحب ظهور بولاق كناحية أو كخطة جديدة على أرض القاهرة، أن يسعى الأغنياء والأعيان وذو المناصب المرموقة في الدولة إلـى اقتنـاء مساحات من الأرض فيها، وتشييد القصور والمناظر والدور عليها، خاصة وأنها تقـع على شاطئ النيل في موقع يغلب العقول والألباب، ويسبح بالنفوس إلى عـالم الجمـال والخضرة والخيال. ومن ثم كان الغرض من بناء تلك القصور والدور في بداية الأمـر أن تكون أماكن للمتعة واللهو وقضاء أوقات طيبة وكذلك للنزهة والترويح عن النفس.

أورد ابن ظهيرة في كتابه "الفضائل الباهرة" قائمة بأسماء القصور والمناظر والدور الممتدة على شاطئ بحر النيل بمدينة بولاق، فذكر أن من أهـم القـصور وأجلها قصر المقر الأشرف الجمالى ناظر الخـواص(٣)، والقـصر البـارزى(٤)،

---

(١) الضوء اللامع، م٦، ج١١، ص ١٠٠.

(٢) نقلاً عن عادل شحاتة طايع، حى بولاق، ص ١١٩، ١٢٠.

(٣) عن الأشرف الجمالى ووظيفته ناظر الخاص انظر ما يلي ص٥٠.

(٤) يقال أن البارزى نسبة إلى باب أبرز ببغداد وقال أصله أبرزى ثم خفف فقيل البارزى لكثرة دوره؛ انظر السخاوى، الضوء اللامع، ج٩، ص ٢٣٦؛ السيوطى، نظم العقيان في أعيـان الأعيان، نيويورك، ١٩٢٧م، ص ١٦٨-١٦٩. وانظر ترجمة ناصر الدين محمد فيما يلـي ص٥٣، حاشية ٤.

والقصر الباسطى، وهو الآن (عصر المؤلف) باسم المقر الأشــرف الزينــى ابــن مزهر، كاتب السر[1]، والقصر المعروف بالبرابخية، والقصر المعروف بالحجازية، (ثم القبطية)[2]. والقصر الشرقى من إنشاء المقر الأشرف القضائى شــرف الــدين الأنصارى، والقصور الطنبدية والخاجية، وغير ذلك، ثم علق ابن ظهيرة بعبــارة جاء فيها "ولا يعلم اليوم (عصره) في مملكة من الممالك الإسلامية نظير هذه"[3].

قصر الأشرف الجمالى ناظر الخواص :

بناه يوسف بن عبد الكريم بن بركة الجمال بن الــسعدى القــاهرى – والــد الكمال محمد[4] والشهاب أحمد – ناظر الخاص[5]، ويعرف بابن كاتب جكم لكــون جده كان كاتباً عنده[6]. أفنى ناظر الخاص يوسف عمره – كما يذكر ابن إيــاس –

---

(١) كاتب السر والعامة تقول كاتم السر لأنه يكتم سر السلطان، يوقع على القصص (الــشكاوى) بدار العدل وغيرها، ويقرأ الرسائل على السلطان، ويتلقى أخبار الممالك ويعرضــها علــى السلطان، ويتولى الإجابة عنها، وعليه النظر في تجهيز البريد وغيــر ذلــك. لمزيــد مــن التفاصيل انظر محمد قنديل، التعريف، ص ٢٨٢.

(٢) وهى القطينية وليس القبطية وعنها انظر ما يلي ص٦٢-٦٤.

(٣) الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، القاهرة ١٩٦٩م، ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٤) انظر ترجمة الكمال محمد بن الجمالى ناظر الخواص في السخاوى، الــضوء، م٥، ج١٠، ص ٩٤-٩٥.

(٥) ناظر الخاص ينظر في خاص أموال السلطان، كما يقصد بالخاص السلطان الإقطاع الــذي يحوزه السلطان بوصفه سلطاناً، وقد أنشأ الناصر محمد للخاص السلطان ديواناً فــي ســنة ٧٢٧هـــ/١٣٢٧م عرف باسم "ديوان الخاص السلطانى" للأشراف علــى شــئون الــسلطان المالية، وجعل له ناظر وهو "ناظر الخاص". لمزيد من التفاصيل انظر: على محمد عمــر، "ديوان الخاص السلطانى في مصر زمن الناصر محمد بن قلاوون". بحث منشور في مجلة التاريخ والمستقبل، م رقم ١٢، آداب المنيا، السنة ١٩٨٨، ص ١٢١.

(٦) لمزيد من التفاصيل من ترجمة الجمالى ناظر الخواص (ت ٨٦٢هــ)؛ انظــر الــسخاوى، الضوء، م٥، ج١٠، ص ٣٢٢-٣٢٣، ترجمة ١٢١٢؛ ابن تغرى بــردى، المنهــل، ج١٢، ص٢٢٥-٢٢٧.

على بناء هذا القصر، وسمى إحدى قاعاته نصف الدنيا، وكان فيها الرخام المثمن الذي لا مثيل له[1].

وفى ربيع الآخر من عام ٨٧٥هـ/١٤٧١م نزل في هذا القصر خاير بك الظاهرى الخشقدمى[2]، الذي تسلطن ليلة واحدة، عند وصوله من ثغر الإسكندرية وكان صهراً لناظر الخاص يوسف إذ تزوج من ابنته خديجة، أخت الكمال ناظر الجيوش، وأخيه الشهاب أحمد[3]. وقد أقام خاير بك ببولاق في هذا القصر أياما، ثم خرج منه إلى مكة صحبة المحمل لأداء الفريضة هو وزوجته[4].

وعندما عزم السلطان الغورى القيام بعمارة قاعة البيسرية وقاعة العواميد وغير ذلك من الأماكن التي بالقلعة في (ربيع الآخر ٩١٠هـ/١٥٠٥م)، طلب من القاضى شهاب الدين أحمد الإبن الثاني للجمالى يوسف، بأن يفك أو يخلع رخام قاعة والده التي سماها نصف الدنيا وكان رخاماً نفيساً مثمناً ندر أن يوجد له مثيل، وأن ينقله إلى القلعة ليجدد به قاعة البيسرية وغيرها مما أضر بأولاد ناظر الخاص وجعلهم يتألمون ألماً بالغاً، وعلق ابن إياس على ذلك بقوله: "وكانت هذه الواقعة من أقبح الوقائع، ولو أن السلطان نقل هذا الرخام إلى مدرسته لكان أولى... وكما يقال فأفقرنى فيمن أحب ولا استغنى". بل وكتب فيها ابن إياس مطلع زجل جاء فيه :

---

(١) بدائع الزهور، ج٤، ص ٦٨؛ وانظر أيضاً محمود رزق سليم، السلطان قانصوه الغورى، القاهرة بدون تاريخ، ص ٩٣.

(٢) أصله من مماليك سودون قرقاش، اشتراه الظاهر خشقدم في أيام إمرته، وجعله خازنداره، ولما تسلطن جعله من جملة الخازندارية ودام بها ثم نقله إلى الدوادارية الثانية سنة ٨٧٠هـ، لمزيد من التفاصيل انظر السخاوى، الضوء، م٢، ج٣، ص ٢٠٨-٢٠٩.

(٣) وعن خديجة ابنة الجمالى يوسف انظر السخاوى، الضوء، ج١٢، ص ٣٢.

(٤) انظر الصيرفى، إنباء الغمر، ص ٢١١-٢١٢؛ ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٥٣؛ السخاوى، الضوء، م٢، ج٣، ص ٢٠٩.

سلطاننا الغوری قد جار والصبر منا قد أعيا
وصار في ذا الجور عمّال حتى خرب نصف الدنيا[1].

ومن الغريب أن السلطان العثمانى سليم الأول عندما شرع في بناء مدرسة له في اسطنبول (ربيع الأول ٩٢٣هـ/١٥١٧م) على غرار مدرسة السلطان الغورى في مصر، أمر بمهاجمة قاعات الناس، وأخذ ما فيها من الرخام السماقى والزرزورى والملون، وفأخربوا عدة قاعات في بولاق، وبيوت الأمراء قاطبة، وغيرها من قاعات المباشرين والتجار؛ كذلك فلك رخام قاعات القلعة ووضعه في صناديق خشب، استعداداً لإرساله إلى اسطنبول. ويعلق ابن إياس على ذلك بقوله: "ومن العجائب أن الغورى ظلم أولاد ناظر الخاص يوسف، وأخذ رخام قاعتهم التي تسمى نصف الدنيا، فسلط الله عليه بعد موته من أخذه... والمجازاة من جنس العمل"[2].

ظل قصر الأشرف الجمالى ناظر الخاص ببولاق يحمل اسمه حتى نهاية العصر المملوكى وبدايات العصر العثمانى، ويبدو إنه اتخذ مقراً في ذلك العصر ينزل فيه كبار القوم والمباشرون ممن حكم عليهم بالترسيم[3]. ثم بالنفى إلى اسطنبول فقد ذكر ابن إياس[4] في حوادث شوال ٩٢٤هـ/١٥١٨م، وأنزل من القلعة جماعة من المباشرين عددهم سبعة هم: القاضى علاء الدين بن الإمام، ناظر الخاص، والشرفى يونس النابلسى الاستادار، والقاضى بركات أخو شرف الدين

(١) بدائع الزهور، ج٤، ٦٨، وانظر أيضاً، ج٥، ص ٩١.
(٢) بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٧٩، ١٨٣.
(٣) الترسيم هو الأمر الذي يصدر من الجهة المختصة لعقوبة شخص بوضعه تحت المراقبة. كذلك قيل أنها مشتقة من المرسم وهو الموكل إليه مراقبة المتهم والقبض عليه؛ انظر المقريزى، السلوك، ج١، ق٣، ص ٧٤٠، حاشية (٥)؛ وانظر أيضاً على طه رزق، السجون والعقوبات، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٣١، حاشية (٤).
(٤) بدائع الزهور، ج٥، ص ٢٧٨-٢٧٩.

الصغير، كاتب المماليك[١]، والقاضى فخر الدين بن عوض، والقاضى أبو البقاء ناظر الإسطبل ومستوفى ديوان الخاص[٢]، والشرفى يونس نقيب الجيش، والأمير يوسف البدرى وزير الديار المصرية وكاشف الغربية[٣]، ومحتسب القاهرة، فلما وصلوا إلى بولاق نزلوا بقصر ناظر الخاص حتى تنتهى إشغالهم، وأقاموا به حتى يوم الإثنين عشرين شوال ثم نزلوا في المراكب، وتوجهوا من بولاق إلى الإسكندرية ثم منها إلى اسطنبول.

قصور آل البارزى :

أشهرها وأهمها قصر القاضى ناصر الدين محمد بن البارزى الجهنى الحموى[٤]، كاتب السر الشريف بالديار المصرية. وكان أصل هذا القصر داراً جليلة على النيل، عمرها التاجر محمد بن محمد بن سلام[٥]، أحد تجار القاهرة، الكبار، واستأجرها ناصر الدين بن البارزى، وشيدها من جديد، وأضاف إليها عدة بيوت كانت مجاورة لها، وأتقن بنيانها، وجعلها على طراز عمائر حماه، لذلك

---

(١) كاتب المماليك وهو الذي يختص بالمماليك فقط ويعمل تحت إمرة صاحب ديوان المماليك. انظر محمد قنديل البقلى، التعريف، ص ٢٨٣.

(٢) مستوفى ديوان الخاص هو من كتاب ديوان الخاص ويتبع ناظر الخاص وعنه انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص ٣٠؛ محمد قنديل، التعريف، ص ٣١٠.

(٣) الكاشف والجمع كشاف هو الذي يشرف على أحوال الأراضى والجسور، ولذلك سمى "كاشف الجسور" أو "كاشف التراب"، وكان بالوجه البحرى أثنان مقرهما الشرقية والغربية، والكاشف من أمراء الطبلخاناه (أي أمير أربعين). انظر محمد قنديل، التعريف، ص ٢٨٣.

(٤) كان إماماً عالماً بارعاً ناظماً ناثراً مفواها فصيحاً مقداماً، خطيباً بليغاً، ذا معرفة تامة ورأى وتدبير وسياسة وعقل ودهاء وتوفى في ٨ شوال سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة. انظر ترجمته في السخاوى، الضوء اللامع، م٥، ج٩، ص ١٣٧-١٣٩؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج١١، ص ١٠٠٧؛ الصيرفى، نزهة النفوس، ج٢، ص ٤٨١-٤٨٢؛ وانظر أيضاً أحمد دراج، " تراجم كتاب السر في العصر المملوكى"، بحث منشور في مجلة البحث العلمى والتراث الإسلامي، العدد الرابع ١٤٠١هـ، ص ٣٣٢-٣٣٣.

(٥) توفى في سنة ٨١٦هـ، انظر ترجمة السخاوى، الضوء اللامع، م٥، ج٩، ص ٨٣.

أعجب بها السلطان المؤيد شيخ إعجاباً شديداً، واتخاذها دار إقامة له، بل ومــارس منها شئون الحكم على نحو ما سنرى[1].

وأمكن التعرف على العام الذي تم فيه تشييد قصر ابن البارزى من خلال ما ذكره المقريزى في حوادث عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م، من أن السلطان (المؤيد شــيخ) عاد من السرحة يوم الإثنين ٢١ ذى القعدة من هذه السنة، فنــزل بقــصر، أنــشأه القاضى ناصر الدين محمد بن البارزى، كاتب السر، على شاطئ النيل مــن البــر الغربى، وكان قد شرع في أساسه قبل سرحة السلطان[2].

وفى صفر من عام ٨٣٨هـ/١٤٣٥م تعرض هذا القصر لهجوم من جانــب المماليك الذين نزلوا من الطباق وقاموا بثورة، وقصدوا بيوت المباشرين في بولاق لينهبوها وتوجهوا أولاً إلى بيت ابن البارزى، ولكنه نجح في الفرار منهم[3].

سار أبناء ناصر الدين محمد بن البارزى وأحفادة ســيرته فــي تــشييد الــدور والقصور في بولاق فذكر ابن تغرى بردى في حوادث عام ٨٢٢هـــ/١٤١٩م مــات الأمير شهاب الدين أحمد بن القاضى ناصر الدين محمد بن البارزى بداره على النيــل بساحل بولاق، وحضر الجنازة السلطان المؤيد شيخ[4]. كذلك عمر عبد الــرحيم بــن الأمير شهاب الدين[5]. الحفيد داراً هائلة على شاطئ النيل ببولاق مجاورة لــدار جــده

---

(١) ابن حجر، إنباء الغمر بأبناء العمر، نشر دائرة المعارف العثمانية، بيــروت ١٩٨٦م، ج٧، ص٣٥٣-٣٥٤. ولمزيد من التفاصيل عن اتخاذ هذا القصر دار مملكة وإقامــة للــسلاطين انظر ما يلي: ص٩٩ وما يليها

(٢) السلوك، ج٤، ق١، ص ٤٢٦.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ١٥٩، والطباق مفردها طبقــة وهــى تكنــات الجــيش المملوكى ويوجد بساحة الإيوانى بالقلعة، ويتم بداخلها تعليم المماليــك الــصغار وتــربيتهم وتدريبهم على فنون الحرب والقتال.

(٤) النجوم، ج١٤، ص ١٥٩.

(٥) هو عبد الرحيم بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الزينى بن الشهاب بن القاضي ناصر الــدين محمد الأنصارى الحموى الأصل القاهرى الشافعى والمشهور بــابن البــارزى، المــصري المولد والدار والوفاة، توفى في سنة ٨٧٤هـ. انظر ترجمته في الــسخاوى، الــضوء، م٢، ج٤، ص١٦٨، ترجمة رقم ٤٤٣ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٧، ص٢٤١؛ وانظر أيضاً الصيرفى، إنباء الهصر، ص ١٧٠-١٧١.

ولدار رئيس الدين ابن مزهر الأنصارى[1]. ووصف الصيرفى هذه الدار بقوله: "أنهـا عديمة النظير في البناء المتقن والرخام الهائل الملون، والـذهب والأزورد، والأبـواب المطعمة وغير ذلك"[2]. ووصفها السخاوى بقوله: "إنها قصر هائل"[3].

ويذكر الصيرفى أن الشهاب بعد أن انتهى من بنـاء قـصره هـذا سـأله (أي الصيرفى) أن يأذن له بالتفرج فيها هو وعياله، فرسم له بذلك، بل وأرسـل إليـه مـا يحتاجه من الميرة من غنم وأوز ودجاج ونفقة[4]. لذلك لا عجب أن كان لآل البـارزى درباً في بولاق[5]. عرف بدرب البارزى، وكان أوله حمام ابن البارزى الأب[6].

قصر الباسطى :

ينسب إلى مؤسسه القاضى زين الدين بن عبد الباسط ناظر الجيش[7]، ويقـع ببولاق على النيل، وقد اعتاد الأمراء أن يعينوا زمامـا (أي مـشرفاً) لقـصورهم

---

(١) انظر ترجمته فى السخاوى، الضوء، م٦، ج١١، ص ٨٨-٨٩؛ السيوطى، نظم العقيان فـي أعيان الأعيان، ص٩٧، ١٤٣؛ وانظر ما يلي ص٥٧، هامش ٣.

(٢) أنباء الهصر، ص ١٧١.

(٣) الضوء، م٢، ج٤، ص ١٦٨.

(٤) أنباء الهصر، ص ١٧١-١٧٢.

(٥) الدرب لفظ فارسى معرب، ويستخدم في معنى الأبواب والطـرق الموصـلة أو المـسلوكة، محمد محمد أمين وليلى على إبراهيم، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، القاهرة ١٩٩٠م، ص ٤٦.

(٦) البقاعى، تاريخه، ج٢، ص ٣٦٠؛ وعن الحمام، انظر ما يلي في الحديث عن حمامات بولاق.

(٧) هو زين الدين بن عبد الباسط بن خليل بن إبراهيم الدمشقى، ولد في عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م في دمشق، وقدم بصحبة المؤيد شيخ إلى مصر، بعد مقتل الناصر فرج وسلطنة المـستعين بالله، وتولى عدة وظائف في سلطنة المؤيد شيخ منها: نظر الخزانة، ونظر الكسوة الشريفة، وفى سلطنة الظاهر ططر تولى نظارة الجيش، والوزارة والاستادارية، وصار هو المعـول عليه والمشار إليه في دولته، ثم اعتزل المناصب، وصار ينتقل بين مصر والشام حتى توفى في عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م. لمزيد من التفاصيل انظر السخاوى، الضوء اللامـع، م٢، ج٤، ص ٢٤-٢٧؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج٧، ص ١٣٦-١٤٣؛ الـسيوطى، نظـم العقيان، ص١٢٢.

ودورهم، وعرض القاضى زين الدين على الأمير صفى الدين جوهر القنقبــاى[1]. الطواشى أن يكون زماماً لقصره هذا، وكان الأمير جوهر قد خدم عند جماعة من الأمراء زماماً لدورهم، ولكنه رفض عرض القاضى زين الدين رفضاً تامــاً لأنــه كان يكره القاضى زين في الباطن. كما يذكر ابن إياس[2].

اتخذ بعض أبناء السلاطين القصر الباسطى نُزلاً لهم، ففى منتصف جمــادى الأولى سنة ٨٢٣هـ/١٤٢٠م نزل به المقام صارم إبراهيم بن السلطان المؤيد شيخ طلباً للاستشفاء، بعد أن اشتد به المرض، وتكبد الأطباء المشقة في علاجه[3]. كذلك نزل المقام الناصرى محمد بن السلطان الأشرف برسـباى بهـذا القـصر ومعـه لالاته[4]. الأمير جانى بك الأشرفى في سنة ٨٢٨هـ/ ١٤٢٥م لمشاهدة الأغربة[5] التي أعدها أبوه بساحل بولاق عند سفرها إلى قبرص[6]. وكان السلطان الأشـرف برسباى يتردد بدوره على قصر الزينى عبـد الباسـط مثلمـا حـدث فـي عـام ٨٣٢هـ/١٤٢٨م حيث أقام به بعض الوقت ثم عاد إلى القلعة، كذلك نزل برسباى

---

(١) انظر ترجمته في السخاوى، الضوء اللامع، م٢، ج٤، ص ٢٧.

(٢) بدائع الزهور، ج٢، ص ١٥٩؛ وانظر أيضاً الصيرفى، نزهة النفوس، ج٤، ص ٢٢٥.

(٣) المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٥٢٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ٩٤؛ ابـن حجر، إنباء الغمر، ج٧، ص ٣٨١. وانظر ترجمة المقام الصارمي في ابن تغرى بـردى، المنهل الصافى، ج١، ص ٨٢.

(٤) اللالا وقد يقال له لا له، دلالت، والجمع لالات، ولا لا كلمة فارسية معناها مربى الأطفـال، وجرت العادة أن تطلق على مربى أولاد السلاطين. لمزيد من التفاصيل انظر: القلقـشندى، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٥٦؛ حسن الباشا، الفنون والوظائف، ج٢، ص ٩٧٨-٩٧٩.

(٥) الأغربة مفردها غراب وهو من المراكب الحربية شديدة البـأس التـي اسـتعملها المـسلمون والفرنج في العصور الوسطى فى الغارة والغزو عن طريق البحر، وسميت بالأغربة والغربان لرقتها وطولها وسوادها بالأطلية المانعة للماء عنها كالزفت وغيره، فصارت تشبه في سوادها الغربان، وكذلك لأن مقدم هيكلها كان على شكل رأس غراب، وهى تسير بالقلاع والمجاديف. لمزيد من التفاصيل انظر. درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص ١٠٤-١١٢.

(٦) ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٣، ص ٢٧٦؛ وانظر ما يلي.

في جمادى الأولى سنة ٨٣٥هـ/١٤٣١م إلى هذا القصر لزيارة القاضي زين الدين ابن عبد الباسط[١].

تعرض قصر القاضي زين الدين بن عبد الباسط شأن غيره من قصور بولاق ودورها لنهب المماليك في صفر من عام ٨٣٨هـ/١٤٣٤م [٢]. وظل هذا القصر ملكاً للقاضي زين الدين حتى وفاته في عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م. ثم انتقلت ملكته إلى زين الدين بن مزهر[٣]. كاتب السر، ويؤكد ذلك ما ذكره ابن ظهيرة بقوله "وهو (أي قصر الزيني عبد الباسط) الآن (أي عصره) باسم المقر الأشرف الزيني ابن مزهر كاتب السر"[٤]. كما يذكر الصيرفي[٥] في ذى القعدة عام ٨٧٥هـ/١٤٧٠م أن السلطان قايتباى مر من بولاق، وسأل عن بيت رئيس الدنيا الأنصارى كاتب السر، ولما علم ابن مزهر بذلك أصبح من الغد، فجهز للسلطان من السكر المكرر عشرة قناطير، ومن الأغنام المعاليف عشرين معلوفاً.

منظرة زوجة القاضي زين الدين الاستادار :

أنشأ القاضي زين الدين الاستادار صاحب جامع ومدرسة الاستادار ببولاق ثلاث مناظر أحدها لزوجته بخط الباقل ببولاق، أنشأها وسط بستان وقفه عليها بتلك المنطقة، وقد أوردت وثيقة وقف رقم ١٨/١١٠ باسم زين الدين أبو زكريا يحيى الاستادار وصفاً لهذه المنظرة، فقد جاء فيها إنها مكونة بصفة عامة من واجهة بنيت

---

(١) الصيرفي، نزهة النفوس، ج٣، ص ١٤٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٣، ص ٣٥٦.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ١٥٩.

(٣) هو أبو بكر بن محمد بن أحمد بن عثمان بن مزهر الأنصارى الدمشقى الأصل، ثم المصري القاضي كاتب السر تقى الدين ابن القاضي كاتب السر بدر الدين، ولد في سنة ٨٣١هـ، وتولى العديد من المناصب من أهمها كاتب السر، وهو منصب والده، وظل يشغله بضعاً وعشرين سنة إلى أن توفى في عام ٨٩٣هـ. لمزيد من التفاصيل انظر السيوطى، نظم العقيان، ص ٩٧؛ السخاوى، الضوء، م٦، ج١١، ص ٨٨-٨٩.

(٤) الفضائل الباهرة، ص ٢٠٣.

(٥) أنباء الهصر، ص ٢٨٧.

من الحجر الفص النحيت[1]، بها باب معقود يؤدى إلى دركاة[2] مربعـــة الـــشكل، كسيت أرضيتها بالبلاط، وسقفت بتكعيبة خشبية، تظللها أوراق العنب، وبالـــدركاة بابان أحدهما يؤدى إلى البستان، بينما يؤدى الباب الآخر إلى دركاة أخرى صغيرة مربعة الشكل كسيت أرضيتها بالبلاط، وسقفت بـــسقف خـــشبى مـــسطح مـــدهون بالألوان، ويتصدرها مسطبة[3] أسفلها خزانة صغيرة لحفظ الأشياء، وقد فتح بهـــا نافذة تطل على البستان... وبالمنظرة مزملة للمياه.. ويتوسط المنظـــرة فـــوارة[4] مربعة الشكل مكسوة بالرخام الملون، وبها سلسبيلان لتبريد مياه الشرب، وقد فـــتح بالمنظرة إحدى عشرة نافذة تطل على البستان، ولها أبواب تؤدى إلى أروقة علوية للاستراحة، ومرافق كالمطابخ والمراحيض[5].

يرجع تاريخ بناء تلك المنظرة إلى عام ٨٥٠هـــ/١٤٤٦م تقريباً، ويبـــدو أن الأمير يشبك من مهدى قد أمتلكها بعد ذلك هي والبستان كما أشـــارت إلـــى ذلـــك

(١) الحجر الفص النحيت هو من أجود الحجر ونحيت أي بعد قطعة ســـويت جوانبـــه وهـــذبت وصقلت. محمد محمد أمين وليلى على إبراهيم، المصطلحات المعمارية، ص ٣٣.

(٢) الدركاة لفظ فارسى مركب من مقطعين: الأول "در" بمعنى باب، والثانى "كاه" بمعنى محـــل، ويقصد بالكلمة العتبة أو الممر أو الساحة الصغيرة التي تلى الباب، وتؤدى إلى داخل بنـــاء كبير مثل القصر أو المدرسة أو غيرها أو بناء صغير مثل الزاويـــة والـــسبيل، ومـــن ثـــم فالدركاة منطقة وسطى تلى باب الدخول وتتقدم التكوين الرئيسي للمبنى، واستخدمت الدركاة في القصور والمنازل حتى لا يطلع المار بالشارع أو الطريق على ما بـــداخل القـــصر أو المنزل. محمد محمد أمين وليلى على إبراهيم، المصطلحات المعمارية، ص ٤٧.

(٣) مسطبة، بناء مرتفع قليلاً يقعد عليه، وهى دائماً بناء، أما إذا كانت من الخشب فتسمى "دكة". محمد محمد أمين وليلى على إبراهيم، المصطلحات المعمارية، ص ١٠٦.

(٤) يقصد بها الأنبوب أو الماسورة التي ينطلق منها الماء إلى الفسقية تشبيهاً بالقدر حين يغلـــى فيفور منه الماء. محمد محمد أمين وليلى على إبراهيم، المصطلحات المعمارية، ص ٨٧.

(٥) لمزيد من التفاصيل انظر الوقفية ١١٠/١٨ (المحكمة الشرعية بالقلعة)؛ وانظر أيضاً: ليلـــى كامل محمد على الشافعى، "منشآت القاضى زين الدين الاستادار بالقاهرة"، رسالة دكتـــوراة، آثار القاهرة ١٩٨٥م، ص ٣٥٢-٣٥٤.

سجلات محكمة بولاق[1].

قصر أو منظرة البرابخية :

بناه ابن برابخ علم الدين سليمان وكان رئيس الأطباء في أيام الناصر بن الظاهر، وعرف هذا القصر به فسمى قصر البرابخية. ثم انتقلت ملكية هذا القصر إلى إبراهيم بن الجيعان فقد كان يقع بجوار مدرسته سالفة الذكر، التي أنشأها في بولاق عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م على شاطئ النيل، وقد قام ابن الجيعان بتعمير هذا القصر وتجديده قبل الشروع في وضع أساس مدرسته بدليل ما يذكره ابن تغرى بردى في حوادث عام ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م وهو أن القاضي بهاء الدين محمد قاضي القضاة نجم الدين عمر الدمشقى المولد الشافعي، ناظر جيش دمشق، توفى في هذه السنة بقاعة البرابخية بخط بولاق على النيل[2].

أما عن وصف قصر البرابخية فقد كان عبارة عن مبنى كبير مشيد بالأحجار والطوب الأجر، يطل على شاطئ نهر النيل، وبه أكثر من طابق، ويحتوى من داخله على قاعات كثيرة بعضها للجلوس، والبعض الآخر للنوم، ومعظمها يطل على شاطئ النيل، والحق بهذا المبنى حمام وحديقة كبيرة، تحتوى على أشجار كثيرة بعضها كان لفواكه مثل الرمان والبلح وغيرها. أما عن حدود هذا القصر فقد جاءت في وثيقة وقف السلطان الغورى رقم ٨٨٣ على النحو التالي: الحد القبلي ينتهى للطريق المسلوك فيها إلى حمام الطنبدى والمدرسة الجيعانية، والحد البحرى ينتهى إلى البحر الأعظم، والحد الشرقي ينتهى إلى المدرسة الجيعانية، والحد الغربى ينتهى لبيت المقر الزينى عبد الباسط[3].

---

(١) نقلاً عن عادل شحاته طايع، حي بولاق، ص ٤٨.

(٢) عن ابن برابخ انظر : السخاوى، الضوء اللامع، ج١١، ص٢٣٦؛ انظر أيضًا: ابن تغري بردي، النجوم، ج١٥، ص٥١٤.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن وصف هذا القصر، انظر وثيقة وقف السلطان الغورى المحفوظة بأرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة تحت رقم ٨٨٣ التي نشرها عبد اللطيف إبراهيم، "دراسات"، م٢، ص٣٠-٣١. وانظر أيضاً سامى أحمد، " الأمير يشبك من مهدي وأعماله المعمارية بالقاهرة " رسالة ماجستير غير منشورة، آداب القاهرة، ١٩٧٠م، ص٢٢٣، ملحق (٧).

وحدث في ربيع الأول من عام ٨٧٩هـ/١٤٧٤م أن أرسل الأمير يشبك الدوادار[1]. إلى القاضي ابن الجيعان يسأله استبدال قاعات البرابخية التي ببولاق مقابل خمسة آلاف دينار، هذا في الوقت الذي صمم فيه قاضي القضاة شمس الدين الأمشاطي على عدم الإستبدالات قاطبة، ولكن نجح الأمير يشبك في التضييق عليه حتى استبدل له البرابخية[2]. وهذه الرواية توضح أن ملكية قاعات أو قصر البرابخية قد آلت إلى الأمير يشبك الدوادار عن طريق الشراء بعد أن كانت في حوزة ابن الجيعان وذلك في عام ٨٧٩هـ/١٤٧٤م، وقد اشتراها يشبك بمبلغ خمسة آلاف دينار، وقام بتجديدها، واتخذها يشبك مكاناً للراحة والتنزه وإقامة ضيوفه. وقد استضاف بها الكثير من الأعيان والوجهاء وكذلك السلطان قايتباي.

ظلت قاعات قصر البرابخية ملكاً للأمير يشبك من مهدي، ومن ضمن أوقافه المتعددة، ثم استبدلها السلطان الغوري عن طريق الشراء نقداً من الناظر على وقف يشبك بعد وفاته، وصارت من جملة أملاكه، ثم انتقلت ملكية قاعات البرابخية بعد ذلك إلى القاضي محمود بن أجا[3]، كاتب السر، إذ يذكر ابن إياس[4] في حوادث رجب سنة ٩٢٠هـ/١٥١٤م أن القاضي كاتب السر محمود بن أجا قد عزم على

(١) يشبك الدوادار هو يشبك من مهدي الظاهري جقمق ويعرف بالصغير، وقد اشتد بأسه وكثرت أمواله وتزايدت وجاهته، واستقر به الأشرف قايتباي في الدوادارية الكبرى، ومات سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م. انظر السخاوي، الضوء اللامع، م٥، ج١٠، ص ٢٧٢-٢٧٤.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٩٧؛ سامي أحمد عبد الحليم، الأمير يشبك من مهدي وأعماله المعمارية بالقاهرة، ص٢٢٣.

(٣) هو بدر الدين محمود بن أجا الحلبي، تولى قضاء الحنفية بحلب غير مرة، فيما بين سنة ٨٩٠هـ وسنة ٩٠٥هـ، خلع عليه السلطان جان بلاط بكتابته السر بعد أن استعفى عنها صلاح الدين ابن الجيعان، وظل يشغل هذه الوظيفة إلى أن أعفاه منها السلطان العثماني سليم الأول، وبعد ذلك توجه إلى حلب مسقط رأسه حيث وافته المنية في سنة ٩٢٥هـ. انظر أحمد دراج، تراجم كتاب السر في العصر المملوكي، ص ٣٤٦.

(٤) بدائع الزهور، ج٣، ص٣٩٣-٣٩٤.

السلطان الغوري، فنزل السلطان وبصحبته جماعة من الأمراء والمقدمين والطبلخانات والعشرات وغيرهم، وتوجه إلى بولاق، وطلع إلى البرابخية فاستقبله القاضي محمود بن أجا هناك، وأحضر مَدة عظيمة بين يدى السلطان، ثم اتبعها بالحلوى والفاكهة والمخبوزات وغيرها من المآكل الفاخرة، وبات السلطان تلك الليلة عنده في البرابخية، وفي اليوم التالي مد القاضي ابن أجا للسلطان والأمراء سماط الغداء، وقيل إنه أنفق على تلك الموائد فوق الألف دينار، وبعد الغداء نزل السلطان والأمراء في المراكب، متوجهاً إلى المقياس ومنه إلى القلعة.

أعاد السلطان الغوري الكرة ثانية في شعبان من العام التالي (٩٢١هـ/١٥١٥م) ففي يوم الثلاثاء الثالث والعشرين منه نزل السلطان إلى بولاق، وتوجه – كما يروى ابن إياس[١]. إلى ضيافة القاضي كاتب السر محمود بن أجا بالبرابخية، فأقام عنده إلى يوم الأربعاء، وهو في أرغد عيش، فقد أحضر له القاضي من كل شئ أحسنه، حتى قيل أنه تكلف على أسمطة وطوارئ[٢] حافلة وتقدمة عظيمة، قدمها للسلطان فوق آلاف دينار، وكان مع السلطان ابنه وجماعة من الخاصكية[٣]، وأحضر القاضي بين يدى السلطان المغاني وأرباب الآلات، وأظهر القاضي أنواع العظمة من الفرش الفاخرة والأواني الصيني، والنحاس المكفت وغير ذلك من كل صنف. وبعد أن أمضى السلطان وصحبته وقتاً ممتعاً في

---

(١) بدائع الزهور، ج٤، ص٤٧٣-٤٧٤.

(٢) الطوارئ جمع طارئ وهو الطعام الذي يمد بعد قيام السلطان من المجلس العام، ويأكله خواص السلطان ومن يحضروا بين يدى السلطان. والطارئ هو الطعام الثالث الذي يمد بعد رفع الطارئ، ومنه يأكل السلطان وخواصه. انظر النويرى، نهاية الأرب، ج٨، ص٢٢١-٢٢٢.

(٣) الخاصكية هي فرقة من المماليك السلطانية، وهم أقرب الناس إلى السلطان فيلازمونه في خلواته، ويسوقون المحمل الشريف، ومنهم من هو صاحب وظيفة، ومنهم من ليس له وظيفة؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص١٥؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص١٩.

قصر البرابخية في ضيافة القاضي ابن أجا، عاد إلى القلعة عصر يوم الأربعاء ٢٤ شعبان.

ظلت قاعة البرابخية تابعة للقاضي محمود بن أجا كاتب السر، حتى نهاية عصر سلاطين المماليك، فقد ظل الرجل يشغل وظيفة كاتب السر حتى أعفاه منها السلطان سليم، فعاد إلى حلب مسقط رأسه، ولكنه كان قد أوقف قصر البرابخية قبل رحيله عن مصر، وهناك وقفية بتاريخ جمادى الأخرة سنة ٩٦١هـ/١٥٥٣م باسم "محمود أجا كاتب السر الشريف بالديار المصرية"[١]. جاء فيها "أنه صرف في العمارة والمرمة بمدرسة الواقف... وفي مرمات متفرقة بالمكان الكائن ببولاق المعروف بالبرابخية المجاور للجيعانية الجاري في الوقف المذكور مبلغاً قدره تسعمائة نصف وخمسة وثلاثون نصفاً وطلب كتابة ذلك..."[٢]. مما يدل على أن قصر البرابخية وقاعاتها ظلت وقفاً باسم ابن أجا بعد نهاية حكم المماليك في مصر وخلال العصر العثماني.

قصر الحجازية (ثم المعروف بالقطينة أو القطينية) :

تصمت المصادر تماماً عن ذكر أي شيء يخص مؤسس هذا القصر، وقد يظن المرء أنه ينسب إلى خوند تتر الحجازية ابنه الناصر محمد بن قلاوون وزوجة الأمير بكتمر الحجازي وبه عرفت كما يذكر المقريزي[٣]. ولكن ليس هناك ما يؤكد

---

(١) انظر النص الكامل لهذه الوقفية في:
Nelly Hanna, Construction Work in Ottoman Cairo (1517–1798) Cahier N. 4, Supplement aux Annales Islamologiques. Appendix N.I, Le Caire, 1984, p. 53.

(٢) Nelly Hanna, Construction Work, p. 53.

(٣) المواعظ، ج٢، ص٣٨٢. أما لقب خوند فهو من خود بمعنى نفس وهي الفتاة الحسنة الخلق والشكل، وجمعها خوندات، وهي لفظة روسية أو تركية أصلها خواونده ومعناه السيد أو الأمير، وجرت العادة أن يخاطب بها الملوك والملكات وأمهاتهم. انظر ابن منظور، لسان العرب، ق٣، ص ١٦٥؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١٢١.

ذلك في المصادر المعاصرة، فخوند تتر الحجازية، هي صاحبة ذلك القصر وتلـك المدرسة المنسوبة إليها والمعروفة بالمدرسة الحجازية الواقعة برحبة بـاب العيـد بالقاهرة إلى جوار قصرها المعروف بقصر الحجازية. وهذا ما تؤكده المـصادر، وفيما يتعلق بقصر الحجازية ببولاق تكتفى المصادر بذكر إنه يوجد ببولاق علـى شاطئ النهر قاعة أو منظرة أو قصر يعرف بالحجازية وأمـاكن عجيبـة حـسنة المنظر[1].

وفى عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م نزل المقام الصارمى ابراهيم بن الـسلطان المؤيـد شيخ في قصر الحجازية وأقام به بعد أن اشتد عليه المرض، ثم حمل من بولاق إلـى القلعة حينما أوشك على الموت[2]. كذلك عندما توعكت سورباى الجركسية[3] حظيـة السلطان الظاهر جقمق، أرسلت إلى بولاق في ربيع الآخر عـام ٨٥٢هـــ/١٤٤٨م وأقامت في الحجازية على شاطئ النيل ببولاق[4]. وهذا إشارات تدل على وجود قصر الحجازية خلال تلك السنوات.

ظل قصر الحجازية يعرف بهذا الاسم حتـى عـام ٨٥٩هـــ/١٤٥٤م لأن المصادر بدأت تذكره باسم (القطينة) فعندما ذكره ابن ظهيرة من بين قصور بولاق ومناظرها قال "قصر الحجازية (ثم المعروف بالقطينة)[5]. ويذكر ابن تغرى بردى في ١٠ من ربيع الآخر سنة ٨٥٩هـ/١٤٥٤م نزلت زوجة السلطان الملك الأشرف

---

(١) ابن شاهين الظاهرى، زبدة كشف الممالك، ص ٢٨؛ السخاوى، التبر المـسبوك فـي ذيـل السلوك، ج٢، ص ١٣٤؛ المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٥٢٩؛ ابـن إيـاس، بـدائع الزهور، ج٥، ص ٥١-٥٢.

(٢) المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٥٢٩، ٥٣٠؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ٩٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٥٢-٥٣.

(٣) انظر ترجمة سورباى الجراكسية في السخاوى، الضوء اللامع، ج١٢، ص ٦٦.

(٤) السخاوى، التبر المسبوك، ج٢، ص ١٣٤.

(٥) الفضائل الباهرة، ص ٢٠٣.

إينال خوند زينب بنت علاء الدين على بن خصبك من قلعة الجبل في محفة إلـــى البيت المعروف بابن قطينة بساحل بولاق، وهو ملك لهم"[١]. وذكر في موضع آخر "أن القاعة المذكورة (قطينية) كانت ملك خوند زينب زوجة السلطان الملك الأشرف إينال"[٢]. وأكد السخاوى ذلك في ترجمتها حيث ذكر "أنها أقامت في بيتها في بولاق عندما مرضت" أي في القطينة المطلة على بحر النيل ببولاق[٣]. وذكر الـــسخاوى في موضع آخر أن بدرية أبنة الأشرف إينال "ماتت في ليلة الأحد ثامن شعبان سنة تسع وسبعين بمنزلهم من بولاق"[٤].

وهذه العبارات كلها توضح أن ملكية قصر الحجازية آلت إلى خونـد زينـب زوجة السلطان إينال، وأن اسمه تغير ليعرف باسم "القطينة أو القطينيـــة". وتظهـــر عبارة ابن تغرى بردى (البيت المعروف بابن قطينـــة بـــساحل بـــولاق) أن قـــصر الحجازية قد اشتراه في فترة ما قبل عام ٨٥٩هـ/١٤٥٤م شخص يدعى بابن قطينة وربما يقصد به الأمير شهاب الدين أحمد بن عمر بن قطينة[٥]، ثم اشترته خوند زينب زوجة السلطان إينال وأصبح ملكاً لها وهذا ما أكدته المصادر على نحو ما سبق.

---

(١) حوادث الدهور، ج١، ص ٤٤٩، منتجات من حوادث الدهور، ج٢، ص ٣٢٤. أما خونـد زينب زوجة الأشرف إينال فقد كانت من أجل الخوندات، معظمة عند زوجهـا، رأت فـي دولته غاية العز والعظمة، حتى صارت تدبر أمور المملكة، ولمزيد من التفاصيل عنها انظر السخاوى، الضوء، ج١٢، ص٤٤-٤٥، وانظر أيضاً. نهلة أنيس محمد مصطفى، خونـدات العصر المملوكى، القاهرة ٢٠٠٣، ص ١٩.

(٢) حوادث الدهور، ج١، ص ٥٠٨-٥٠٩.

(٣) الضوء اللامع، م٦، ج ١٢، ص ٤٥.

(٤) الضوء اللامع، م٦، ج١٢، ص ١٢.

(٥) هو شهاب الدين أحمد بن عمر بن قطينة، نشأ في الخدم، وأثرى من مباشـــرة الاســـتادارية لبعض الأمراء ثم باشر شد الكارم في أيام الظاهر برقوق، ثم استقر به السلطان وزيراً فـــي سنة ٨١٢هـ/١٣٩٩م، ومات في ٨١٩هـ/١٤١٦م عن مال جزيل. لمزيد مـــن التفاصـــيل انظر السخاوى، الضوء، م١، ج٢، ص٥٥؛ الصيرفى، نزهة، ج٢، ص ١٩-٢٠؛ ابن تغرى بردى، المنهل، ج٢، ص٥٢؛ العيني، عقدالجمان (٨١٥-٨٢٣هـ)، ص٢٧٩.

أما **القصر الشرقي** : فهو من إنشاء المقر الأشرف القضائى شـرف الـدين الأنصارى[1] كما ذكر ابن ظهيرة[2] وذكر السخاوى[3] في ترجمته أنه أنشأ أمـاكن بالقاهرة وبولاق والصحراء وغيرها، دون أن يعدد نوعية هذه الأماكن؛ ولعل مـن أشهر تلك الأماكن التي أنشأها شرف الدين الأنصارى قصره ببولاق، الذي أطلـق عليه ابن ظهيرة اسم القصر الشرقى ولعل أصل هذه التسمية يرجع إلى موقع هـذا القصر، وإنه كان يقع في شرقى بولاق. وذكر الصيرفى[4] بيت القاضـى شـرف الدين التتائى الأنصارى في حوادث المحرم من عـام ٨٧٤هـ/١٤٦٩م دون أن يحدد موقعه، وعاد وذكر في حوادث صفر من نفس العام أن الـسلطان الأشـرف إينال غضب عليه، وخرَّج وظائفه وباع أملاكه ببولاق، ولكنها أعيدت إليه بعد ذلك في دولة خشقدم، ومما يؤكد أنه كان لشرف الدين الأنصارى قصراً ببولاق ما ذكره ابن إياس صراحة في حوادث ربيع الآخر سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٥م من أن الـسلطان قايتباى توجه إلى بولاق، ونزل في بيت شرف الدين الأنصارى الـذي ببـولاق، فاستضافه الأنصارى هناك ضيافة حافلة، وكان الأنصارى قد أنشأ غرابـاً تحـت داره، فركبه السلطان، وتوجه إلى شبرا[5].

---

(١) هو موسى بن على بن محمد الشرف التتائى القاهرى الشافعى، ويعرف بالأنصارى، ولد في عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م بتتا قرية بالمنوفية، ونشأ بها، ثم قدم إلى القاهرة معه إخوته وأبـيهم، واشتغل بالعلم مدة بالجامع الأزهر، تولى نظر الجوالى والكـسوة والبيمارسـتان والخانقـاة السعيدية وجامع عمرو ووكالة بيت المال وغيرها، واستمر في تزايد من الترقى حتى تـولى إينال عرش السلطنة، حيث صرف عن عدة مناصب بعضها برغبته، وأقام في أخريات أيامه بمكة، ومات بها في صفر من سنة ٨٨١هـ/١٤٧٦م. لمزيد من التفاصيل انظر الـسخاوى، الضوء اللامع، م٥، ج١٠، ص ١٨٤-١٨٦.

(٢) الفضائل الباهرة، ص ٢٠٣.

(٣) السخاوى، الضوء اللامع، م٥، ج١٠، ص ١٨٥.

(٤) أنباء الهصر، ص ١٢١، ص ١٣٣.

(٥) بدائع الزهور، ج٣، ص١٠٨؛ وانظر أيضاً عبد الرحمن عبد التواب، قايتباى المحمودى، ص٧٢.

القصور الطنبدية والخاجية (السُبكية) :

تنسب هذه القصور إلى على بن محمد النور بن الجلال الطنبدى المصرى[1]. كان من أعيان التجار بالكارم، بل انتهت إليه رئاسة التجار بالديار المصرية، وذكره السخاوى فقال " هو صاحب القاعدة المطلة على البحر بالقرابيص داخل درب السبكية المعروفة بالطنبدية"[2]. وذكر الصيرفى "... أنه ترك بعده آثاراً هامة منها القاعة المطلة على البحر وتعرف بالطنبدية"[3]. أما ابن إياس فذكر صراحة "هو الذي أنشأ البيت الذي ببولاق وقد عرف به"[4].

يتضح من روايات المؤرخين أن قصر الطنبدية عرف كذلك باسم السبكية نسبة إلى موقعه داخل هذا الدرب، ورغم وفاة على الطنبدى في ١٤ صفر ٨٣٦هـ/ سبتمبر ١٤٣٢م إلا أن هذا القصر ظل محتفظاً باسمه.

أقامت خوند زينب زوجة السلطان إينال في قصر الطنبدية في أخريات أيامها حتى وافتها المنية في عهد الأشرف قايتباى، فيذكر السخاوى "ماتت... بمحل تمريضها وهو بيت الطنبدى بالقرابيص من بولاق.. وكانت قد قاربت الثمانين من عمرها "[5]. وقد يتساءل المرء لماذا لم تقض خوند زينب بقية حياتها في بيتها ببولاق الذي غالباً ما كانت تنزله عندما يهاجمها المرض ؟ مما لا شك فيه أن وفاة زوجها الأشرف إينال ٨٦٥هـ/١٤٦١م قد أثرت على وضعها تأثيراً كبيراً،

---

(١) انظر ترجمته في السخاوى، الضوء اللامع، م٣، ج٦، ص ٣٠؛ وطنبدة من أعمال البهنسا من صعيد مصر، وهى اليوم تتبع مركز مغاغة، انظر ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج٦، ص٦١.

(٢) السخاوى، الضوء، م٣، ج٦، ص ٣٠.

(٣) نزهة النفوس، ج٣، ص ٢٦٧.

(٤) بدائع الزهور، ج٢، ص ١٤٤.

(٥) الضوء اللامع، ج١٢، ص ٤٥. وتجدر الإشارة إلى أن السخاوى حدد يوم وفاتها في ١٣ جمادى الأولى وترك السنة بياض.

وصودرت أموالها وأملاكها في عهد سلفه الظاهر خشقدم (٨٦٥-٨٧٢هـ/١٤٦١-١٤٦٧م)؛ ولعل من بين ما صودر من أملاكها قصرها في بولاق، لذلك نزلت في قصر الطنبدى.

ويذكر ابن إياس[1] في حوادث جمادى الآخرة ٩١٧هـ/١٥١١م أن الأمير خاير بك الخازندار[2] دعا السلطان الغورى إلى قاعة أو قصر السُبكية الذي ببولاق، فلبى السلطان الدعوة وذهب إليه، فمد له خاير بك مدة حافلة بعد أن كشف المراكب، واطمئن على سير العمل فيها، وأقام بها حتى بعد العصر. ويظهر من رواية ابن إياس هذه أن قصر السبكية غدا ملكاً للأمير خاير بك الخازندار.

وعندما مرض الأمير خاير بك الخازندار، وكان مقيم في البيت المعروف بالسُبكية كما يذكر ابن إياس[3]، نزل السلطان الغورى من المقياس في الحراقة، وتوجه إلى بولاق لزيارته، وطلع السلطان عنده، وأعاده، فمد له خاير بك هناك مدة حافلة فأكل منها، ثم ركب من هناك وعاد إلى القلعة. وفى ذى القعدة من عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م توجه السلطان الغورى إلى بولاق، ونزل في قصر السبكية، وبات به، ثم خرج من هناك قاصداً الإسكندرية، وعند عودته منها، نزل في السبكية ببولاق، وتناول طعام الغداء بها، وأقام بها إلى الظهر ثم ركب من بولاق إلى الوطاق بالريدانية[4]. مما يوحى بانتقال ملكية هذا القصر إلى السلطان الغوري.

---

(١) بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٣٨.

(٢) كان أحد الأمراء المقدمين، وصهر السلطان الغورى، زوج أخته، وعندما ملك الغورى، أنعم عليه بأمرة عشرة، ثم عين خازنداراً كبيراً، ثم أمين للسلطان على الأمراء والقضاة. انظر محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ج١، ص ٢٢٧.

(٣) بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٧٣-٢٧٤.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٤١٤، ٤١٦، ٤١٧، ٤٢٣؛ والوطاق هو الخيمة الكبيرة المعدة للعظماء. انظر ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص ٧، حاشية (١)؛ أما الريدانية فكانت خارج القاهرة، وكانت عبارة عن بستان ينسب إلى ريدان الصقلى، كان السلطان ينزل فيها بموكبه أو بالتجاريد العسكرية. انظر ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٦، ص ٨٢؛ حاشية (١).

وأحاطت بالقصور والمناظر التي أقيمت على شاطئ النيل ببولاق مجموعات كبيرة من الدور والمنازل فيذكر ابن تغرى بردى في حوادث عام ٨٢٢هـ/١٤١٩م أن السلطان المؤيد شيخ عندما أقام في بولاق من جمادى الأولى حتى رجب من هذه السنة، نزل الأمراء المصاحبين له في الدور التي حول دار أو قصر ابن البارزى[١]. وفى الحريق الهائل الذي تعرضت له بولاق في ٦ من رجب سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٧م[٢]. يذكر ابن إياس[٣] أنه احترق فيه نحو من ثلثمائة دار، ويذكر أيضاً أن النار أقامت تعمل في البيوت نحواً من أسبوع، مما يدل على كثرة الدور التي احتوتها بولاق في ذلك الحين، خاصة إذا وضع في الاعتبار أن هناك الكثير من الدور قد نجت من النار والحريق.

وعندما صارت بولاق منطقة جذب لكثيرين وذلك في مرحلة نموها واتساعها اجتذبت الكثير من العلماء والقضاة والمشايخ للإقامة فيها وامتلاك منازل بها، للإقامة الدائمة وليس مجرد الترويح عن النفس والاستجمام والراحة. ومن العلماء الذين امتلكوا منازل ببولاق أحمد بن عبيد بن محمد بن أحمد الشهاب السجينى[٤]. ثم القاهرى الأزهرى الشافعي، ولد بسجين في عام ٨١٦هـ/١٤١٣م، ثم تحول إلى القاهرة بصحبة جده لأمه سنة ٨٣٦هـ/١٤٣٢م، وقطن الأزهر، واشتغل في الفقه والعربية والفرائض والحساب والمساحة والجبر والمقابلة والهندسة والميقات وسائر فنونه التي انفرد بها. وقد امتلك منزلاً ببولاق، وكان يجلس فيه مع بعض الشهود من طلبته، وكذلك مع آخرين[٥].

---

(١) النجوم الزاهرة، ج١٤، ص ٨٤-٨٥.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن هذا الحريق انظر ما يلي: ص٨٥ وما يليها

(٣) بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٤٧.

(٤) نسبة إلى سجين المجاورة لمحله أبى الهيثم من الغربية؛ السخاوى، الضوء، م١، ج١، ص٣٧٦.

(٥) السخاوى، الضوء اللامع، م١، ج١، ص ٣٧٦-٣٧٧.

وسكن بولاق من العلماء أيضاً كل من محمد بن سليمان بن أحمد الشمس البرنكيمى الأصل القاهرى الحنفى، وهو أحد نواب الحنفية بمجلس الواجهة من بولاق، وقد سكن بولاق، وأخذ في الفقه عن الزين قاسم حين سكنه ببولاق(١). وإبراهيم بن على بن على الجمال القلقشندى الأصل القاهرى المولد والدار الشافعى، تولى عدة وظائف منها مشيخة الدوادارية، وخزانة الكتب الأشرفية برسباى، وتدريس الحديث بجامع طولون وغيرها، وسكن بولاق في أيام ولاية جاره الزينى زكريا(٢).

قطن بولاق عدد من المشايخ وأقاموا في منازل بها، وانتفع بهم أهلها ومن هؤلاء المشايخ عبد اللطيف بن على الزينى الشارمساحى ثم القاهرى الأزهرى الشافعى، قطن الأزهر في بداية الأمر، وإذن له بالتدريس والإفتاء، وناب في القضاء عن البلقينى ومن بعده وتحول إلى بولاق – كما يذكر السخاوى – فسكنها، وانتفع به أهل تلك الخطة تدريسا وإفتاء حتى مات في جمادى الأولى سنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣م في داره ببولاق، وصلى عليه بجامع الخطيرى(٣).

وأقام الشيخ محمد بن على بن صلاح المناوى كذلك ببولاق، وتربى في داره ببولاق ابن أخته حسن بن على بن عبد الرحمن المناوى، وحفظ عنده القرآن والعمدة والمنهاج، وألفية النحو، وقرأ على كثير من العلماء ولازمهم، وكان ممن باشروا حسبة بولاق(٤).

سكن بولاق العديد من القضاة ومن هؤلاء أبو بكر بن على بن محمد التقى الحلبى نزيل القاهرة، وقد تولى قضاء الحنفية بالديار المصرية، ثم اعتزل القضاء

---

(١) السخاوى، الضوء اللامع، م٤، ج٧، ص ٢٥٧؛ ترجمة ٦٤٧.
(٢) السخاوى، الضوء اللامع، م١، ج١، ص ٧٧–٧٨.
(٣) السخاوى، الضوء اللامع، م٢، ج٤، ص ٣٣١، ترجمة ٩١٦.
(٤) السخاوى، الضوء اللامع، م٢، ج٣، ص ١٠٩.

واشتغل بالتجارة وسكن بولاق زمناً طويلاً في سعة من المآكل وتكـرم بالإطعـام ونحوه لمن يرد عليه في منزله ببولاق حتى توفى عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م كما يذكر السخاوى[١].

روعى عند بناء المنازل في بولاق عدم التعدى على حقوق الجيران وإيـذائهم بالبناء، فقد أراد قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى أن يبرز ببيت له في البحر، ويلزم من بروزه، أن يسد باب الهواء الطيب، وهو الشمالى، على من في بيت عبـد الرحيم بن البارزى، وساعده على ذلك زوجته وابنها ناظر الجيش الزينى أبو بكر بن مزهر، وتعللوا في ذلك بأن ابن البازرى كان برز على بيتهم في الجانب الجنـوبى، فقلق من ذلك ابن البارزى، وعرض الأمر على السلطان، فطلب منه الأخير أن يحكم بينهما قاضى الحنفية السعد بن الديرى، وأن يكون الأمر بحـضرته، فأجابـه ابـن البارزى إلى ذلك، واجتمع الجميع يوم الاثنين ١٣ من رجب سنة ٨٦٥هـ/١٤٦٠م، وانتهوا إلى الحكم بأن يستمر بناء ابن البارزى على حاله، والتزم ابن مزهر بحـث القاضى علم الدين على ألا يقع بروز منه؛ فوافقوا على ذلك[٢].

توضح هذه القضية الحرص على عدم التعدى على حقوق الجيران بحجـب الهواء عنهم وذلك بتعلية البناء عليهم، فمن حقوق الجار التـي أقرتهـا الـشريعة الإسلامية عدم الاستطالة عليه بالبناء وحجب الهواء والضوء عنه، وقد انتهت هذه القضية إلى تطبيق ما تقرره الشريعة الإسلامية.

وكان للفقراء والطبقات الشعبية والحرفيين والصناع نصيب كبير في سـكنى بولاق، فقد سكن الصناع والحرفيين منهم الرباع[٣]، وقد كان عددها في بولاق كبير جداً. اتضح ذلك من القائمة التي أوردها ابن تغرى بردى بالرباع التي احترقت في

---

(١) الضوء اللامع، م٦، ج١١، ص ٥٧.

(٢) البقاعى، تاريخه، ق ٣، ص ٢٥٢-٢٥٣.

(٣) عن الرباع انظر ما يلي، ص٨٥ وما يليها.

عام ٨٦٢هـ/١٤٥٧م والتي تزيد على حد قوله عن الثلاثين أو الأربعين ربعاً، وكل ربع يشتمل على مائة سكن أو أكثر، مما يدل على ضخامة عدد التجار والحرفيين الذين أقاموا ببولاق وسكنوها(١). وقد وجدت في كتب التراجم بعض أسماء لمن سكنوا بولاق من الطبقات الشعبية، التي مارست العديد من الحرف والصناعات، ومن هؤلاء محمد بن محمد بن عبد الرحمن الشريف الحباك، والمولود في بولاق عام ٨٢٨هـ/١٤٢٤م وقد اتخذ من الحبك حرفة له، والتقى به السخاوي في القاهرة وأنشده قوله.

قمر له طرفي وقلبي منزل   ما باله عني يصد ويأفل

وقال له أيضاً حين ودعه:

يا من يروم الرحيل عنا   آمنك الله في ارتحالك
كان لك الله خير واق   سلمك الله في المسالك(٢).

أما الفقراء فقد أقاموا في أخصاص أو عشش أو أكواخ تناثرت على طول طريق النيل أو في الطريق إليه، وقد كثر عددها لدرجة حالت دون الوصول إلى شاطئ النيل. لذلك أمر السلطان إينال – كما سبق أن ذكرنا – بهدم الأخصاص وبعض البيوت التي ضيقت الطريق على سالكيه(٣).

حمامات بولاق في العصر المملوكي الجركسي :

الحمامات من المنشآت الاجتماعية المهمة التي يقصدها الناس من مختلف الطبقات، رجالاً ونساءاً، للاستحمام والنظافة، ذلك لأن الناس لم يألفوا في ذلك العصر الاستحمام في منازلهم، ولم توجد الحمامات إلا في قصور الأمراء. وقد

---

(١) منتخبات من حوادث الدهور، ج٢، ص ٣١٤-٣١٥؛ وانظر أيضاً أندريه ريمون، القاهرة، ص١٦٩.

(٢) السخاوي، الضوء اللامع، م٥، ج٩، ص ٢٢٧؛ وانظر أيضاً، محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، القاهرة ١٩٩٩م، ص ٨٦، ص١١٨.

(٣) انظر ما سبق ص

عرفت بولاق حمامات القصور والمناظر وكذلك الحمامات العامة.

أما عن النوع الأول فأشهر حماماته في بولاق حمام قصر البرابخية، وحمام قصر الحجازية المعروف بالقطينية. فقد احتوى قصر البرابخية على حمام وقد انتقلت ملكيته مع القصر إلى السلطان الغورى إذ جاء في وثيقة وقفه رقم ٨٨٣، وصف لهذا الحمام على النحو التالي: "... ويدخل من الباب الثاني إلى حمام مفروشة بالرخام، تشتمل على مسلخ[١]. وبيت أول[٢]، وبيت حرارة[٣] به أحواض وخلاوى، والمسلخ المذكور به فسقية وعمود رخام[٤].

واشتمل قصر الحجازية المعروف بالقطينية، والذى آلت ملكيته لخوند زينب أبنة علاء الدين على زوجة السلطان إينال – اشتمل على حمام كذلك إذ يذكر ابن تغرى بردى أن خوند زينب لما عوفيت من مرض أصابها، دخلت الحمام، حمام دارها ببولاق، وكانت قد نزلت من القلعة، وأقامت في دارها هذه حتى عوفيت، وقد نزل معها ولدها المقام الشهابى أحمد وأخوته: وذلك في ربيع الآخر سنة

(١) المسلخ يمثل قاعة الاستقبال في الحمام، وهى قاعة عادة فخمة ذات مساطب وإيوانات، ويتوسطه فسقية مخصصة للماء البارد، ويسقف بقبو أما من الطوب أو الجمالون أو سقف مسطح من الخشب. محمد محمد أمين وليلى على إبراهيم، المصطلحات المعمارية، ص ٣٧.

(٢) بيت أول معتدل الحرارة وهو عبارة عن إيوان واحد ويشتمل عادة على حوضين أو ثلاثة أحواض أحداها للماء البارد والآخر للماء الحار، أما الثالث إذا وجد فيكون مخصصاً للوضوء، وتفرش أرضه بالرخام. محمد محمد أمين وليلى على إبراهيم، المصطلحات المعمارية، ص ٣٧.

(٣) بيت الحرارة هو أهم أقسام الحمام به عادة أربعة إيوانات أو أربعة أحواض، به أبواب تؤدى إلى خلاوى صغيرة بكل منها حوض أو حوضين، وقد يكون بواسطه فسقية أي صحن للماء البارد، وسقفه غالباً قبو بجامات زجاج. محمد محمد أمين وليلى على إبراهيم، المصطلحات المعمارية، ص٣٧.

(٤) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات تاريخية وأثرية في وثائق عصر الغورى، المجلد الثاني، ص٣٠، وانظر أيضاً سامى أحمد عبد الحليم، الأمير يشبك من مهدى وأعماله المعمارية، ص٢٢٤-٢٢٥.

٨٥٩هـ/١٤٥٤م[1].

عرفت بولاق عدداً كبيراً من الحمامات العامة يأتى في مقدمتها (حمام الخطيرى) أنشأه الأمير عز الدين أيدمر الخطيرى، صاحب الجامع المعروف باسمه في بولاق، في نفس الوقت الذي بنى فيه جامعه أي حوالى سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م وبالقرب منه، لذلك هو من أقدم حمامات بولاق، وصار من جملة أوقاف السلطان قانصوه الغورى، وكان حماماً كبيراً يدخله الرجال والنساء[2].

وأنشأ ابن البارزى حماماً قرب داره ببولاق، وحدد ابن تغرى بردى موقع هذا الحمام فذكر أنه كان بالقرب من فندق الأرز[3]. وتذكر المصادر في حوادث سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م أن السلطان المؤيد شيخ المحمودى بعد عودته من السرحة في هذا العام أتى إلى بولاق، ودخل الحمام التي أنشأها ابن البارزى قرب داره هناك في بولاق[4].

ويعد (حمام الطنبدى) المنسوب إلى تاجر الكارم الشهير نور الدين الطنبدى من جملة حمامات بولاق العامة، وكان يقع بالقرب من المدرسة الجيعانية ومن قصر البرابخية وقد آلت ملكيته في آواخر عصر سلاطين المماليك إلى السلطان الغورى كما اتضح من وثيقة وقفه رقم ٨٨٣[5].

---

(١) حوادث الدهور، ج١، ص ٤٤٩؛ انظر ما يلي في الفصل الرابع.

(٢) على مبارك، الخطط التوفيقية لمصر القاهرة، ج٦، القاهرة ١٩٨٧م، ص ١٩٤، وعن وصف هذا الحمام انظر: Pauty, Les Hammams du Caire, IFAO, 1933, p. 61.
وعن تخطيطه المعمارى انظر: Nelly Hanna, An Urban History of Būlāq, p. 46.
عادل شحاته طايع، حى بولاق، ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٣) منتخبات من حوادث الدهور، ج٢، ص ٣١٣.

(٤) عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، ج٤، ص ٤٤٩؛ ابن إياس، جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك، تحقيق محمد زينهم، القاهرة ٢٠٠٦، ص ٣٣٧، بدائع الزهور، ج٢، ص ١٠.

(٥) نشر عبد اللطيف إبراهيم، دراسات، م٢، ص ٣٠؛ سامى أحمد، الأمير يشبك، ص ٢٢٦.

وعمر زين الدين الاستادار كذلك حماماً عظيماً ببولاق إلى جانب جامعه الشهير بها كما تذكر المصادر[1]، وفى ربيع الأول سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م دخل السلطان سليم العثمانى إلى حمام الاستادار ببولاق، ولما خرج من الحمام أنعم على الحمامى في ذلك اليوم بعشرين ديناراً، وأعجبه حمام بولاق وشكر فيها[2]. وقد كان هذا الحمام يعرف بحمام الاستادارية[3]. ويبدو أن ملكية هذا الحمام قد آلت إلى الأمير يشبك من مهدى إذ تذكر سجلات محكمة بولاق أن الحمام الواقع بخط الاستادارية قريباً من جامع الزينى (زين الدين الاستادار) كان جارياً في وقف السيفى يشبك من مهدى أمير سلاح داودار كبير في سنة ١٠١٨هـ/١٦٠٩م، وأنها اشتملت إجمالاً على مسلخ وبيت أول حرارة ذات مغاطس وأحواض، ومستوقد منسوب إليها، احتوى على دبكونية وقدور وشونة وبناء البئر الماء المعين، وساقيتين خشب مركبتين على نوهتها، والدسوت والأقصاب الرصاص ومنافع ومرافق وحقوق. وكانت هذه الحمام تخدم أهل سوق الاستادارية[4].

وأشارت العديد من الوثائق[5] إلى وجود حمام على مقربة من جامع

---

(١) السخاوى، الضوء اللامع، م٥، ج١٠، ص ٢٣٤؛ الصيرفى، أنباء الهصر، ص ١٧٤.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ١٧٨؛ وانظر أيضاً سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص١٠٥.

(٣) Nelly Hanna, An Urban, p. 46.

(٤) نقلاً عن عادل شحاته طايع، حى بولاق، ص ١٨٨، ٢٣٣-٢٣٤، وعن سوق الاستادارية انظر ما يلي عند الحديث عن الأسواق.

(٥) وهى وثائق (بيع) رقم ٥٣٦ ج أوقاف، وثيقة رقم ٣٩٦ ج أوقاف، وثيقة شراء باسم زين الدين بن نور الدين على رقم ٢١٧ وزارة الأوقاف (أوقاف جديدة) ومؤرخة بسنة ٨٧٤هـ، وقد قامت سعاد محمد حسن حسين بنشر ما يتعلق بهذا الحمام في رسالتها تحت عنوان "الحمامات في مصر الإسلامية"، آثار القاهرة ١٩٨٣م، ص ٣٧١-٣٧٣؛ ونشرها أيضًا عادل شحاته، حى بولاق، ص٢٣٤-٢٣٥، هامش (٧)؛ ثم ظهر وثيقة وقف السلطان الغورى رقم ٨٨٣ التي نشرها عبد اللطيف إبراهيم، دراسات تاريخية، م٢، وفى بحثه " الوثائق في خدمة الآثار "، منشور في دراسات في الآثار الإسلامية، القاهرة ١٩٧٩م، ص٤٥٨-٤٥٩.

الخطيرى، وآخر هذه الوثائق وهى وثيقة وقف السلطان الغورى مما يدل علـــى أن آخر من امتلك هذه الحمام في العصر المملوكي الجركسي هو السلطان الغورى، فقد ورد بهامش الوثيقة رقم ٢١٧ شراء (أوقاف جديدة – وزارة الأوقـــاف) أن هـــذه الحمام انتقلت ملكيتها إلى السلطان الغورى في عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م، وهى مؤرخة بعام ٨٧٤هـ/١٤٦٩م. ولعل هذه الحمام هي عينها حمام الخطيرى التـــي بنيـــت ٧٣٧هـ/١٣٣٧م ولكن انتقلت ملكيتها من شخص لآخر حتى آلت إلـــى الـــسلطان الغورى، فقد اتضح من الوثائق أن هذه الحمام امتلكها الجمال جمال الدين عبـــد الله ابن السيفى بهادر وذلك في جمادى سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، ثم انتقلت إلى الزينـــى عبد الرحمن بن الزينى السيفى بردار الأتيمشى كما جاء فـــي وثيقـــة رقـــم ٥٣٦ (أوقاف جديدة) ثم انتقلت ملكية الحمام بعد ذلك بالشراء إلى زين الدين بـــن نـــور الدين على (وثيقة شراء رقم ٢١٧ أوقاف جديدة) في عام ٨٧٤هـ/١٤٦٩م. وأخيراً آلت ملكية هذا الحمام إلى السلطان الغورى كما جاء في وثائق أوقافه.

وكانت هذه الحمام معدة لدخول الرجال، وملحق بها على ما يبدو حمام أخرى معدة للنساء، وأحياناً كانت الحمام تعد لدخول الرجال والنساء كل في وقت محـــدد ومعين له، وقد جرت العادة على بناء حمام النساء منفصلة عن حمام الرجال فـــي مكان واحد كما يذكر المقريزى[1].

أما عن وصف هذه الحمام كما جاء في ظهر وثيقة وقـــف الغـــورى رقـــم ٨٨٣[2] فهو: "... وجميع الحمام والمخازن والطباق المستجدة علو ذلـــك المعـــدة الحمام المذكورة لدخول الرجال الآتى وصف ذلك وتحديده فيه الكاين ذلك ظـــاهر القاهرة المحروسة خارج باب البحر ببولاق بالقرب من جامع الخطيرى على يمين السالك منه طالباً لسوق القلقاس... وعلى يسرة السالك طالباً الجامع، المشتمل كامل

---

(١) المقريزى، المواعظ، ج٢، ص ٨٠ وما يليها.

(٢) عبد اللطيف ابراهيم، الوثائق في خدمة الآثار، ص ٤٥٨-٤٥٩.

ذلك على واجهة مبنية بالحجر الفص النحيت يعلوها روشن[1] منصوب على أضلاع بالواجهة المذكورة ستة أبواب، أحدها باب الحمام المذكورة مقنطر يغلق عليه فردة باب يدخل منه إلى دهليز لطيف بصدره مسطبة، يدخل من الدهليز المذكور إلى مجاز به على يمنة الداخل باب يدخل منه إلى كرسي مرحاض، ويدخل من المجاز المذكور إلى مسلخ الحمام المذكورة يحوى ثلاثة أواوين وأربعة مقاطع، بوسط المسلخ المذكور فسقية عليها أربعة أعمدة رخاماً لطيفة حاملة لقبة خشب تعلو الفسقية المذكورة، وبالمسلخ حوضان رخاماً أحدهما يجاور الفسقية والثاني يجاور باب مقنطر يدخل منه إلى بيت أول به حوضان أحدهما حجراً كدانا والثاني مبنى بالطوب معقود على كل عقد بالطوب الأجر والجبس، به بيوت جامات زجاجاً ويتوصل من بيت أول المذكور إلى باب يدخل منه إلى بيت الحرارة المشتمل على أربعة أحواض دايرة وجرن وثلاثة خلاوى أحدها مغطس وطهرين معقود ذلك بالطوب بجامات زجاج ملون مفروش بعض أرض ذلك بالرخام، وبالمسلخ المذكور أعلاه سلم يصعد من عليه إلى الأسطح العالية على ذلك حيث بيت النار والقدور المعدة للحمام... ويتوصل من الباب المقنطر... إلى مستوقد الحمام المذكورة... ويجاور ذلك من الجهة الشرقية زلاقة[2] يتوصل منها إلى بير ماء معين مركب على فوهتها ساقية خشب كاملة العدة والآلة صالحة للإدارة...".

يتضح مما سبق أن الحمام كانت تشتمل على مسلخ مرخم، وبيت أول به حوضان، وبيت حرارة به أربعة أحواض، وجرن، وخلوة، ومغطس مفروش ذلك

---

(١) روشن: بمعنى الكوة أو النافذة أو الشرفة وهى من الفارسية: روزن، ويقصد بها في العصر المملوكى الخرجات التي تستخدم للبروز بالعمارة، وتطل على الشارع وواجهة الدخول. محمد محمد أمين وليلى على أبراهيم، المصطلحات المعمارية، ص ٥٨.

(٢) يستخدم لفظ الزلاقة في العمارة المملوكية للدلالة على طريق يرتفع بدون درج للوصول إلى مكان مرتفع وغالباً يكون للدواب للصعود إلى مدار الساقية أو حول البئر.

بالرخام، معقود ومطبق بجامات من الزجاج الملون، وتوجد بدهليز الحمام المتوصل إليه من الباب – زلاقة موصلة للبير والساقية المعدين لذلك، وسلم يتوصل منه للرواق به منافع وحقوق مطل على الطريق... كما أن بها أي بالحمام باب يتوصل منه لمستوقد الحمام وما لذلك من المنافع والمرافق والحقوق[1].

وللحمامات أهمية كبيرة في العصر المملوكى إذ لم يقتصر دورها على أنها مكان لنظافة البدن والاغتسال والاستحمام فحسب، بل كانت مركزاً اجتماعياً، فالمريض إذا دخل الحمام اعتبر ذلك إعلاناً لشفائه مثلما حدث للخوند زينب زوجة إينال، التي مرضت فنزلت بقصرها القطينية في بولاق، وكان أن عوفيت، ودخلت حمام دارها أو قصرها، فكان ذلك علامة على شفائها، واحتفل بذلك احتفالاً عظيماً، وأحرقوا في بولاق حراقة[2] نفط حافلة بتلك المناسبة، وتردد عليها أعيان الدولة من الأمراء والقضاة والأكابر للتهنئة، وجمع عند بابها أرباب الزمور والطبول والملاهي[3]. وسرعان ما تركت خوند زينب قصرها في بولاق (جمادى الأولى ٨٥٩هـ/١٤٥٤م) وعادت إلى القلعة ثانية، وسار أمام محفتها ولدها المقام الشهابى أحمد وازواج بناتها وجماعة من الطواشية والخدم والمماليك، وبين يدى المحفة المشاعل والشموع والفوانيس، وخلف المحفة من الحريم عدد كثير من الخوندات ونساء الأمراء، وسارت في أبهة عظيمة حتى صعدت إلى القلعة، وذلك كله احتفالاً

---

(١) سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٠٥-١٠٦.

(٢) عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، ج٥، ص ٤٣٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٢٤؛ سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٤٤.

(٣) الحراقة جمعها حراريق وحرارق وهى نوع من السفن الحربية الخفيفة، كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو، وكان في مصر نوع آخر من الحراقات استخدم في النيل لحمل الأمراء ورجال الدولة في الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية، وهى المعروفة بالحراقة السلطانية. انظر لمزيد من التفاصيل، درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص ٣٢-٣٧؛ محمد قنديل البقلى، التعريف، ص ١٠٤.

بشفائها[1].

وكان على العريس والعروس أن يدخل كل منهما الحمام قبل حفل الزفـــاف، ويعتبر هذا الحادث عيداً من الأعياد العائلية الرائعة. واعتادت النساء من الأســـرة الواحدة أو من الحي الواحد أن يذهبن إلى الحمام في موعد يتفقن عليه، وفى ساحة الحمام تجلس النساء، وتتناقل الأخبار عن حياتهن العائلية والأسرية، وفى بعـــض الأحيان تتحول الحمام إلى حلبة لعرض الجمال، لذلك اعتاد الرجال الذين رغبوا في الزواج على إرسال نساء تخصصن في الوصف والتعريف إلى الحمامات[2]. ومن ثم فإن الحمامات كانت تلعب دوراً مهماً في حياة الناس الاجتماعية في ذلك العصر.

سبيل بـــولاق :

أما عن الأسبلة فلم تشر المصادر إلى وجود أســـبلة ببـــولاق فـــي العـــصر المملوكى اللهم إلا السبيل الذي أنشأته سورباى الجركسية، حظية السلطان جقمـــق المقربة إليه، وقد اشتهرت لدرجة أنها كانت تلقب بـــ "خوند" من كثرة حظوتها عند السلطان، وتذكر المصادر[3] أنها صاحبة السبيل وما يعلوه ببولاق تجـــاه الزينيـــة. وذكر البقاعى[4] فيما أورده من تفاصيل الحريق الهائل الذي تعرضت له بولاق في رجب من عام ٨٦٢هـــ/١٤٥٧م أن النار لم تحرق السبيل الذي يسقى منه الـــسبيل ولعله يقصد هنا سبيل سورباى الجركسية إذ تصمت المصادر عن ذكر أسبلة أخرى غيره في بولاق، ورغم وفاة سورباى في عام ٨٥٢هـــ/١٤٤٨م إلا أن هذا السبيل ظل يحمل اسمها.

---

(١) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج١، ص ٤٥١؛ الـــسخاوى، الـــضوء اللامـــع، ج١٢، ص٤٥.

(٢) سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٠٧.

(٣) السخاوى، الضوء اللامع، ج١٢، ص ٦٦؛ عبد الباسط، نيل الأمل في ذيل الدول، ج٥، ص ٢٥٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٢٦٣.

(٤) تاريخه، ج٢، ص ٣٦٠.

مغسل الموتى والجبانة :

احتوت بولاق كذلك على بعض مغاسل الموتى، ومن أهمها مغسل الأمير زين الدين الاستادار، وهو من المغاسل التي أنشأها الأمراء، واوقفوا عليها الأوقاف، ويقع هذا المغسل ببولاق، وأنشئ في سنة ٨٨١هـ/١٤٧٦م، ونودى في بولاق أن من كان عنده ميت، وعجز عن تكفينه، فليحمله إلى مغسل الأمير زين الدين الأستادار[١]. والمغسل عبارة عن عمارة كبيرة، تنقسم إلى قسمين أحدهما للرجال والآخر للنساء، وكان المغسل مسقوف بطريقة العقود أي الأقبية، إلى جانب وجود غرف على جانبى الممر الأوسط بين الأيوانيين، توضع بداخلها جثث الموتى، حيث تتم عملية التغسيل بداخل هذه الغرف الصغيرة، كما تمثل مخازن لحفظ محتويات المغسل، والأدوات المستخدمة في تجهيز الموتى من توابيت وسحالى خشب. وقد جاء في إحدى وثائق سجلات محكمة بولاق أن عددتها كانت أربع وأربعين منها تسع بالحانوت (المغسل) بخط الاستادارية وخمس وثلاثين بالحاصل فضلاً عما بها من فرش وغطاء قماش عدتهم ثمانية قطع[٢]. كما يشتمل المغسل على مصلى به ميضاة بها فسقية لتجميع المياه، فضلاً عن حوض لسقى دواب المشيعين، كما يضم المغسل سبيلاً برسم تسبيل المياه[٣].

وكان لبولاق جبانة أيضاً لدفن موتى سكانها، جاء ذكرها في الحريق الذي تعرضت له بولاق في عام ٨٦٢هـ/١٤٥٧م حيث ذكر عبد الباسط بن خليل[٤] إن

---

(١) عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، ج٢، ص ١٧٠؛ وانظر أيضاً. نجوى كامل كيرة، مغاسل الموتى في القاهرة في العصر المملوكى، ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م، ص ١٤.

(٢) نقلاً عن عادل طايع، حى بولاق، ص ١٨٨.

(٣) سعيد عاشور، " الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية "، بحث منشور في كتاب تاريخ الإسلام وحضارته، القاهرة ١٩٨٧م، ص ٢٣٥-٢٣٦؛ نجوى كيرة، مغاسل، ص ١٨.

(٤) نيل الأمل، ج٦، ص ٣٩.

هذا الحريق امتد من الاستادارية، يقصد مدرسة وجامع زين الدين الاستادار[١]. وحتى قريب البوصة جبانة بولاق. كذلك ذكر ابن تغرى بردى[٢] خط البوصة التي هي محل دفن أموات أهل بولاق. أما ابن إياس فقد حدد موقعها بقوله "وتقع خلف بولاق"[٣].

المنشآت التجارية :

عرفت بولاق في عصر سلاطين المماليك الجراكسة العديد من المنشآت التجارية وأهمها الأسواق، الرباع، الوكالات، الفنادق والقياسر. أما عن الأسواق فهى من المنشآت التجارية المهمة التي تمارس فيها مختلف عمليات البيع والشراء، وهى جزء حيوى ومهم في أي مدينة من المدن أو حى من الأحياء أو ضاحية من الضواحى، وعندما ظهرت بولاق نصب فيها سوق كبير يباع فيه أكثر ما يطلب من المآكل والمشارب[٤]. والحق يقال أن أسواق بولاق كانت عامرة بكل ألوان الطعام والشراب وذلك بشهادة الكثير من الرحالة، الذين كانوا ينزلون بها، وهم في طريقهم إلى الإسكندرية أو إلى رشيد أو إلى دمياط، فقد كانت سائر سفن الرحالة تقلع من بولاق إلى تلك الجهات، وكان هؤلاء الرحالة يشترون من أسواقها كل ما يحتاجون إليه من طعام وشراب في رحلتهم، دون أن ينزلوا أو يتوقفوا في الطريق في أي بلد آخر لشراء حاجياتهم منه. فقد حدث عندما وصلت سفينة الرحالة فيلكس فابرى[٥]. Felix Fabri إلى بولاق أن نزل الرجل ومن معه إلى الحوانيت القريبة من ميناء

---

(١) انظر ما سبق ص٣٨-٣٩.

(٢) النجوم الزاهرة، ج١٦، ص ١٢٠.

(٣) بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٤٧.

(٤) على مبارك، الخطط التوفيقية، ج١، ص ٩٤.

(٥) زار فيلكس فابرى مصر في عام ١٤٨٣م.

بولاق لشراء الطعام اللازم للرحلة قبل الرحيل عنها[1]. وذلك على الرغم من شهادة ابن بطوطة من أن راكب النيل ليس في حاجة إلى استصحاب الزاد معه لأن الأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر[2].

تنوعت أسواق بولاق وذلك لوقوعها على شاطئ النيل وكونها ميناءًا يستقبل السفن القادمة من شمال مصر وجنوبها والمحملة بكافة ألوان الطعام من خضر وفاكهة وماشية وغلال وغيرها، هذا فضلاً عن السفن التجارية التي كانت ترسو بها وهى محملة بسلع الشرق والغرب وبضاعتهما[3]. على أن أسواق الغلال ببولاق كانت من أشهر أسواقها فقد كانت ساحلاً للغلال، ومن ثم أفاضت المصادر في الحديث عن أسواق الغلال ببولاق وأسعار تلك الغلال على نحو ما سنرى[4].

ساهم موقع بولاق على شاطئ النيل أيضاً، في توفير مسطح عريض من المياه يتيح لأهلها فرصة القيام بصيد الأسماك، وقد أشار ابن تغرى بردى في حوادث عام ٨٦٢هـ/ ١٤٥٧م الذي وقع فيه الحريق الهائل ببولاق، إلى "سوق موردة البورى" وأنه راح في هذا الحريق، وكان وقفاً على جامع الواسطى[5]. مما يدل على أنه كانت لأنواع الأسماك المختلفة أسواقا متخصصة في بولاق.

عرفت بولاق لوناً آخر من الأسواق، وهى الأسواق الدينية التي تقام بجوار المساجد والجوامع أو تقام بمناسبة مولد أحد الشيوخ أو العارفين. فعندما وضع أساس جامع الخطيرى واكتمل بناءه، حرص الكثير من الناس على السكنى بجواره،

---

(١) Prescott, Once to Sinai, The Further Pilgrimage of Firar Felix Fabri, London 1957, pp. 175-177, Christophe Harant, Polzic et Bezdruzic, Voyages en Egypte 1598, Le Caire 1972, p. 59-60.

(٢) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، القاهرة بدون تاريخ، ص ٣٢.

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر ما يلي عند الحديث عن ميناء بولاق.

(٤) انظر ما يلي في الحديث عن بولاق ساحل الغلة.

(٥) منتخبات من حوادث الدهور، ج٢، ص ٣١٤.

حتى بلغت الأماكن التي بجواره من الأسواق والدور الغاية في العمارة كما يـذكر المقريزى[1]. ونشطت حركة البيع والشراء في هذه الأسواق بشكل كبير، إذ يتبرك الكثيرون بالشراء منها لمجاورتها لتلك المنشأة الدينية الضخمة.

أقيم سوق حول جامع الزردكاش كذلك، وقد اشتهرت هـذه الـسوق ببيـع القلقاس، وكان يطلق عليها اسم "سوق الخضار أو الخضرة، ويؤرخ لعمـارة هـذا السوق بذات التاريخ الذي بنى فيه جامع الزردكاش (تغرى برمش) الذي يقع علـى ساحل البحر وهو عام (٨٥١هـ/١٤٤٧م). واشتملت سوق الخضرا علـى سـوق للبصل يعرف كذلك بخط خـضرة البـصل، وسـوق الإبـزارين تجـاه جـامع الزردكاش[2]. وحدد عدد من الوثائق موقع سوق القلقاس بأنه كان قريباً من جـامع الخطيرى[3]. وهكذا كانت الأسواق القريبة من الجوامع مراكز تجارية هامة.

وما إن تم الانتهاء من بنـاء جـامع زيـن الـدين الاسـتادار فـي عـام ٨٥٣هـ/١٤٤٩م حتى وضع أساس سوق جديدة عرفت باسم (سوق الاسـتادارية) وسرعان ما ازدهرت هذه السوق، وأصبحت من أكثر الأسواق أهمية وامتداداً حول مربع الجامع الزينى، واشتهرت هذه الـسوق بانتـشار حوانيـت العطـارة بهـا، والحوانيت المعدة للزياتة، وحوانيت بيع الإبزار والفوالين، وحوانيت بيـع اللحـم الضأن، بالإضافة إلى المقاعد المعدة لبيع الخبز بجوار الأفران وغيرها. واحتـوت سوق الاستادارية كذلك على أسواق فرعية صغيرة منها سوق الليمون، وكانت تقع أسفل حائط جامع زين الدين الاستادار من الجهة البحرية، كما أشـارت سـجلات

---

(١) المواعظ، ج٢، ص ٣١٢؛ وانظر ما سبق ص٣٠-٣٥.

(٢) عادل شحاته طايع، حى بولاق، ص ١٨٩.

(٣) وثيقة رقم ٥٣٦، ج أوقاف، وثيقة رقم ٣٩٦ ج أوقاف، وثيقة رقـم ٢١٧ أوقـاف جديـدة، وظهر وثيقة وقف الغورى رقم ٨٨٣.

محكمة بولاق[١].

ومن أشهر أسواق الموالد التي شهدتها بولاق وأهلها، سوق مولد سيدى إسماعيل الإنبابى[٢]. الذي يقام في (١١ من المحرم) من كل عام، فيذكر ابن إياس في حوادث عام ٩١٢هـ/١٥٠٦م، كان ببولاق ليلة حافلة بسبب مولد سيدى إسماعيل الإنبابى حيث ضربت في تلك الجزيرة التي تجاه بولاق نحو خمسمائة خيمة، وصنعوا هناك سوقاً حافلاً بدكاكين مبنية، ونقلوا إليه من سائر البضائع الفاخرة، وكثر هناك البيع والشراء[٣]. ثم يأتي بعد ذلك مولد الشيخ سويدان المجذوب في المحرم كذلك، وكان الشيخ يعمل في مدرسة ابن الزمن ببولاق عند الرصيف[٤]. وكان مولده مولداً حافلاً أيضاً، ضربت فيه الكثير من الخيام عند المدرسة، مما ترتب عليه نشاط حركة البيع والشراء في سوق الميناء[٥].

ومن الأسواق المتخصصة التي أشارت إليها المصادر سوق رماحة المحمل ببولاق، وسوق الرقيق الذي كان يعقد يومين في الأسبوع، فقد أذن ابن الأخميمي لمحمد بن سليمان بن أحمد بن عمر بن غنام الشمس بن العلم البرنكيمى أحد نواب الحنفية بمجلس الواجهة من بولاق بالجلوس بسوق الرقيق يومى السوق[٦].

---

(١) نقلاً عن عادل شحاته طايع، حى بولاق، ص ١٨٦، ١٨٨.

(٢) انظر ترجمة الشيخ إسماعيل الإنبابى المعتقد (٧٩٠هـ/١٣٨٨م) في ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج٢، ص ٤٣٠، وتجدر الإشارة إلى أنه ينسب إلى إنبابة أو إمبابة التي تقع على البر الغربى للنيل تجاه بولاق، وهى حاليا قاعدة مركز إمبابة التابع لمحافظة الجيزة.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١١٤، ١٣٢، ١٥٢-١٥٣، ١٨٢، ٢١٤، ٣٧٥.

(٤) انظر ما سبق ص٤٧-٤٨.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١١٤.

(٦) ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص٨٦، هامش(٧)؛ السخاوى، الضوء اللامع، م٤، ج٧، ص ٢٥٧، ترجمة ٦٤٧؛ وأنظر أيضاً عادل شحاته، حى بولاق، ص١٩١.

أما عن **الرباع** فهى المساكن المشتركة التي تقطنها أكثر من أسرة في وقت واحد، عكس الدور والبيوت فهى المساكن التي تسكنها أسرة واحدة. والربع أما أن يكون مستقلاً بذاته محتلاً كامل المبنى، أو يكون بأعلى مبان تجارية سواء إن كانت حوانيت أو وكالات أو قياسر أو فنادق. ولكل ربع باب يتصل مباشرة بسلم داخل واجهة البناء المشرفة على الطريق العام، وبواسطته يصعد السكان إلى مساكن الربع المخصصة للسكنى بأجرة شهرية، وكان الربع يتألف من ثلاث أو أربع طبقات، في كل طبقة مساكن كاملة المرافق والمنافع، ولها سطح مقتطع من أعلى بهندسة محكمة وصناعة عجيبة مع كون البيوت بعضها تحت بعض، وقد برع صناع مصر في هذا الباب على حد تعبير العمرى(١).

تخدم **الرباع** بهذا ناحيتين الأولى اجتماعية فهى سكنى عامة الشعب والطبقات المتوسطة من التجار والحرفيين؛ كما أن بعضها يحتوى على أسبلة وحمامات وكتاتيب وغير ذلك. أما الناحية الأخرى فهى تجارية، حيث يجد فيها التجار أماكن لعرض بضائعهم، وإراحة دوابهم، وأماكن يبيتون فيها، فضلاً عن المرافق والخدمات. وأكثر من هذا وذاك فقد كان الغرض من إنشاء الرباع، هو الحصول على ريعها المتحصل من إيجاراتها للصرف منه على أوجه الخير كالمساجد والمدارس والربط والزوايا والأسبلة وغيرها من المنشآت(٢).

عرفت بولاق النوع الثاني من الرباع أي الذي يكون بأعلى مبان تجارية سواء أن كانت حوانيت أو وكالات أو قياسر أو فنادق فقد شيد الأمير عز الدين

---

(١) ابن فضل الله العمرى، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دولة المماليك الأولى، دراسة وتحقيق دوروتيا كرافولسكى بيروت، ١٩٨١م، ص ١٤٥.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم، ص ٣٠٣، حاشية (٣)؛ هبة الله محمد فتحى حسن، "الأرباع والمنازل الشعبية في القاهرة في العصرين المملوكى والعثمانى" رسالة دكتوراه غير منشورة، آثار القاهرة ١٩٩٥م، ص٢١؛ أندريه ريمون، القاهرة، ص ١٤٧؛ آدم صبره، الفقر والإحسان في مصر عصر سلاطين المماليك، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص١٧٣-١٧٥.

إيدمر الخطيرى، صاحب جامع الخطيرى ببولاق فندقاً وربعاً بجانب جامعه، وكان بأسفل الربع عدة حوانيت، وقد تنافس الناس في سكناه كما تذكر المصادر[1]، هـذا في حين يذكر المقريزى تحت عنوان "ذكر بولاق" أن الأمير الخطيرى أنشأ بجوار جامعه ربعين[2]. وجاء في وثيقة بيع رقم ٤٣١ج أوقاف التي تحدثت عن معصرة في بولاق، ذكرت أن حدها الغربى ينتهى إلى الوكالـة المعروفـة بـالخطيرى[3]. ويذكر ابن تغرى بردى أن الأمير عز الدين الخطيري أخذ أراضى حول جامعه من بيت المال وأنشأ عليها الحوانيت والرباع والفنادق[4]. مما يوحي أنه ليس ثمة فارق كبير بين الربع والفندق والوكالة في ذلك الحين على نحو ما سنرى. واتضح أيضاً من قائمة الرباع الثلاثين التي أوردها ابن تغرى بردى[5]. والتي تعرضت لحريـق عام ٨٦٢هـ/١٤٥٧م أن رباع بولاق كانت تعلو مبان تجارية، فقد ذكر ابن تغرى بردى بعد أن أحصاها " كل هؤلاء احترقوا بجميع حواصلهم (مخازنهم) وحوانيتهم وما اشتملوا عليه من البضائع والمتاع والأقمشة "[6].

ومن أمثلة رباع بولاق التي ذكرها ابن تغرى بردى والتي تؤكـد أكثـر أن رباع بولاق كان بأسفلها حوانيت أو فنادق أو قياسر ما يلي:

ربع عبيد البُرد دار[7] وقد راح في الحريق بحوانيته ومخازنه، وربـع ابـن

---

(١) الصفدى، الوافى بالوفيات، ج١٠، ص ١٨؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ٣١٢؛ السلوك، ج٢، ق٢، ص ٤٢٣؛ ابن تغرى بردى، النجـوم، ج٩، ص ١١٨، ٣١٢؛ المنهـل الصافي، ج٣، ص١٨٢؛ اليوسفي، نزهة الناظر، ص٣٨٠.

(٢) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ١٣١.

(٣) أحمد محمد أحمد، "المنشآت الصناعية في العصر المملوكى من خلال الوثـائق"، ماجـستير غير منشورة، آداب سوهاج، ١٩٨٥م، ص ٣٣.

(٤) النجوم، ج٩، ص١١٨.

(٥) منتخبات من حوادث الدهور، ج٢، ص ٣١٤-٣١٥.

(٦) منتخبات من حوادث الدهور، ج٢، ص ٣١٥.

(٧) البرد دار يكون في خدمة مباشرى الديوان في الجملة متحدثاً على أعوانه والمتـصرفين فيـه. انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٦٨-٤٦٩؛ محمد قنديل البقلي، التعريف، ص٦٢.

القشاش أيضاً بحوانيته ومخازنه، وربع ابن السنيتى بحوانيته وحواصله، ربع التاجر نور الدين الطنبدى وقيساريته العظيمة، ربع الجمالى ناظر الخاص، ووصلت النيران إلى حواصله التي تحته وأحرقت أعلاه وأسفله، وذهب فيه من بضائع الناس المخزونة فيه مالاً ينحصر كثرة؛ وربع فندق الأرز[1].

ويتضح أيضاً من قائمة الرباع الثلاثين التي أوردها ابن تغرى بردى والتي تعرضت لحريق عام ٨٦٢هـ/١٤٥٧م ما يلي:-

أولا: إن موقع هذه الرباع كان على شاطئ البحر والبعض الآخر كان في داخل بولاق فربع الحاج عبيد البُرد دار والمعروف بربع الصاجاتى كان يقع بساحل بولاق، كذلك كان ربع ابن السينتى يقع بالقرب من البحر، كما كان له ربع آخر داخل بولاق، أما التاجر رحب فكان له ربع ودار عظيمة على النيل، وقد سلما من النيران، وحاكاه ابن عبد الملك السمسار، فقد كان له ربعان أحدهما يطل على النيل والآخر بالداخل، وكان لابن السقيم التبان ربع داخل بولاق كذلك. أما عن باقى الرباع فلم يحدد ابن تغرى بردى مواقعها[2]. والغالب على رباع بولاق أنها كانت قريبة من شاطئ النيل بطبيعة الحال حيث يوجد الميناء الذي يستقبل سفن التجار من كل مكان.

ثانيا: إن أصحاب هذه الرباع كان من بينهم عدد من كبار رجالات الدولة وممن شغلوا بها مناصب مرموقة، فمن رباع القضاة ربع القاضى شهاب الدين أحمد الدماطى أو الدماصى المعروف بقرقماس بالقرب من موردة البورى، وربع القاضى سراج الدين عمر بن عرب، ربع القاضى كاتب السر زين الدين ابن مزهر، ومن نظار الخاص الذين امتلكوا رباعًا في بولاق يوسف ابن عبد الكريم الجمالى ناظر الخاص، وكان ربعه أحسن عمارة وأكبر من

---

(١) منتخبات من حوادث الدهور، ج٢، ص ٣١٤-٣١٥.

(٢) منتخبات من حوادث، ج٢، ص ٣١٤-٣١٥؛ النجوم، ج١٦، ص ١٢٠.

ربع برد بك الدوادار الثانى[1]، وربع عبيد البرد دار، وهو من موظفي الديوان[2]. وذكر ابن تغرى بردى أيضاً ربع ابن النحال دون أن يحدد وظيفته، ولعله يقصد به فرج بن النحال الذي ولى نظر الاصطبل، ثم نظر الدولة ثم الوزارة غير مرة ثم الاستادارية[3].

وامتلك عدد من رباع بولاق بعض التجار والحرفيين، فمن رباع التجار المشاهير ربع التاجر الشهير نور الدين الطنبدى وهو من أعيان التجار بالكارم[4]، وربع التاجر رحب وكان له ربعان أحدهما على النيل والآخر في الداخل، ولما اقتربت النيران من ربعه على النيل استغاث "ياسيدى يارسول الله أنا وربعى في جيرتك، إن سلم ربعى وبيتى فهو وقّف على حرمك الشريف"، ولما قال رحب هذه المقالة دفع الله تعالى عن ربعه وبيته النار وسلما منها. وأنشد الشيخ الإمام العالم الفقيه علم الدين أبو العباس أحمد الشافعى في ذلك هذه الأبيات.

وربع من خصه بنذر	للمصطفى الهاشمى وقفاً
لقد حماه الإله عنها	معجزة لم تكن لتخفى
وصاحب الربع ما توانى	بل جدّ في نذره ووفى[5].

وتظهر هذه الأبيات في وضوح أن التاجر رحب وفى بنذره فجعل ربع ربعه الناجى من النار بفضل الله وقفاً على الحرم الشريف.

ومن رباع التجار أيضاً ربع قائم التاجر، وربع ابن الفراء الزيات، وربع

---

(١) الدوادارية الثانية يليها الأمراء ممن يحملون رتبة أمير أربعين (طبلخاناه) وقد تزيد إلى رتبة سبعين وثمانين؛ المقريزى، السلوك، ج١، ص ٢٣٩.

(٢) ابن تغرى بردى، منتخبات من حوادث، ج٢، ص ٣١٤-٣١٥؛ النجوم، ج١٦، ص ١٢٠.

(٣) هو فرج بن ماجد بن سعد الدين بن المجد القبطى المصري، تمهر في الديوان وخدم في عدة جهات، توفى في ٨٦٥هـ/١٤٦٠م، انظر السخاوى، الضوء اللامع، م٣، ج٦، ص ١٦٩.

(٤) عنه انظر ما سبق، ص٦٦-٦٧.

(٥) ابن تغرى بردى، منتخبات من حوادث الدهور، ج٢، ص ٣١٤، ٣١٥.

الطحان، وربع ابن السقيم التبان، كذلك هناك رباع حسن القباني، وابن عبد الملك السمسار، وربع الخولي سعد الدين، وربع الدقاق الزعفراني وغيرها[1].

ثالثا: لم تكن ملكية الرباع في بولاق قاصرة على الرجال دون النساء، فقد امتلكت اثنتان من النساء رباعًا في بولاق وهما: خوند هاجر[2] ابنة منكلي بغا الشمسي[3]، وإحسان الأشرفية[4].

رابعاً: ضخامة عدد الرباع في بولاق وعظم اتساعها، إذ يذكر ابن تغرى بردى أن عدد الرباع التي ذهبت في الحريق ثلاثون ربعاً يشتمل الواحد منها على مائة سكن أو أكثر أو أقل[5]. وفى ختام حديثه عن الرباع التي راحت في الحريق يقول: "هذا ما حضرني من الربوع مع أن بعضهم زاد في العدد على أكثر من أربعين"[6]. وإن دل ذلك على شئ فإنما يدل على ضخامة عدد التجار والحرفيين الذين أصبحوا يعيشون في بولاق[7]. والذين كانوا يسكنون تلك الرباع، علاوة على نشاط حركة البيع والشراء في حوانيت تلك الرباع.

---

(١) ابن تغرى بردى، منتخبات من حوادث الدهور، ج٢، ص ٣١٤، ٣١٥؛ وفيما يتعلق بربع قانم التاجر انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ١١٠-١١١؛ وانظر ما يلي ص١٢٢، هامش ٢.

(٢) خوند هاجر أبوها منكلى بغا الشمسي وأمها خوند فاطمة ابنة الأشرف شعبان بن حسن بن قلاوون، تزوجها الظاهر برقوق، ومات عنها، وصارت إحدى الخوندات، ماتت بالطاعون في رجب سنة ٨٣٣هـ. انظر السخاوى، الضوء اللامع، م٦، ج١٢، ص ١٣٢.

(٣) منكلى بغا الشمسي أحد مماليك الناصر حسن، أمرة طبلخاناه سنة ٧٥٨هـ، ثم أمره مائة، تولى نيابة حلب ثم نيابة دمشق، ثم استقر نائب سلطنة بمصر ٧٦٩هـ ثم أتابك العساكر، ومات في ٧٧٤هـ. لمزيد من التفاصيل انظر ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٥، ص ١٣٧.

(٤) ابن تغري بردي، منتخبات من حوادث الدهور، ج٢، ص ٣١٤، ٣١٥.

(٥) ابن تغري بردي، منتخبات من حوادث الدهور، ج٢، ص ٣١٤.

(٦) ابن تغري بردي، منتخبات من حوادث الدهور، ج٢، ص ٣١٥.

(٧) أندريه ريمون، القاهرة، ص ١٦٩.

أما عن **الوكالات** فيقصد بها المكان الذي تتم فيه عمليات البيع والشراء، ويبيت فيه التجار بأمتعتهم، وسميت وكالة لأنها موضع التوكيل والوكلاء غالباً[1]. والوكالة عبارة عن بناء مربع أو مستطيل الشكل له مدخل فخم مسقوف يؤدى إلى فناء مستطيل مكشوف، يتوسط هذا الفناء مسجد صغير تجاوره فسقية ماء للوضوء، وبأحد جوانب الفناء دهليز يؤدى إلى اسطبل، كان مخصصاً لإيواء دواب التجار. ويتكون المبنى الرئيسي للوكالة من ثلاثة طوابق، تحيط بالأضلاع الأربعة للفناء الداخلي، الطابق الأرضى منها به حواصل كانت تستخدم كمخازن أو حوانيت لتخزين ولعرض السلع بها، ويتقدم هذه الحواصل ممشى أو ممر يمتد محيطاً بالفناء من جهاته الأربعة، وسقف محمول على عقود أو أعمدة، وبالطابق الثاني للوكالة حواصل مماثلة لتلك التي بالطابق الأول أو الأرضى، ويتقدمها ممر بدرابزين يطل على الفناء. أما الطابق الثالث فيحتوى على مساكن، كل مسكن يحتوى على قاعة للجلوس أو استقبال الزوار بها، وخزانة أي غرف النوم، وكرس خلاء أو مرحاض. وهذه المساكن مخصصة لإقامة التجار الوافدين مدة بقائهم بالقاهرة مقابل رسوم معينة[2]، والوكالات بهذا المعنى لا يكاد يكون بينها وبين الرباع فارق كبير على أساس أن وظيفتهما كانت واحدة.

حفلت بولاق بالعديد من الوكالات إذ حرص بعض السلاطين والأمراء وموظفى الدولة على استثمار أموالهم في منشآت تجارية وسكنية في بولاق، خاصة بعد أن غدت منطقة نمو وعمران مطرد، وارتباط اقتصادي وثيق مع القاهرة

(١) محمد محمد أمين وليلى على إبراهيم، المصطلحات المعمارية، ص ١٢١.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر مجاهد توفيق الجندى؛ "أهم الوكالات في مدينة القاهرة ودورها الحضارى" بحث منشور في مجلة المؤرخ العربى، العدد التاسع، مارس ٢٠٠١م، ص٤٤٩، ٤٥٨ وما يليها؛ حلمى محمد سالم، اقتصاد مصر الداخلي، الإسكندرية بدون تاريخ، ص٢٠٩-٢١٠؛ أندريه ريمون، القاهرة، ص ١٤٥، ١٤٧.

وغيرها من المدن كدمياط والإسكندرية ورشيد. ومن أهم الوكالات التي عرفتها بولاق وكالة وردقان والدة الناصر محمد بن قلاوون، وتقع بخط الاستادارية قريباً من سوق الخضرا أو سوق الأبزاريين والنجاريين، وغير بعيدة عن جامع تغرى برمش الزردكاش، واشتملت على ربع علوها يشتمل على أروقة منها ما هو مطل على سوق الخضرا ومنها ما هو مطل على سوق الإبزاريين والنجاريين، وما هو مطل على شاطئ النيل، ويرجع تشييد هذه الوكالة إلى حدود عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م كما جاء في سجلات محكمة بولاق(١).

بنى الأمير عبد الغنى الفخرى وكالة بخط معدية بولاق وجامع الخطيرى حوالى سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م، اشتملت على حوش به مخازن دائرة وبوسطه، عدتها أربعون مخزناً، وطباق علوها، ومنافع ومرافق وحقوق. كما شيد الزينى عبد الباسط ناظر الجيوش بمصر وكالة بالقرب من حمام ابن البارزى حوالى سنة ٨٢٣هـ/١٤٢٠م، وكانت تعرف باسم "وكالة الأرز" واشتملت على ثمانية عيدان بعدة لدق الأرز الشعير وفصله، كما اشتملت على ساحة كبيرة بها واحد وعشرون مخزناً... واشتملت كذلك على منافع ومرافق وحقوق(٢). وامتلك الأمير زين الدين الاستادار وكالتين ببولاق أحدهما بخط القفاصين (الحبالين)، والأخرى بخط الاستادارية بظاهر جامعه ومجاورة لفرن الاستادار، وشيدت الوكالاتان حوالى عام ٨٥٢هـ/١٤٤٨م وهو العام الذي شرع فيه الأمير زين الدين الاستادار في بناء جامعه ببولاق(٣).

عرفت بولاق أنواعاً من الوكالات المتخصصة ومن أشهرها "وكالة البلح" وكانت تقع بالقرب من جامع زين الدين الاستادار ببولاق وظاهر سوق الاستادارية،

(١) نقلاً عن عادل شحاته طايع، حى بولاق، ص ٢٧، ٢٨؛ ج٢، ص٦١٠.
(٢) عادل شحاته طايع، حى بولاق، ص ١٢٨؛ ج٢، ص٦١٠.
(٣) عادل شحاته طايع، حى بولاق، ص١٣١.

وتعرف أيضاً بوكالة البلح البريمي، وبوكالة البلح البرلسي، ويبدو أن مؤسسها هو "القاضي ولي الدين الصفتي"، وقد عين لها بواباً لحفظ ما بداخلها من الخيل ومتعلقات النازلين بها، واشتملت وكالة الصفتي على حواصل بداخلها وخارجها، ومساكن وبيوت علو الوكالة، ومنافع ومرافق[1]. ومن الوكالات المتخصصة كذلك "وكالة العسل" وهي واحدة من الوكالات الثلاث التي اشتمل عليها وقف خوند زهرة زوجة السلطان الظاهر جقمق، وتقع وكالة العسل هذه بخط الاستادارية ببولاق، وشيدت حوالي عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م، وكانت معدة لبيع العسل والجبن القوصية الجاموسي. أما الوكالة الثانية في وقف خوند زهرة فهي صغرى وكانت تقع بسوق العطارين تجاه حمام الاستادارية، أما الوكالة الثالثة فكانت تقع بين حمام الاستادارية وجامع الزيني الاستادار ببولاق كذلك، ويرجع تاريخ إنشاء هاتين الوكالتين إلى ذات العام الذي أنشأت فيه وكالة العسل وهو عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م. واشتملت هذه الوكالات الثلاث على حواصل وكان يعلوها رباع[2] ووجدت ببولاق وكالة أخرى كانت معدة لبيع العسل، وتعرف (بوكالة العسل) وردت في وقف قانم التاجر، وتقع بخط خضرة البصل، ويرجع تاريخها إلى عام ٨٧٠هـ/١٤٦٥م[3].

شجع تطور ميناء بولاق في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي العديد من التجار على الإقامة ببولاق وامتلاك المنشآت التجارية بها كالوكالات والرباع وغيرها ومن هؤلاء التجار نور الدين الطنبدي (ت ٨٣٦هـ/١٤٣٢م) الذي فضل بولاق على الفسطاط (مصر القديمة) ليبني بها وكالة وقيسارية مستثمراً أمواله بها، خاصة بعد أن بدأ السلطان برسباي سياسة احتكار التوابل وخاصة الفلفل عام ٨٣٢هـ/١٤٢٨م، ونظراً لأن نور الدين الطنبدي كان من تجار الكارم

---

(١) عادل شحاته طايع، حي بولاق، ص ١٣٣، ج٢، ص٦١١.

(٢) عادل شحاته طايع، حي بولاق، ص ١٣٤، ١٣٥، ج٢، ص٦١١.

(٣) عادل شحاته طايع، حي بولاق، ص ١٣٦، ١٣٧.

المشاهير، فإن إقامته في بولاق ونشاطه المعمارى بها ممثلاً في (قصر – حمام – وكالة ــ ربع ــ قيسارية ومعصرة) يشير في جلاء إلى أن تجارة الكارم، بــدأت تتجه نحو ميناء بولاق، وذلك بطبيعة الحال قبل أن تقضى سياسة الاحتكار علـــى نشاط تجار الكارم في تجارة الشرق والغرب، ويدلل على ذلك أيــضاً أن الخواجـــا شمس الدين محمد المعروف بابن الزمن وهو من تجار الكارم أيضاً قد امتلك وكالة ببولاق عند الرصيف إلى جوار جامعه[1].

امتلاك بعض السلاطين عدد من الوكالات في بولاق ومنهم السلطان إينال فقد كانت له وكالة بخط الاستادارية بالقرب من حمام الاستادارية، اشتملت هذه الوكالة على حواصل وطباق وحوانيت ومنافع وحقــوق، وشــيدت بــين عــامى ٨٥٨–٨٦٥هـ/١٤٥٣–١٤٦٠م وهى فترة حكم إينال دون سنة بعينها. وكان للــسلطان الغورى وكالاتان أحدهما بالقرب من وكالة أو قيسارية الطنبــدى، وتــم تــشييدها وعمارتها حوالى سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٥م، والأخرى بخط الخطيرى مجاورة لمستوقد حمام الخطيرى ومستخرجة من أرضه، ويرجع تاريخ عمارتها إلى حــوالى ســنة ٩٠٩هـ/١٥٠٤م[2].

ومن الملفت للنظر أن غالبية من امتلكوا قصوراً أو مناظراً أو بيوتــاً فــي بولاق، كانت لديهم منشآت تجارية بها كما اتضح مما سبق، ومن هؤلاء كذلك ابن مزهر الذي امتلك بدوره وكالة في بولاق بالتبليطة، يرجع تاريخ عمارتها إلى عام ٨٨٤هـ/١٤٧٩م، وكانت تحتوى على تسعة حواصل بداخلها، وتــسعة حواصــل خارجها، وربع من سبعة أروقة علوها[3].

---

(١) وثيقة وقف السلطان الغورى، رقم ٨٨٣ أوقاف، نشر عبد اللطيف ابراهيم، دراســات، م٢، ص ٣٠؛ عادل شحاته طايع، حى بولاق، ص ٢٨؛
Nelly Hanna, An Urban, pp. 22–23.

(٢) عادل شحاته طايع، حى بولاق، ص ١٣٦، ١٣٨، ج٢، ص ٦١١.

(٣) عادل شحاته طايع، حى بولاق، ص ١٣٧، ج٢، ص ٦١١.

استمر إنشاء الوكالات ببولاق حتى أواخر عصر سلاطين المماليك الجراكسة، فقد ورد في وثيقة[1] وقف باسم السيدة المصون أم الحسن، مؤرخة بعام ٩١٧هـ/١٥١١م، وصف لوكالة أوقفتها هذه السيدة، تقع تلك الوكالة ظاهر القاهرة المحروسة، خارج باب البحر ببولاق بخط حلقة السمك، بالقرب من معصرة الطنبدية، وتشمل هذه الوكالة على مخازن سفلية وعلوية، وقصر ومنافع وحقوق وغيرها[2].

أما **الفنادق** فالفندق كلمة من أصل يوناني، تعنى المكان الخاص باستقبال الوافدين إلى مدينة من المدن الأخرى، وهو عبارة عن مبنى ضخم يتألف من عدة طوابق، الأسفل لتخزين البضائع، وبه فناء داخلى لشحن البضائع وتفريغها، وبه عدد من الحوانيت. أما الطابق الثاني فمخصص لسكنى التجار[3]. وبالنظر إلى هذا التعريف لا يكاد المرء يجد فارقاً كبيراً بين الفندق والوكالة والربع، ومن الفنادق التي ذكرتها المصادر في بولاق فندق شيده الأمير عز الدين الخطيرى بجوار جامعه بشاطئ النيل في عام ٧٣٧هـ/١٣٣٦م[4].، ومن أشهر الفنادق التي ذكرها ابن تغرى بردى في بولاق " فندق الأرز" بالقرب من حمام ابن البارزى الذي تعرض لحريق بولاق الشهير عام ٨٦٢هـ/١٤٥٧م[5]، وهو عينه وكالة الأرز التي شيدها الزيني عبدالباسط ناظر الجيوش[6].

---

(١) وثيقة وقف رقم ٢٧٣ (المحكمة الشرعية).

(٢) عن الوصف التفصيلى لهذه الوكالة انظر وثيقة رقم ٢٧٣ (محكمة).

(٣) صبحى لبيب، "الفندق ظاهرة سياسية، اقتصادية، قانونية" بحث منشور في أعمال ندوة مصر وعالم البحر المتوسط، القاهرة ١٩٨٦م، ص ٢٩٢.

(٤) المقريزى، السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٢٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص ١١٨؛ وانظر أيضاً أندريه ريمون، القاهرة، ص ١٢٠.

(٥) ابن تغرى بردى، منتخبات من حوادث الدهور، ج٢، ص ٣١٣.

(٦) انظر ما سبق ص٩٠.

وتجدر الإشارة إلى أن الفنادق ما لبثت أن أصبحت تخص تجار الكارم والتجار الأوربيين المسيحيين كالبنادقة وغيرهم، خاصة عندما نشطت حركة التجارة بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، إذ صار لكل جالية من جاليات المدن الأوربية التجارية فندق في كبرى المدن التجارية في مصر كالإسكندرية ودمياط والقاهرة[١].

أما **القياسر** فهى مؤسسات تجارية كذلك يشيدها القادرون من الأمراء والأثرياء وغيرهم للإفادة من دخلها، والقيسارية تشبه الفندق والوكالة في تخطيطها العام، فهى تتكون من فناء أوسط مكشوف يحيط به مبنى القيسارية، المكون من طابقين، الطابق السفلى به حوانيت يتقدمها ممر مسقوف، أما الطابق العلوى ففيه ربع أو مساكن مخصصة لأهل الحرف والصناعات بها[٢]. وعادة ما تنسب القيسارية إلى مؤسسيها أو أصحابها، ومن أشهر القياسر التي عرفتها بولاق وذكرتها المصادر[٣] قيسارية التاجر نور الدين الطنبدى، وقد وصفها ابن تغرى بردى "بأنها قيسارية عظيمة"[٤]. مما يشير إلى ضخامتها وكثرة ما احتوت عليه من حوانيت، وقد ظلت هذه القيسارية تحمل اسم مؤسسها حتى احترقت عام ٨٦٢هـ/١٤٥٧م، رغم وفاته في ١٤ صفر ٨٣٦هـ/١١ نوفمبر ١٤٣٢م[٥].

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور، حضارة الإسلام، القاهرة ٢٠٠٥م، ص ٢٠٩-٢١٠.

(٢) عن القياسر في العصر المملوكى انظر المقريزى، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ٨٦-٩١؛ وانظر أيضاً حلمى سالم، اقتصاد مصر الداخلي، ص ٢١١.

(٣) ابن تغرى بردى، منتخبات من حوادث الدهور، ج٢، ص ٣١٤؛ الصيرفى، نزهة النفوس، ج٣، ص ٢٦٧؛ المقريزى، السلوك، ج٤، ق٢، ص ٨٩٩.

(٤) منتخبات من حوادث الدهور، ج٢، ص ٣١٤.

(٥) Ahmed Darrag, L'Egypte Sous Le Régne de Barsbay, 825–841/1422–1438, Damas 1961, p. 149.

صفوة القول أن بولاق شهدت نهضة عمرانية كبيرة، ظهرت من خلال تنوع المنشآت العمرانية بها ما بين دينية كالمساجد – المدارس – الزوايا، واجتماعية كالحمامات والسبيل والمغسل، فضلاً عن القصور والمناظر والدور، ومنشآت تجارية كالأسواق والرباع والوكالات والفنادق والقياسر. ولوحظ من خلال هذا الفصل أن هناك أسماء لمعت في تاريخ بولاق ما بين أمراء وقضاة ورجالات دولة بل وسلاطين، وحرص الجميع ليس فقط على مجرد الإقامة بها بل واستثمار أمواله فيها.

الفصل الثالث

دور بولاق
في حياة سلاطين المماليك الجراكسة

- بولاق استراحة السلاطين.
- بولاق دار مملكة ومقر للحكم.
- استقبال الرسل والسفراء في بولاق وإقامتهم بها.

الفصل الثالث

دور بولاق في حياة سلاطين المماليك الجراكسة

بدأ دور بولاق يظهر في عصر دولة المماليك الجراكسة بعد أن بدأت تتــألق كضاحية أو حى، وتكتمل مظاهر الحياة فيها ويتوافر فيها كل ما يحتاج إليه الناس، ولم تكن بولاق ضاحية عادية بل هيأ لها موقعها على شاطئ النيل أن تكون نقطــة جذب لبعض السلاطين الذين اتخذوا منها استراحة سلطانية أو منتجعاً – إن جــاز للباحثة أن تستخدم هذه اللفظة – يقضون فيها أوقاتهم بعيداً عن القلعة مقر الحكــم، بل يديرون شئون البلاد منها ويستقبلون فيها السفراء والحكام.

أقبل بعض سلاطين الجراكسة على الإقامة في بــولاق، والنــزول بأشــهر قصورها، والتنزهة بين حدائقها وبساتينها وربوعها، وأكثر بعضهم من التردد عليها بل والإقامة فيها لأشهر وممارسة الحكم من قصورها ومناظرها. ويأتى الــسلطان المؤيد شيخ المحمودى (٨١٥-٨٢٤هــــ/١٤١٢-١٤٢١م) علــى رأس هــؤلاء السلاطين فكان لا يقيم في القلعة إلا قليلاً، وغالب أيامه كان يقضيها في بولاق، في قصر القاضى ناصر الدين ابن البارزى المطل على النيل، ففى يوم الإثنين ٢١ ذى القعدة عام ٨٢٠هــ/١٤١٧م عاد السلطان المؤيد من السرحة ونزل بقــصر ابــن البارزى كاتب السر على شاطئ النيل من البر الغربى، واستمر به ثلاثة أيام، ثــم عاد إلى القلعة[1].

وفى ٢٤ من المحرم من العام الثاني ٨٢١هــ/١٤١٨م نزل السلطان المؤيد بقصر ابن البارزى كذلك، وألزم الأمراء بحمل الزيت والنفط، فجمع من ذلك شــئ كثير، وجمع من المسارج الفخار التي أحضرها الباعة عدد كثير جداً، وعمل فيهــا

(١) المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٤٢٦؛ ابن حجر، إنباء الغمــر، ج٧، ص ٢٧٨؛ ابــن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ٦٣.

فتايل القطن المغموسة بالزيت، وأشعلت بالنار، ثم أرسلت في النيل بعد غروب الشمس بنحو ساعة كما يروى المقريزى[1]، وأطلقت النفوط، وذلك كنوع من الاحتفال بوجود السلطان ببولاق.

وفى يوم الخميس التاسع من ذى القعدة من نفس العام، نزل السلطان المؤيد إلى بيت كاتب سره ناصر الدين ابن البارزى، وبات عنده تلك الليلة، وكانت ليلة الجمعة، وعمل له كاتب السر مهمًا عظيمًا وفرش تحت حوافر خيله شققًا حريرًا، وبعد صلاة الجمعة، سار منه إلى السرحة ببركة الحاج أو الحجاج[2]. وفى "الثاني عشر من الشهر التالي (ذى الحجة) عدى السلطان المؤيد النيل إلى بيت ابن البارزى بعد عودته من سرحة البحيرة، وأقام به إلى صباح اليوم التالي، ودخل حمام ابن البارزى الذي في بولاق كذلك، ثم عاد إلى القلعة[3].

لم تقتصر إقامة المؤيد شيخ في بولاق في قصر ابن البارزى على يوم وليلة أو يومين أو ثلاثة أيام، بل سرعان ما اتخذ منها "دار مملكة" يقضى بها غالب أيامه عند القاضى ناصر الدين ابن البارزى في قصره على النيل لأنه أعجب بطرازه المعمارى إعجابا شديداً، لذلك دائماً ما كان يفضل الإقامة فيه. ففى منتصف شهر

---

(١) المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٤٣٥.

(٢) العيني، عقد الجمان (٨١٥-٨٢٣هـ)، ص٣٢٣؛ المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٤٦٩، وبركة الحاج من منازل درب الحاج المصري، ومن ثم اكتسبت اسمها، بعد أن كان اسمها من قبل جب عميرة أو الجب، ثم بركة الحاج، أما تسميتها الحالية فهى البركة التابعة لقسم المرج من أقسام القاهرة. وهى تقع في شمال شرق القاهرة. لمزيد من التفاصيل انظر عبد العال الشامى، السرحات السلطانية في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، الكويت ١٩٩٤م، ص ٣٧-٤٠.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ٧٤؛ المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٤٧٠، ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٥٠.

جمادى الآخرة من عام ٨٢٢هـ/١٤١٩م ركب السلطان من القلعة، يريد النزول بدار ابن البارزى على النيل ببولاق، ولم يطق حركة الفرس لألم في رجله، لذلك حمل في محفة إلى النيل، وحمل منها على الأعناق إلى قصر ابن البارزى، واصطحب معه هذه المرة حرمه، وكذلك بعض الأمراء الذين نزلوا في عدد من دور الناس المحيطة بقصر ابن البارزى[١].

دامت إقامة السلطان المؤيد ببولاق لمدة شهر لأنه لم يغادرها إلا في منتصف رجب من نفس العام[٢]، وخلال هذه المدة صارت الطبلخاناه تدق هناك، وتمد الأسمطة، وتعمل الخدمة على ما جرت به العادة في القلعة، والأمراء يخدمون السلطان هناك بالشاش والقماش، بل وأكثر من ذلك عندما حلت أيام دوران المحمل والسلطان مازال في بولاق، إذ به يأمر معلم الرماحة، أن يسوقوا المحمل بساحل بولاق، فتوجه المعلم والرماحة إلى بولاق يوم المحمل، وهم يرتدون الأحمر، فساقوا في ساحة بولاق، والسلطان ينظر إليهم من بيت ابن البارزى، وتفرجت الناس على المحمل أي كسوة الكعبة الشريفة وهى مشهورة على رؤوس الحمالين وأمامهم العلماء والمشايخ والرماحة يلعبون برماحهم؛ وكان ذلك من الأيام المشهودة، ودفع الكثير من المؤرخين إلى التعليق على ذلك الحدث فالمقريزى يقول "ولم يعهد بمصر نظير هذا"[٣]. وعلق ابن تغرى بردى بقوله "ولم يقع مثل ذلك في سالف الأعصار"[٤]. أما ابن إياس فقال: "عد ذلك من النوادر"[٥]. لأن المعتاد أن

---

(١) العيني، عقد الجمان (٨١٥-٨٢٣هـ)، ص٣٥٥؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ٨٤-٨٥؛ المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٤٩٩؛ ابن إياس، جواهر السلوك، ص ٣١٤.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ٨٥؛ الصيرفى، نزهة النفوس، ج٢، ص ٤٤٨؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٧، ص ٣٥٣-٣٥٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٤٨، ٤٩.

(٣) السلوك، ج٤، ق١، ص ٤٩٩.

(٤) النجوم، ج١٤، ص ٨٧.

(٥) بدائع الزهور، ج٢، ص ٤٨.

يساق المحمل بالرميلة أسفل القلعة.

وأثناء إقامة السلطان المؤيد في قصر ابن البارزى كان ينتقل منه وهو محمول على الأعناق، تارة إلى الحمام التي بالحكر[1]، وتارة أخرى ينزل بالحراقة ويسير فيها على صفحة النيل إلى رباط الآثار النبوية[2]، ثم يحمل من الحراقة إلى الرباط، وتارة يسير فيها إلى القصر الذي بناه في بر إنبابة، وتارة يقيم بالحراقة وهى في عرض النهر ويقضى فيها نهاره ثم يعود إلى قصر ابن البارزى[3].

أحضر السلطان خلال إقامته في بولاق الحراريق من ساحل مصر إلى ساحل بولاق، وزينت بأفخر زينة وأحسنها، وصار السلطان يركب في الحراقة الذهبية[4] وتسير بقية حراريق الأمراء حوله، مقلعة ومنحدرة، وتلعب بين يديه أحياناً، ويجتمع الناس على اختلاف طبقاتهم للفرجة[5]. وأكثر من هذا كان يطلب من

---

(١) لعل المقصود به حكر ابن الأثير الذي يقع بين بولاق ومنشأة المهرانى، ويقع هذا الحكر اليوم في المنطقة التي تعرف بعشش الشيخ على وعشش شركس في الجهة الجنوبية من بولاق، انظر المقريزى، المواعظ، ج٢، ص ١٣١؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص١٨٤.

(٢) الآثار النبوية منطقة قرب بركة الحبش، وعرفت بذلك لوجود قطعة خشب أو حديد زعموا أنها من آثار النبى صلى الله عليه وسلم، وأنشأ بها رباط يعرف باسمها، وتحول اليوم إلى مسجد أثر النبى، أما الآثار فنقلت إلى مسجد الحسين. محمد رمزى، القاموس الجغرافى، ج٣، ق٢، ص ٣.

(٣) العيني، عقد الجمان (٨١٥-٨٢٣هـ)، ص٣٥٦؛ المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٥٠٠؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٧، ص ٣٥٤.

(٤) الحراقة الذهبية هي المعروفة كذلك بالحراقة السلطانية وهى مركب نيلية عظمى، كان لها ستون مقذافاً، ورئيس، وكان بها مرامى تلقى منها النيران على العدو أو في الاستعراضات البحرية وكانت تتخذ لنزهة السلاطين وقضاء أشغالهم ومهماتهم، ولاسيما يوم وفاء النيل، فكان يتوجه فيها السلاطين إلى المقياس لتخليقه أي تعطيره بماء الورد والزعفران. لمزيد من التفاصيل انظر درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص ٣٦؛ محمد قنديل البقلى، التعريف، ص ١٠٤؛ نبيل عبد العزيز، رياضة الصيد، ص ١٩، حاشية ٥٠.

(٥) المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٥٠١؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٧، ص ٣٥٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ٨٦؛ العيني، عقد الجمان (٨١٥-٨٢٣هـ)، ص٣٥٦.

المماليك أن يلعبوا بالرمح صبيحة كل يوم على شاطئ النيل، وهو يشاهدهم، وعلق المقريزى على ذلك بقوله: " فمرت للناس ببولاق في تلك الأيام والليالى أوقات لم نسمع بمثلها، ولم يكن فيها – بحمد الله – شئ مما ينكر كالخمور ونحوها لإعراض السلطان عنها "[1].

وحدث أثناء إقامة السلطان المؤيد في بولاق أن أوفى النيل، وكان يوم الأربعاء ١٦ من رجب ٨٢٢هـ/١٤١٩م هو يوم الوفاء، وفى هذا اليوم استدعى السلطان الحراقة المشهورة بالذهبية، ونزل من قصر ابن البارزى، وركب فيها، وسار إلى المقياس وحوله عدد كبير من حراريق الأمراء المزينة، التي جرت العادة بزينتها في ليالى الوفاء، وكسر السد، وكان يوماً مشهوداً إذ اجتمع الناس للفرجة من بولاق إلى مصر القديمة[2]. وبعد انتهاء الاحتفال عاد السلطان إلى القلعة بعد أن غاب عنها شهراً كاملاً قضاه في بولاق.

ظل السلطان المؤيد يتردد على بولاق رغم سوء حالته الصحية وما برجله من ألم المفاصل، لدرجة كان لا يستطيع الوقوف عليها، ويحمل على الأعناق في مقعد بين أربعة أنفس[3]. فبعد أن عاد من السرحة في يوم الأحد ١٤ من ذي الحجة (٨٢٢هـ/١٤١٩م) نزل السلطان المؤيد في بيت ناصر الدين بن البارزي على شاطئ النيل بساحل بولاق، ودخل في ذلك اليوم الحمام الذي بناه ابن البارزي بحذاء داره نحو حمامات الشام أي على طرازها، وبات ليلة الاثنين هناك، ثم دخل القاهرة صبيحة يوم الاثنين ١٥ من ذي الحجة[4]. وفي يوم الثلاثاء ١٩ من صفر

---

(١) السلوك، ج٤، ق١، ص ٥٠٢؛ وانظر أيضاً ابن حجر، إنباء الغمر، ج٧، ص ٣٥٤.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم، ج١٤، ص٨٦؛ الصيرفى، نزهة النفوس، ج٢، ص ٤٤٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٤٨.

(٣) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج٦، ص ٣٠٦.

(٤) العيني، عقد الجمان (٨١٥-٨٢٣هـ)، ص٣٥٩.

عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م نزل السلطان المؤيد في قصر ابن البارزى على النيل، وأقام عنده يومين وليلتين، أقيمت خلالهما الاحتفالات للسلطان، وصنع له الوقيد من قشور البيض والنارنج مع النفط وغير ذلك، وذهب أهل القاهرة نساءًا ورجالاً إلى بولاق من أجل الفرجة ومشاهدة هذه الألعاب، وما لبث السلطان أن عاد إلى القلعة صباح يوم الخميس ٢١ من ذات الشهر(١).

وفى جمادى الأولى من نفس العام (٨٢٣هـ/١٤٢٠م) مضى السلطان المؤيد إلى بولاق مصطحباً معه حريمه، ونزلوا جميعاً في بيت القاضى ابن البارزى، وأقاموا عنده، هذا في حين كان ابنه المقام الصارمى إبراهيم يقيم في قصر الحجازية ببولاق كذلك، وكان مريضاً، فكان السلطان وهو في بولاق مقيماً في بيت ابن البارزى ينزل لزيارته مراراً(٢).

كان السلطان المؤيد أثناء إقامته في بولاق، يمارس حياته العادية، وكأنه في القلعة تماماً، فلما كان يوم الجمعة أول جمادى الآخرة من نفس العام نزل من قصر ابن البارزى ليؤدى صلاة الجمعة بالجامع الذي جدده ابن البارزى تجاه بيته، وخطب به وصلى قاضى القضاة جلال الدين البلقينى؛ ثم ركب في اليوم التالي، ونزل إلى الميدان، وعمل به الخدمة السلطانية، ثم عاد إلى القلعة، ولم يمكث بها إلا أربعة أيام، عاد بعدها في يوم الأربعاء السادس من جمادى الآخرة إلى بولاق ثانية، ونزل إلى قصر ابن البارزى، وأقام به أياماً ثم عاد إلى القلعة(٣).

لم يمكث السلطان بالقلعة طويلاً فما لبث أن ركب إلى بولاق في ١٧ من

---

(١) العيني، عقد الجمان (٨١٥-٨٢٣هـ)، ص٣٧٣؛ المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٥٢١؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٧، ص ٣٧٦؛ الصيرفى، نزهة النفوس، ج٢، ص ٤٦٦.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ٩٥؛ المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٥٢٩، ٥٣٠-٥٣١.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ٩٥، ٩٦؛ المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص٥٢٥.

شهر رجب (٨٢٣هـ/١٤٢٠م) ونزل في قصر ابن البارزى كعادته، وأقام به، أما الأمراء المصاحبون له فقد نزلوا بالدور التي حوله، وصارت الخدمة تعمل أو تقام هناك كما تذكر المصادر[١]، كما كان السلطان يستقبل رجالات الدولة في قصر ابن البارزى ببولاق إذ يذكر الصيرفى أن السلطان استقبل القاضى البدر العينى – وكان قد حضر إلى القاهرة في ٢٥ من رجب – واجتمع به في بيت القاضى ناصر الدين ابن البارزى حيث كان يقيم في بولاق. أما العينــي فـذكر أنــه فــي ٢٩ رجــب (٨٢٣هـ/١٤٢٠م) "كان اجتماعي بالسلطان في بيت ابن البارزي على شاطئ النيل ببولاق"[٢].

كان المؤيد شيخ ولعاً بالسباحة ولعاً شديداً، وقد أتاحت له إقامته في بــولاق ممارسة هذه الهواية نظراً لوقوعها على النيل مباشراً، فضلاً عن أن مقــر إقامتــه وهو قصر ابن البارزى كان يطل على النيل كذلك، وأراد السلطان أن يــسبح فــي النيل أثناء إقامته في بولاق هذه المرة، فأقعد في تخت من خشب، وأرخى من أعلى دار ابن البارزى بحبال إلى الماء، وذلك بطبيعة الحال لما كان يعانيه من آلام فــي رجله وعجزه عن الوقوف عليها[٣]. وسبح السلطان في النيل، وحوله جماعة مــن خواصه، والعوام يسبحون من حوله وهو يقول لهم : "قال لكــم القــيم صــلوا"[٤]. واستمر السلطان سابحاً من قصر ابن البارزى إلى أن وصل إلى مُنية الــسيرج أو الشيرج[٥]، ثم عاد في الحراقة الذهبية إلى قصر ابن البارزى، وأرخى له التخــت

---

(١) عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، ج٤، ص ٦٤؛ المقريزى، السلوك، ج٤، ص ٥٣٣.
(٢) الصيرفي، نزهة النفوس، ج٢، ص ٤٧١؛ العيني، عقد الجمان (٨١٥-٨٢٣هـ)، ص٣٧٨.
(٣) عبد الباسط، نيل الأمل، ج٤، ص ٦٤؛ المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٥٣٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٥٤.
(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٥٤.
(٥) منية السيرج أو الشيرج ويقال لها منية الأمير ومنية الأمراء تقع علــى بعــد فرســخ مــن القاهرة، ولمزيد من التفاصيل عنها انظر ما سبق ص١٣، هامش ٢.

وسحب بالحبال إلى أن طلع إلى القصر، وجلس على مرتبتـه، فعد ذلك من النوادر[1].

تعجب الناس في بولاق من قوة سباحة السلطان، رغم ما كان يعتريه من ألم في رجله، وعجزه عن القيام حتى أنه كان يحمل على الأكتاف، كما استبشروا كذلك بسباحة السلطان في النهر، إذ جاءتهم البشرى في اليوم التالي لسباحته بزيادة النيل ثلاثين إصبعاً، وكان منخفضاً، فقالوا: أن ذلك ببركة السلطان لأنه سبح فيه، فقال السلطان: "لو علمت أن بسباحتى يقع ذلك لما سبحت، لأن مثل هذا يُضل به العامة"[2].

لم يطق السلطان المؤيد شيخ البعد عن بولاق طويلاً، فما لبث أن عاود النزول إلى قصر ابن البارزى في ١٣ من شعبان من نفس العام (٨٢٣هـ/١٤٢٠م)، وأقام فيه أيامًا حتى يوم الثلاثاء سادس عشرة، وعمل الخدمة به، وتوجه منه في هذا اليوم إلى الميدان لعرض المماليك السلطانية الرماحة، وعاد آخر النهار على ظهر النيل إلى قصر ابن البارزى، وظل به حتى نهار السبت ٢٠ من شعبان، ثم عاد إلى القلعة، وما لبث أن عاد ثانية إلى قصر ابن البارزى يوم الخميس، حيث بات بالقصر، وصلى الجمعة بجامع ابن البارزى، وخطب وصلى به قاضى القضاة جلال الدين البلقينى كالعادة؛ ثم عاد إلى القلعة صباح السبت ٢٧ من شعبان[3].

وفى يوم الاثنين العاشر من ذى الحجة (٨٢٣هـ/١٤٢٠م) ركب السلطان

---

(١) المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٥٣٤؛ عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، ج٤، ص ٦٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٥٤.

(٢) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٧، ص ٣٨٤؛ المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٥٣٤؛ عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، ج٤، ص ٦٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٥٤.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ١٠١؛ المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٥٣٧؛ العيني، عقد الجمان (٨١٥-٨٢٣هـ)، ص٣٨٥.

النيل في الحراقة بعد أن نحر ضحاياه، وعدى إلى بولاق في آخر نهار العيد، ونزل كعادته في قصر كاتب السر ابن البارزى، وبات فيه تلك الليلة، ثم عاد إلى القلعة[1]. وهكذا يتضح أن السلطان المؤيد شيخ قد اتخذ من بولاق "دار مملكة وإقامة" وكان لا يقيم في القلعة إلا قليلاً، وغالب أيامه كان يقضيها في قصر ابن البارزى ببولاق؛ وذلك لحبه للتنزه والمفترجات كما يذكر ابن إياس[2].

ظلت بولاق وقصر ابن البارزى محطة للسلاطين ومقراً ينزلون فيه إذا ما ذهبوا إلى بولاق حتى بعد وفاة السلطان المؤيد شيخ المحمودى في ٨٢٤هـ/١٤٢١م الذي فاق أقرانه من حيث الإقامة في بولاق واتخاذها مقراً للحكم: ففى ذى الحجة من عام ٨٣٣هـ/١٤٢٩م، ركب السلطان الأشرف برسباى من قلعة الجبل، ونزل في بيت ابن البارزى بساحل بولاق، لاستعراض بعض المراكب، لأنه كان يعد العدة لغزو جزيرة قبرص، وسار بين يديه في النيل غرابان[3]، فلعبا كما لو كانا يحاربا الفرنج، ثم عاد السلطان سريعاً إلى القلعة[4].

اعتاد السلطان برسباى النزول إلى ساحل بولاق التي أمست بها داراً لصناعة السفن – لمتابعة بناء وتجهيز السفن بها، وذلك لانشغاله بغزو جزيرة قبرص[5]. هذا وإن غير محل إقامته في بولاق من قصر ابن البارزى إلى قصر الزينى عبد الباسط أو القصر الباسطى على ساحل النيل ببولاق كذلك[6].

---

(١) ابن تغرى بردى، النجوم، ج٤، ص ١٠٦؛ المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٥٤٢؛ العيني، عقد الجمان (٨١٥-٨٢٣هـ)، ص٣٨٧.

(٢) بدائع الزهور، ج٢، ص ٦١.

(٣) عن الغربان والأغربة انظر ما سبق ص٥٦، هامش ٥.

(٤) ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ٣٤٦-٣٤٧؛ المقريزى، السلوك، ج٤، ق٢، ص٨٣٥.

(٥) انظر ما يلي ص١٧٥-١٧٧.

(٦) انظر ما سبق عن قصر الزينى عبد الباسط، ص٥٥-٥٧.

أما السلطان قانصوه الغورى فقد كان مقر إقامته في بولاق، قصر الطنبدية المعروف بالسبكية، خاصة بعد أن آلت ملكيته للأمير خاير بك الخازندار صهره، وكثيراً ما كان يدعوه للإقامة عنده في السبكية حينما كان ينزل ساحل بولاق لكشف المراكب، والاطمئنان على سير العمل فيها(١).

والأكثر من ذلك أن السلطان سليم الأول قد نصب معسكره في بولاق من تحت الرصيف إلى آخر الجزيرة الوسطى، واختار الإقامة على شاطئ بحر النيل، وظل يقيم في بولاق عند الرصيف، حتى هاجمه طومان باى هناك، وأحاط به وذلك في المحرم من عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م، وكان قد انضم إليه جمع غفير من الزعر وعياق بولاق من النواتية وغيرهم، وساعدوه بأن أخذوا يرجمون معسكر سليم الأول بالمقاليع وفيها الحجارة(٢).

وإذا كان لفيف من سلاطين المماليك الجراكسة قد اعتادوا التردد على بولاق والإقامة فيها بعض الوقت إما طلباً للراحة أو النزهة أو متابعة ما يجرى في ترسانتها ودار الصناعة بها بعد أن أصبحت محطة لإقلاع السفن والمراكب الجديدة المتوجة إلى دمياط إو الإسكندرية لملاقاة الفرنج، فإن الكثير من الأمراء المماليك قد أقاموا في بولاق أيضاً واعتادوا الذهاب إليها وقضاء أمتع الأوقات بها، ويظهر ذلك في جلاء من خلال عدد القصور والمناظر التي شيدها الأمراء في بولاق فضلاً عن البساتين والحدائق، التي أشارت إليها المصادر وسبق أن فصل لها، فضلاً عن أن الأمراء والحكام كانت لهم مصالح تجارية في بولاق، فقد أمست المنطقة، منطقة جذب لاستثمار مبالغ كبيرة من أموالهم هناك وذلك أما بالبناء، أو بممارسة عمليات

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٤١٤، ٤١٦، ٤١٧، ٤٢٣.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر ابن زنبل الرمال، آخره المماليك، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٩٨م، ص ٢٧-٢٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ١٤٩، ١٥٣؛ ابراهيم على طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ١٩٠.

البيع والشراء.

استقبال الرسل الوافدين إلى مصر في بولاق :

أصبحت بولاق ميناء لاستقبال الرسل والوفود القادمين إلى القاهرة، بل ومقراً لإقامتهم، وكانت هناك مراسم لاستقبال هؤلاء الوفود والسفراء منذ وصولهم إلى ميناء بولاق، حيث يكون في استقبال السفارة المهمندار[1]، وبرفقته بعض الشخصيات المهمة في السلطنة كالاستادار والحاجب وغيرهما، ويتم بعد ذلك إنزال السفارة في الأماكن المخصصة للضيافة، والتي تتحدد حسب مقام دولة السفارة[2]. ففى العشر الآواخر من رمضان من عام ٧٩٢هـ/١٣٨٩م وصل إلى ساحل بولاق رسول سلطان إفريقية أبى الحسن أحمد بن محمد بن أبى بكر الموحدى بهدية من القربات على سبيل الوداد، كما يذكر ابن خلدون[3]، ويدعى هذا الرسول محمد بن على بن أبى هلال، وعندما علم السلطان برقوق بوصوله إلى ساحل بولاق، أرسل استاداره محمود ليكون في شرف استقباله عند نزوله من البحر بساحل بولاق.

وفى شعبان من عام ٧٩٩هـ/١٣٩٦م قدمت رسل ابن عثمان متملك الروم إلى ساحل بولاق، فاستقبلهم الحاجب، وكان بانتظارهم بالخيول السلطانية لتنقلهم إلى المكان الذي أعد لإقامتهم[4]. وفى جمادى الآخرة من عام ٨٢٧هـ/١٤٢٣م وصل

---

(١) المهمندار لفظة فارسية تتكون من مقطعين أحدهما (مهمن) ومعناه الضيف، ودار ومعناه ممسك أو صاحب، وتعنى الشخص الذي يتصدى لتلقى الرسل الواردين على السلطان، ويضيفهم، ويحدد لهم أماكن النزول بدار الضيافة أو الأماكن الأخرى. القلقشندى، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٥٩.

(٢) نجلاء مصطفى عبد الله شيحة، "الجاليات الأوربية في مصر في عصر سلاطين المماليك، (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب بنى سويف ٢٠٠٧م، ص ٤٥.

(٣) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، م٥، بيروت ١٩٨٣م، ص ١٠٧٠-١٠٧١.

(٤) المقريزى، السلوك، ج٣، ق٢، ص٨٨٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٤٨٨؛ ابن الفرات، تاريخه، م٩، ج٢، ص ٤٦٥.

علاء الدين على بن موسى الرومى، وصل من دمياط في بحر النيل إلى بولاق، فاستقبله العينى، وأنزله بجواره، ثم طلع معه إلى السلطان في مستهل رجب من نفس العام[١].

وفى ربيع من عام ٨٨٩هـ/١٤٨٤م استقبل الأتابك أزبك[٢] بعض الأمراء المغاربة في بولاق، وأقام لهم ضيافة حافلة، حضرها الأمراء، ولعبت الأغربة وعدة مراكب بالبحر بين يديه، وهرع الناس للفرجة، وكانت ليلة مشهودة كما يذكر عبد الباسط بن خليل[٣]، وبات الأتابك أزبك مع ضيوفه في بولاق.

وعندما وصل قُرقد بك بن عثمان إلى شبرا رسولاً، أخلى له السلطان الغورى قاعات قصر البرابخية ببولاق، ورسم لناظر الخاص بأن يحضر إليه كل ما يحتاج إليه من فرش وأوان وصينى وغيرها. وأرسل له الحراقة السلطانية لكى تأتى به إلى بولاق، ولما وصل إلى قصر البرابخية مد له السلطان هناك مُدة حافلة، أي مائدة حافلة بألوان الطعام، ثم توجه إليه الأمراء المقدمون قاطبة للسلام عليه، ثم القضاة الأربعة، فأعيان المباشرين من أرباب الوظائف للسلام عليه وتحيته[٤].

ظل الرسول العثمانى مقيماً في قاعات البرابخية ببولاق حتى يوم الإثنين ٢٣ من صفر وكان قد وصل إلى بولاق في يوم الأربعاء ١٨ من صفر (٩١٥هـ/١٥٠٩م) أي أقام ببولاق هو ومن معه ما يقرب من الأسبوع، وبعدها أرسل إليه السلطان عشرين فرساً له ولمن معه، فركبوها من البرابخية، واتجهوا

---

(١) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٧، ص ٣٧٤.

(٢) الأتابك أزبك من ططخ، تدرج في المناصب، ووصل للأتابكية في عهد الأشرف قايتباى، مارسها ثلاثين عاماً، وقام بمهامها بمهارة وقدرة، وهو منشئ الأزبكية، قاد حملات كثيرة ضد العثمانيين ثم أراد المماليك أن يسلطنوه في عام (٩٠٤هـ/١٤٩٨م) ولكنه رفض ومات في نفس السنة. انظر: محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ج١، ص١٥٥-١٦٢.

(٣) نيل الأمل، ج٧، ص ٣٧٤.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٥٣-١٥٤.

نحو القلعة[1].

ويبدو أن قُرقد بك عاد للإقامة بالبرابخية ثانية بعد زيارة السلطان في القلعة، بدليل ما يذكره ابن إياس في حوادث رجب من نفس العام من أن البرد اشتد في هذا الشهر، فرسم السلطان لابن عثمان بأن يتحول من بولاق، ويسكن في بيت الأشرف جان بلاط[2] في حارة القاضى عبد الباسط، فأقام في هذا البيت مدة يسيرة، ثم عاد إلى بولاق كما كان[3].

ظل رسول بنى عثمان مقيماً في بولاق حتى ربيع الآخر سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م أي ما يقرب من العام، ثم استأذن السلطان في العودة إلى بلاده، فأذن له السلطان الغورى وجهز معه عدة مراكب فيها ما يحتاج إليه برسم الإقامات، فسافر هو ومن معه فيها من بولاق إلى رشيد[4].

وحضر إلى مصر في المحرم من عام ٩١٨هـ/١٥١٢م قصاد ورسل من عند ملوك الفرنج الفرانسة – وكانوا كما يصفهم ابن إياس من رؤساء الفرنج[5]، وجاءوا إلى مصر بحراً، ونزلوا في بولاق، فما كان من السلطان الغورى إلا أن أرسل لهم خيولاً يركبونها إلى القلعة.

ووصل إلى مصر أيضاً في ٦ من ذى الحجة سنة ٩١٨هـ/١٥١٢م أحد أولاد أحمد بك بن عثمان ملك الروم ويدعى سليمان بك، فأكرمه السلطان الغورى، وأنزله على ما يبدو في بولاق مثل قريبه السابق قرقد وكان قد حضر إلى مصر

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٥٤.

(٢) جان بلاط هو الأشرفي قايتباى، وتسلطن في ١٦ من ذى الحجة عام ٨٩٥هـ، وكانت مدة سلطنته نحو ستة شهور وأيام، ثم خلع من عرش السلطنة في ١٨ جمادى الآخرة سنة ٨٩٦هـ. انظر المقريزى، المواعظ، ج٢، ص٢٤٤.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٦٤.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٨٦.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٥٥.

فراراً من عمه سليم شاه[1]، لما تولى على مملكة الروم. وظل سليمان بك مقيماً في بولاق حتى توفى في يوم الأحد ١٨ من صفر سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م ببولاق في المكان الذي أنزلوه به كما يذكر ابن إياس، وتوفى بالطاعون، ووصف ابن إياس جنازته وصفاً تفصيلاً، ومشى الأمراء أمام جنازته من بولاق إلى حيث دفنوه بالصحراء في تربة البيجاسي، ولما علم السلطان الغوري بوفاته تأسف عليه لأنه كان حسن الشكل جميل الهيئة[2].

يتضح مما سبق أن بولاق لم تكن دار إقامة للسلاطين وذويهم ومقر للحكم فحسب بل كانت دار إقامة أيضاً للسفراء القادمين إلى مصر والوافدين إليها، فقد كان هؤلاء ينزلون بمينائها من أجل دخول القاهرة.

---

(١) هو السلطان سليم الأول بن أبي يزيد بن محمد، تاسع ملوك بني عثمان، ولد باماسيه في سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م، وجلس على تخت السلطنة، وعمره ست وأربعون سنة، ومات في سنة ٩٢٦هـ/١٥١٩م. العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٨، القاهرة ١٣٥٠هـ/١٩٣٢م، ص ١٤٣-١٤٦.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٨٩، ٣٠٣.

الفصل الرابع

دور بولاق الاجتماعي
في عصر سلاطين المماليك الجراكسة

- بولاق دار للاستشفاء.
- بولاق أجمل متنزهات القاهرة للعامة والخاصة.
- الاحتفالات في بولاق.
- الحلوى والأطعمة والأشربة.

الفصل الرابع

دور بولاق الاجتماعي في عصر سلاطين المماليك الجراكسة

بولاق دار للاستشفاء :

يتمثل هذا الدور في أن بولاق كان مكاناً للاستشفاء والتنزه للخاصة والعامة على حد سواء. فقد نزلها السلاطين وأبناءهم وزوجاتهم طلباً للاستشفاء وذلك بحكم موقعها على شاطئ النيل. ومن أشهر السلاطين الذين قضوا بها أطيب أوقاتهم السلطان المؤيد شيخ كما سبق أن ذكرنا. كذلك نزلها ولده الصارم إبراهيم في ربيع الآخر ٨٢٣هـ/١٤٢٠م حينما توعك واشتد عليه المرض، وتارة كان ينزل في قصر ابن البارزى وأخرى في قصر الباسطي وقصر الحجازية حتى وافته المنية[1].

ولما توعك السلطان جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م) وأشيع بضعفه أراد أن يقضى على هذه الإشاعة، بأن سار إلى بولاق في ٢٤ من ذى القعدة ٨٤٧هـ/١٤٤٣م وقضى بها أياماً، ثم عاد وقد امتثل للشفاء، عندئذ أيقن الناس أنه بصحة جيدة[2].

اعتادت نساء السلاطين النزول ببولاق كذلك إذا ما أصاب أحدهن مرض أو اعتلت صحتها، وقد سمح لهن السلاطين بذلك، حتى يتم شفاءهن عندما يتمتعن برؤية النيل، وذلك على الرغم من تحذير ابن الحاج من سكنى النساء على النيل،

---

(١) العيني، عقد الجمان (٨١٥-٨٢٣هـ)، ص٣٨٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٥١-٥٢، ٥٣، وانظر أيضاً ما سبق.

(٢) ابن تغري بردى، حوادث الدهور، ج١، ص٦٥؛ السخاوى، التبر المسبوك في ذيل السلوك، ج١، تحقيق نجوى مصطفى كامل ولبيبة إبراهيم مصطفى، القاهرة ٢٠٠٢م، ص١٧٧.

وذلك لأن من يقيم في دار على النيل فهو كالجالس على الطريق لأن النيل تمر فيه المراكب والسفن، والنظر منها يكشف عورات المسلمين، كما أن الجلوس في الطاقات يجعل النساء ينكشفن، علاوة على ما يشاهدونه من المغاني في الشخاتير المارة في النيل[1]. غير أن سلاطين المماليك لم يعبأوا بذلك وسمحوا لنسائهم بالنزول إلى بولاق والتمتع برؤية النيل، فعندما توعكت سورباى الجركسية حظية السلطان الظاهر جقمق، ذهبت إلى بولاق في ربيع الآخر ٨٥٢هـ/١٤٤٨م، وأقامت بقصر الحجازية على شاطئ النيل ببولاق، وظلت به أياماً حتى وافتها المنية[2]. كذلك عندما أيقن السلطان إينال (٨٥٨-٨٦٥هـ/١٤٥٤-١٤٦١م) باعتلال صحة زوجته خوند زينب، وتوعك جسدها توعكاً شديداً، سمح لها بالنزول إلى بولاق، لترى النيل حتى يذهب عنها الوخم، وأقامت خوند زينب بقصرها ببولاق وهو القطينية، وظلت به حتى امتثلت للشفاء، احتفل بذلك احتفالاً عظيماً وأحرقوا في بولاق حراقة نفط حافلة بتلك المناسبة، وتردد عليها أعيان الدولة من الأمراء والقضاة والأكابر للتهنئة، وجمع عند بابها أرباب الزمور والطبول والملاهى. ثم عادت إلى القلعة[3]. وفى أخريات أيامها أقامت في قصر الطنبدية بعد أن اشتد عليها المرض[4].

---

(١) المدخل، ج١، المطبعة المعاصرة الشريفة، سنة ١٣٢٠م، ص ١٢٠-١٢٢. أما عن الشخاتير مفردها شختور وشختورة وهى سفينة صغيرة بسار واحد في الوسط، وهى من المراكب النيلية التي كانت تستعمل في تعدية الناس في النيل، وكانت من مراكب الصيد أيضاً. لمزيد من التفاصيل انظر، درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص ٧٤-٧٥.

(٢) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج١، ص ١١٥؛ السخاوى، التبر المسبوك، ج٢، ص ١٣٤؛ وانظر ترجمتها في الضوء اللامع، م٦، ج١٢، ص ٦٦.

(٣) عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، ج٥، ص ٤٣٦؛ السخاوى، الضوء اللامع، ج١٢، ص٤٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٢٤؛ سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص١٤٤.

(٤) السخاوى، الضوء اللامع، م٦، ج١٢، ص ٤٥.

وكانت خوند فاطمة ابنة العلاى على زوجة الأشرف قايتباى، آخر من نزلت بولاق من الخوندات، فلما ثقل عليها المرض، أرسلت إلى بولاق للاستشفاء هناك[1].

أقام بعض الأمراء كذلك في بولاق خاصة في حالة إذا ما ألم بهم مرض أو اعتلت صحتهم، ففى ١٢ من المحرم عام ٨٥٦هـ/١٤٥٢م انتقل القاضى الكمال محمد بن ناصر الدين ابن البارزى[2] إلى قصره في بولاق، يطلب الراحة برؤية النيل والفضاء رغم نهيه عن ذلك لضعفه الشديد، وعدم تحمله مشقة الطريق والحركة[3]. مما يوضح أن بعض أصحاب القصور ببولاق من الأمراء لم يقيموا بقصورهم على الدوام بل اتخذوا منها استراحات وأماكن للترويح عن النفس.

توجه الأمير يونس الدوادار الكبير[4] زوج إحدى بنات خوند زينب زوجة السلطان إينال – توجه من بيته تجاه الكبش إلى قاعة قطينة المطلة على النيل ببولاق، بعد أن أصابه مرض وتمادى به، وذلك في ٥ جمادى الآخرة ٨٦٠هـ/١٤٥٥م، وتردد عليه بها أعيان الدولة وكبارها لزيارته والإطمئنان على صحته[5]. وظل الأمير يونس يقيم بقصر قطينية عشرين يوماً، حتى شفى من مرضه وعوفى، ثم عاد إلى بيته تجاه الكبش على بركة الفيل[6]، وزينت بولاق

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٦٤، ٦٥.

(٢) الكمال محمد القاضى كاتب السر بن القاضى ناصر الدين بن البارزى ت٨٥٦هـ. السيوطى، نظم العقيان، ص ١٦٨-١٧٠.

(٣) البقاعى، تاريخه، ج١، ص ١٨٢-١٨٣.

(٤) انظر ترجمة الأمير يونس الدوادار في السخاوى، الضوء اللامع، م٦، ج١١، ص٣٤٢.

(٥) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج١، ص ٥٠٨-٥٠٩.

(٦) بركة الفيل بركة كبيرة ظاهر القاهرة، وذكر ابن دقماق أنها مستديرة كالبدر، والمناظر حولها كالنجوم، ومناظر الكبش مطلة عليها. ومكانها اليوم المنطقة التي يمر فيها شارع شبرا من الجنوب إلى الشمال. انظر ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ق٢، ص٤٥؛ عبد الرحمن ذكى، القاهرة، ص ١٣٣، حاشية(١).

لركوبه، وتخلق حواشيه أي تعطروا بالزعفران ابتهاجاً بهذه المناسبة(١).

وعندما اشتد المرض على الأمير جانم الشريفي(٢) قريب السلطان الأشرف قايتباى، وتورمت قدماه، حمل في محفة، وتوجهوا به إلى بولاق، فأقام بها عدة أيام وذلك في ربيع الآخر عام ٨٨٤هـ/١٤٧٩م(٣).

هكذا كانت بولاق داراً للاستشفاء من الأمراض بالنسبة للسلاطين وذويهم وأمرائهم نظراً لوقوعها على النيل، وطيب هوائها، وجوها اللطيف، الذي يساعد المريض على استنشاق هواء صحى عليل، كما يلعب النيل دوراً كبيراً بالنسبة للمريض فبرؤيته والنظر إليه، يبرأ المريض من دائه وتتحسن صحته، ويمتثل للشفاء؛ لذلك لا عجب أن تغنى الشعراء بجو بولاق وشمسها ومائها ورباها ومن هؤلاء ابن سودون البشبغاوى فقال:

ألا يا ناس في بولاق أشياء	إذا حدثت عنها صدقونى
إذا طلعت عليها الشمس يوماً	رآها الناس فيها بالعيون
وفيها الماء فوق الأرض يمشى	نهاراً إى وليلاً في ظنونى
إذا أقعدت نزلك في رباها	فلا تختص بها يامشكاح دونى(٤).

---

(١) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج١، ص ٥١١.

(٢) جانم الشريفى قايتباى ابن أخى السلطان، بالغ في ترقيته مع صغره، فأعطاه نظر الجوالى ثم الكسوة ثم شاد الشرابخاناه، وقدمه وزوجه أخت زوجته ابنة العلاء، وولاه الدوادارية الكبرى، ومات مسموماً في ربيع الآخر سنة أربع وثمانين ثمانمائة. لمزيد من التفاصيل انظر، السخاوى، الضوء اللامع، م٢، ج٣، ص٦٤.

(٣) السخاوى، الضوء اللامع، م٢، ج٣، ص٦٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص١٥٣.

(٤) ابن سودون البشبغاوى، ديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس، ص١٨٤.

بولاق أجمل متنزهات القاهرة للعامة والخاصة :

اشتهرت بولاق أيضاً في العصر المملوكى الجركسى بكونهـا مـن أجمـل المتنزهات في القاهرة، وقصدها الخاصة والعامة للنزهة والترويح عـن الـنفس، وترددوا عليها لقضاء وقت ممتع على صفحة النيل الخالد، والتمتع بمنظره البـديع الخلاب، وهوائه العليل. وقد عبر الشعراء عن كون بولاق من متنزهات القـاهرة الشهيرة في ذلك العصر، في البيت التالي الذي جمعوا فيه أسـماء المفترجـات أي المتنزهات في القاهرة وجاء فيه.

لو لفظ مقياس منية طيب الأخـلاق وخدَّ روضة وخالوا المـشتهى بـولاق[1]

كان الناس إذا ما ذهبوا إلى بولاق للنزهة يقيمون فيها الأخصاص المصنوعة من الخوص، ويصرفون عليها مبالغ كبيرة، تصل إلى ألفين أو ثلاثة آلاف دينـار كما يذهب ابن تغرى بردى[2] وكان ذلك مبلغاً كبيراً في ذلك الحين، ولكنهم كـانوا يبالغوا في تزيين هذه الأخصاص بالرخام والـدهان البـديع، ويزرعـون حولهـا الرياحين. وكان يقيم حول هذه الأخصاص معظم النـاس مـن الباعـة والتجـار وغيرهم، ويتزاحم المتنزهون من الرجـال والنـساء، ويكـشفون سـتر الحيـاء، ويتظاهروا بكل قبيح، ويخرجوا في الفسق عن الحد كما تذكر المصادر[3]. وقد دفع ذلك الأمير أرغون العلائى[4] إلى القيام بهدم هذه الأخصاص وحرقها على حـين

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٥٨.

(٢) النجوم، ج١٠، ص ١٢٨-١٢٩.

(٣) عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، ج١، ص١٢٨؛ المقريزى، السلوك، ج٢، ق٢، ص ٧٠٣-٧٠٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٠، ص ١٢٨-١٢٩.

(٤) أرغون العلائى من مماليك الناصر محمد، استقر رأس نوبة الجمدارية عنده، ثم صار أكبـر الأمراء ومدبر الممالك في سلطنة الملك الصالح إسماعيل، واعتقل في دولة المظفر حـاجى وقتل في عام ٧٤٨هـ. لمزيد من التفاصيل انظر ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص ٣٧٦.

غفلة، وضرب جماعة وشهرهم وذلك في عام ٧٤٧هـ/١٣٤٦[١].

ولما كان النيل نعمة من الله يجب شكره عليها، فكان يجب ألا ترتكب على صفحته المنكرات وقد عبر السخاوى عن ذلك فقال: "أعلم أن هذا النيل من النعم العظام، والآيات الجسام اللائق مقابلتها بالشكر والخضوع والذكر، لا بما يفعل من الركوب في الشخاتير والتجاهر بالمناكير بحيث زيد في ذلك عن الحد وفاق عن العد"[٢].

ويشير السخاوى أيضاً في هذه العبارة إلى قيام المتنزهين بالرحلات النيلية في الشخاتير والحراريق وغيرها من المراكب والسفن النيلية، وما كان يصحبها من ارتكاب المنكرات والتجاهر بها.

أعرض الناس عن ارتكاب هذه المنكرات في عهد بعض السلاطين منهم السلطان المؤيد شيخ والسلطان جقمق، وذلك لإعراضهما عنها إعراضًا تامًا، وأمرهما الناس بترك المعاصى والابتعاد عنها، والناس على دين ملوكهم، فأثناء إقامة السلطان المؤيد في بولاق كان يقيم الاستعراضات في النيل بحراقته الذهبية وبحراريق الأمراء، ويجتمع الناس على اختلاف طبقاتهم للفرجة، ولكن دون أن يرتكبوا بساحل بولاق أي شئ من المنكرات لإعراض السلطان عنها[٣]. كذلك كان السلطان جقمق على قدم هائل من العبادة والعفة عن المنكرات، لذلك أخذ بيد من حديد على كل من يرتكبها سواء من الناس أو من أمرائه وأرباب دولته[٤].

---

(١) عبد الباسط، نيل الأمل، ج١، ص١٢٨؛ المقريزى، السلوك، ج٢، ق٢، ص ٧٠٣-٧٠٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٠، ص ١٢٨-١٢٩.

(٢) التبر المسبوك، ج١، ص ٥٢.

(٣) المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٥٠٢؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٧، ص ٣٥٤؛ وانظر ما سبق ص١٠٣.

(٤) ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٥، ص ٣٤٨.

ولكن سرعان ما عاد الناس إلى ما كانوا عليه بعد وفاتهما ففي رجب من عام ٨٦٥هـ/١٤٦٠م نصب الناس خياماً بشاطئ بولاق حتى سدوا رؤية البحر كما يذكر ابن إياس، وأقاموا فيها ليلاً ونهاراً من نساء ورجال، وهم في غاية التزخرف، والخروج عن الحد[١]. ولما كثرت المفاسد في المتنزهات أمر السلطان خشقدم (٨٦٥-٨٧٢هـ/١٤٦٠-١٤٦٧م) نُمر والي القاهرة بمنع المتنزهين من ارتكاب المعاصي، وردع المتجاهرين بها، وركب والي القاهرة في ٧ شوال سنة ٨٦٦هـ/١٤٦١م ليفعل ما أمر به السلطان، وسار إلى جهة بولاق، وعندما وصل إليها شرع في القبض على كل من وجده من المتفرجين، نساء ورجال، وأركبهم الحمير وشهرهم من بولاق إلى القاهرة، وكان من بينهم أحد أولاد قاضي القضاة شمس الدين القاياتي[٢]، وهو مستور الوجه على حمار، فاستاء لذلك الفقهاء، وشكوا الوالي للسلطان، ولكن السلطان أنصف الوالي لأنه نفذ أوامره على العامة والخاصة، وذلك حرصاً منه على وضع حد لما يرتكب من المعاصي والمنكرات في المتنزهات. ومع ذلك اتجه جماعة من الفقهاء إلى الوالي ووبخه بعضهم، وكفره البعض الآخر، فقال لهم ما معناه، "من سلك مسالك التهم اتهم، كيف يجلس ابن القاياتي بحريمه بين العوام، ويتهتك في المفترجات ؟" ثم أطلق ابن القاياتي لحال سبيله[٣].

---

(١) بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٧٣-٣٧٤.

(٢) القاياتي هو قاضي القضاة شمس الدين الشافعي، العلامة النحوي محمد بن علي بن يعقوب، والقاياتي نسبة إلى قايات من أعمال البهنسا، ولد في سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٣م، وبرع في الفقه واللغة العربية وسمع الحديث، وتولى التدريس بعدة مدارس، وولي قضاء الشافعية بمصر، وتوفي في المحرم من سنة ٨٥٠هـ/١٣٤٨م. انظر السخاوي، الضوء اللامع، م٤، ج٨، ص٢١٢-٢١٤.

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٩٤-٣٩٥؛ ج٣، ٤٢٤-٤٢٥.

كافأ السلطان خشقدم الوالى، وخلع عليه خلعة عظيمة، ونـزل بهـا، فـشق القاهرة، والمنادى ينادى أمامه بـألا يتوجـه أحـد إلـى المفترجـات، ويتجنـب القاذورات"[1]. مما يوضح حرص السلطان على عـدم ارتكـاب الموبقـات فـي المتنزهات وخاصة في بولاق، التي كانت من أشهر المتنزهات في القاهرة في ذلك العصر.

ما لبث الناس في بولاق أن عادوا سيرتهم الأولى فقد حدث في ذى الحجـة ٩١٢هـ/١٥٠٦م أن ظهرت جزيرة ببولاق تجاه ربع قانم التاجر[2]، وصارت هذه الجزيرة تزرع في كل سنة بالرياحين، واتخذها أهل بولاق متنزها، وضربوا بهـا الخيام الكثيرة، وكذلك أقاموا أخصاصاً للمتفرجين بها، وصاروا يقيمون هناك لـيلاً ونهاراً، ويقضون أوقاتاً ممتعة بها حتى منتصف الليل وقد قال بعض الشعراء فـي المعنى:

في جزيــرة بـولاق رأينـا عجبـاً	أسد ســاروا معهـم ظبـا شـاردين
حين رأينا ذيــك الوجــود الـصباح	أذهلونا خـضنا مـع الخائـضين[3].

وكان ابن سودون البشبغاوى إذا ضاق صدره وأراد أن يُسرى عـن نفـسه يذهب إلى بولاق ويقول في ذلك :

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٤٢٥.

(٢) قانم التاجر اشتراه المؤيد في سلطنته، وأعتقه، وجعله من المماليك الـسلطانية ثـم صـار خاصكيا في أيام ابنه، ثم صار من الدوادارية الصغار، ثم تأمر عشرة في أيام العزيز، ثـم جعله اينال من أمراء الطبلخاناه، وترقى في المناصب حتى تولى منصب أتابـك العـساكر، توفى في صفر سنة ٨٧١هـ/١٤٦٦م. انظر السخاوى، الضوء اللامع، م٣، ج٦، ص٢٠٠-٢٠١.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١١٠-١١١.

تجـاور بـسطة فيهـا انبـساطى	ينـادى بالخلاعـة والمجـون
عليها طاب عـيش بنـى خـضير	إذا بـرزت لبـدوهم الكمـين
لقـد أفـسدت يـا بـولاق عقلـى	وكم قد كـان أهلـى أصـلحونى[1].

كما تحدث ابن سودون عن بولاق وقال:

هـت لـى بولاقـة	يـا رايـح بـولاق
أو جـب لـى قاقـة	مـن عنـد ابـن القـاق[2].

وأغلب الظن أنه كان يقصد بالبولاقة الحشيش، خاصة وأن بولاق كان بهـا حكر يعرف بحكر واصل يزرع فيه الحشيش كما ذكر المقريزى[3]. وبطبيعة الحال كان البعض يذهب إلى تلك المنطقة لأكل الحشيش[4]، ومنهم ابن سودون الذي أعلن ذلك صراحة في البيت الذي جاء فيه لقد أفسدت يابولاق عقلى.

لم تعان أرض بولاق من ارتكاب المنكرات والمعاصى فحسب بل كانت ملاذاً لبعض اللصوص الذين كانوا يقومون بالسطو على المنازل، ففى شهر المحرم سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٣م كثر تخوف الناس من المنْسَر[5]، الذين سطوا على عدة بيوت في القاهرة، وكتبوا أوراقاً يطلبون فيها أموالاً من الأغنياء جاء فيها: "ومتى لم تبعث لنا

(١) ابن سودون البشبغاوى، ديوان نزهة النفوس، ص ١٨٦-١٨٧.
(٢) ابن سودون، ديوان نزهة النفوس، ص ٢٨٦.
(٣) المواعظ، ج٢، ص ١٢٨.
(٤) يقصد بالحشيش هنا القنب الهندي، وهو نبات عشبي خشن الملمس، ومجوف الساق، ولـه أوراق مشرشرة الحافة. وكان يعد للأكل بطرق عديدة منها القلي والطـبخ والتجفيـف ثـم التحميص والطحن وغيرها مع إضافة العسل أو السكر أو اللوز والفستق إليه. وكان يـزرع بالقاهرة في أماكن عديدة منها أرض اللوق، وأرض الطبالة وبركة الرطلي وحكر واصـل ببولاق وغيرها.
(٥) المنسر: جماعة اللصوص والسراق، المعجم الوجيز، ص ٦١٣.

ذلك كنا ضيوفك". ولم يتمكن الوالى منهم، وتصادف – كما يروى المقريزى – أنهم هاجموا بيتاً في بولاق، وكان أهله قد تلقوا إنذاراً منهم، فأستعد أهل البيت لهم، وتركوا أبوابهم مفتوحة، فدخل المنسر عند منتصف الليل، وإذا بالنشاب ينهال عليهم من كل مكان، فأصاب منهم ثلاثة، ورجع الباقي منهزمين، ولكن تتبعهم الجند، وقتلوا واحد آخر منهم، وقبضوا على ثلاثة آخرين، وقدموهم للوالى، فاعترفوا أمامه على جماعة منهم اتخذت من جزيرة بولاق موطناً، فتتبعهم الوالى، وقبض على جماعة منهم، فسمروا وشهروا[1].

كذلك كثيراً ما كان يتعرض من ينصبون خياماً أو يقيمون أخصاصاً ببولاق للنزهة – يتعرضون لهجوم المنسر عليهم وذلك على حين غرة، وينهبوا منهم أموالهم وممتلكاتهم، ويزهقون أرواح كل من يقف أمامهم ليصد اعتداءاتهم، مثلما حدث في رجب من عام ٨٦٥هـ/١٤٦٠م[2].

الاحتفالات في بولاق :

أجريت العديد من الاحتفالات في بولاق منها الاحتفال بوفاء النيل وكسر سد الخليج، وكذلك الاحتفال بدوران المحمل، ومثل هذه الاحتفالات لم يكن يعهد بها من قبل في بولاق اللهم إلا في أيام السلطان المؤيد شيخ المحمودى، الذي اتخذ من بولاق مقر للمملكة ودار إقامة. ومن ثم شهدت بولاق في أيامه الكثير من الاحتفالات كما سبق أن ذكرنا. هذا وكان يصاحب نزول السلاطين إلى بولاق سواء للاستشفاء أو للسرحة القيام بالاحتفالات وحرق النفوط وإطلاق الألعاب النارية، مع

---

(١) السلوك، ج٢، ق٣، ص ٦٤٤. والتسمير من العقوبات الكبرى في عصر سلاطين المماليك، وطريقته أن يُعرى المحكوم عليه من الثياب، ثم يربط إلى خشبتين على شكل صليب، ويطرح على ظهر جمل.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٧٣-٣٧٤.

استعراض مراكب الأسطول في بحر بولاق.

وكان الاحتفال بالانتهاء من عمارة السفن واستعراض الأسطول في بحر بولاق من أجمل وأضخم الاحتفالات التي شهدتها بولاق، فيركب الأمراء الشوانى والحراريق للعب على صفحة النيل وهى محملة بالمقاتلة والأسلحة وآلات الحرب والنفوط، ويمتلأ شاطئ بولاق بالناس، وتكرى المراكب بسعر عال، ولا يترك الزحام موضعاً لقدم، ويقضى الناس وقتاً ممتعاً بمشاهدة هذا الاحتفال.

شهدت بولاق تجمع كثير من الناس أيضاً لحضور الموالد، وأشهرها مولد سيدى إسماعيل الأنبابى الذي يقام في ١١ من المحرم من كل عام، ويشهده جمع غفير من الناس ومن الأمراء كذلك، وكان يتم الاحتفال به في جزيرة بولاق، حيث تضرب بها مئات الخيام ويجتمع ما لا يحصى من النساء والصبيان والفساق، ويحتسون الخمر ويرتكبون مختلف المنكرات، وقد عثر مرة صبيحة موالد الشيخ الإنبابى على أكثر من مائة وخمسين جرة خمر متناثرة في المزارع المجاورة، بعد أن شرب ما بها ليلة المولد، هذا خلاف "ما كان يحدث في تلك الليلة من الفساد والزنا واللواط والتجاهر بذلك"(١).

حرص الناصر محمد بن قايتباى على النزول إلى بولاق في ليلة سيدى إسماعيل الإنبابى في ٩٠٣هـ/١٤٩٧م، وهو يشق النيل في مركب ومعه بعض العوام وجماعة من أولاد عمه: جانم وأخيه جانى بك، ويحرق ببولاق حراقة نفط حافلة، ويبيت تلك الليلة في المراكب، وكانت من الليالى المشهودة في الفرجة، وقد فعل محمد بن قايتباى ذلك مراراً كما يذكر ابن إياس(٢).

---

(١) المقريزى، السلوك، ج٣، ص ٤٨٧؛ سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ٢٦٢-٢٦٤.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٣٨٩. ولمزيد من التفاصيل عن الاحتفال بهذا المولد، انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١١٤، ١٣٢، ١٥٢-١٥٣، ١٨٢.

احتفلت بولاق كذلك بمولد الشيخ سويدان المجذوب في مدرسة ابن الزمن عند الرصيف، وكان مولده حافلاً، كانت تضرب فيه الخيام الكثيرة عند المدرسة، ويقيم فيها الناس إقامة تامة لعدة أيام، حتى إنهم كانوا يطهون بداخلها طعامهم، ويذكر ابن إياس أنه حدث أثناء الاحتفال بهذا المولد في المحرم من عام ٩١٢هـ/١٥٠٦م أن امرأة كانت تطبخ داخل خيمة على شاطئ النيل، فطارت منها شرارة، فتعلقت بمركب هناك، كان فيها كتان، فاشتعلت فيها النيران، ويختم ابن إياس بقوله: "ولولا لطف الله لاحترقت الأماكن التي كانت على الشاطئ عن آخرها"[١].

وكان يصاحب الاحتفال بالموالد في بولاق نشاط جم في حركة البيع والشراء في الأسواق، وينتشر الباعة هنا وهناك، وتقام الحوانيت لسد احتياجات رواد الموالد؛ فهم عادة ما يتلهفون على الشراء من تلك الأماكن للتبرك بها[٢].

حرص بعض السلاطين على زيارة أضرحة المشايخ ببولاق ومن هؤلاء السلطان الغورى ففى سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م نزل من القلعة في ذى القعدة وبصحبته الأمراء المقدمين قاطبة، وأعيان المباشرين، وتوجه إلى بولاق، ووقف عند مدرسة ابن الزمن، وزار ضريح الشيخ سويدان المجذوب المقام بجوار المدرسة، ثم عرج على جزيرة الفيل ومنها إلى شبرا كما يروى ابن إياس[٣].

الحلوى والأطعمة والأشربة التي اشتهرت بها بولاق :

أمكن التعرف على بعض أصناف الحلوى والأطعمة والأشربة، التي اشتهرت بولاق بصناعتها وإنتاجها في العصر المملوكى الجركسى وذلك من خلال ديوان ابن سودون البشبغاوى (٨١٥-٨٦٨هـ)، الذي يحمل عنوان "نزهة النفوس

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١١٤.

(٢) انظر ما سبق ص٨٣.

(٣) بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٠٢.

ومضحك العبوس". فمن أنواع الحلوى التي اشتهرت بها بولاق (الخبيص)[١] وهو مربى ثمار طبخت بالسكر وقليل من الماء، أما عن طريقة صنعها، فكانت تصنع من دقيق السميد المغلى برطل شيرج ومعقود في أربعة أرطال سكر، ثم يضاف إليها الفاكهة واللوز. وكان يحث على أكله، ويبدو أنها كانت تعمل في العيد إذ يقول ابن سودون:

على دست الخبيص أخيه فيها   بحق العيد يا ناس أطرحونى[٢].

اشتهرت بولاق كذلك بالزلابية وفيها يقول ابن سودون:

وفيها أن زلابية تبدت   سلوا أصحابها أن يشبعونى
وإن طلبوا لها ثمناً فما لى   ولكن عندهم رهناً دعونى[٣].

هذا إلى جانب شهرتها بالكنافة ويؤكد ابن سودون ذلك في قوله:

بها كم خبلت عقلى خيوط   تمد من الكنافة في الصحون
إذا سكبوا عليها القطر أبقى   أشير بأصبعى إى قطرونى[٤].

ومدح ابن سودون بعض أنواع الفاكهة التي اشتهرت بولاق بزراعتها ومنها الموز فقال:

ويا ذا الموز فيها طبت طعما   أحبك إى ولو لم يطعمونى
متى تجرى إلى بربح أجرى   لتشفى القلب من ألم المشجون[٥].

---

(١) وقيل خبيص حلوى أقل لزوجة من الفالوذج وهى على أنواع فمنها الناعمة ومنها الرطبة، انظر نبيل عبد العزيز، المطبخ السلطانى في زمن الأيوبيين المماليك، القاهرة ١٩٨٩، ص ١٨، ١٢١.

(٢) ابن سودون البشبغاوى، ديوان نزهة النفوس، ص ١٨٥.

(٣) ابن سودون البشبغاوى، ديوان نزهة النفوس، ص ١٨٥.

(٤) ابن سودون البشبغاوى، ديوان نزهة النفوس، ص ١٨٥.

(٥) ابن سودون البشبغاوى، ديوان نزهة النفوس، ص ١٨٦.

اشتهت نفس ابن سودون إلى بعض الأطعمة ومنها السنبوسك وقد اشـتهرت به بولاق كذلك ولكن عجزه المادى حال بينه وبينها فيقول:

ويا سنبوسـك الأعـاجم مـا لـى آراهـم عنـك ظلمـاً مـانعونى[1].

ويبدو أن السنبوسك لم يكن من الأطعمة المتداولة في مصر في ذلك الحـين، وأن المصريين أخذوها عن الفرس كما اتضح من البيت السابق.

تحدث ابن سودون أيضًا عن بعض الأشربة التي شاع استخدامها في بـولاق ومنها الأقسماء وهى مشروب من السكر المكرر كما ذكر المقريـزى[2]. والفقـاع وهو شراب يتخذ من الشعير ويخمر حتى تعلو فقاعاته على سطحه، ولـه أنـواع كثيرة ويعرف بائعه باسم الفقاعى، هذا فضلاً عن الماء وقد أشار إلى توافره فـي بولاق وفى ذلك يقول:

بهـا دكـان أقـسمة عليهـا	رجـال بأقـسماهم حـاربونى
وعـن كيـزان فقـاع تحـاكى	بُزيـز أمـى بمعنـى فرقعـونى
بـلاش المـاء فيـك لكـل آت	بحمـد الله مـن عـال ودون[3].

وهكذا ألقى ديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس الضوء على بعض ألوان الحلوى والأطعمة والأشربة التي شاع استخدامها في بولاق، والتي ضنت المصادر التاريخية بذكرها.

---

(١) ابن سودون البشبغاوى، ديوان نزهة النفوس، ص ١٨٦.

(٢) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ٢١٠، وانظر أيضاً نبيل عبد العزيـز، المطـبخ الـسلطانى، ص٥٨.

(٣) ابن سودون البشبغاوى، نزهة النفوس، ص ١٨٦.

الفصل الخامس

بولاق ساحل الغلة

- سوق الغلال ببولاق والعاملين به.
- المكوس التي تجبى من ساحل الغلة. (مكس الغلة – مكس نصف السمسرة – مكس العرصة).
- دور السلاطين والأمراء في سوق الغلال.
- دور المحتسب في ساحل الغلة.
- أسباب ارتفاع أسعار الغلال وانخفاضها ونتائج ذلك.

الفصل الخامس

بولاق ساحل الغلة

كانت الغلال بكافة أنواعها كالقمح والشعير والفول والذرة تجمع من كافة أقاليم مصر شمالها وجنوبها، ويؤتى بها إلى ساحل بولاق لتقدير الضرائب عليها، لذلك أطلق عليه اسم "ساحل الغلة"(١). خاصة بعد أن أصبحت بولاق ميناء العاصمة الأول في عهد المؤيد شيخ، وشاركت الفسطاط مشاركة فعالة في تجارة الحبوب(٢)، بل استأثرت بولاق بالجزء الأكبر منها، حتى صارت الغلال لا تباع إلا في ساحل الغلة ببولاق وقد عبر ابن تغرى بردى عن ذلك بقوله: "كانت غلال الأقاليم لا تباع إلا فيه"(٣). مما يدل على أن ساحل بولاق سار أكبر وأكثر اتساعاً من ساحل مصر القديمة (الفسطاط).

وعُرف التجار الذين يأتون بالغلال إلى ساحل بولاق باسم "الجلابة"(٤) وهم الذين كانوا يقومون بشراء تلك الغلال من الأقاليم، ثم يقومون بشحنها في مراكب(٥)، من أجل بيعها في سوق الغلال بساحل بولاق، وقد أشار الرحالة طافور إلى هذه السوق، وكان قد زار مصر في عام ٨٤٠هـ/١٤٣٦م فقال: "... فأرسينا

---

(١) مكان ساحل الغلة اليوم شارع ساحل الغلال ببولاق، واستمر في هذا المكان حتى عام ١٨٩٩م حيث تم نقله إلى مكانه الحالي على النيل، وعرف باسم "ساحل روض الفرج" بشارع روض الفرج بالقاهرة؛ انظر ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص ٤٤، حاشية (١).

(٢) Ahmed Darrag, L'Egypte, p. 85.

(٣) النجوم، ج٩، ص ٤٥.

(٤) عن الجلابة انظر ابن حجر، إنباء الغمر، ج٧، ص١٨٨، ١٩٨؛ الصيرفى، إنباء الهصر، ص٢٠٥.

(٥) عن مراكب نقل الغلال انظر ما يلي، ص١٣٢-١٣٣. وانظر أيضاً:

Lapidus, The Grain Economy of Mamluk Egypt" in J. E. S. H. O, vol. 12. (1969) p. 7.

عند مينائها حيث سوق الغلال الذي يخشاه المسيحيون بكثرة"[1]. وقد حدد طـافور في عبارته هذه موضع سوق الغلال وأنه كان بميناء بولاق.وشارك الجلابـة فـي جلب الغلال إلى ساحل الغلة بعض الفلاحين من أصحاب الغلال، الذين كانوا يأتون بأنفسهم لبيع محاصيلهم في سوق الغلة دون وساطة الجلابة[2].

أما عن سفن نقل الغلال فكانت من النوع الكبير العظيم حتى أن ابن ظهيـرة شبهها (بالجبال) ترسو بشاطئ نهر النيل، وذكر أيضاً أنها مختلفة الأنواع والأشكال والأحجام، ويحمل فيها أنواع الغلات، وسائر الأرزاق، وفى كل مركب منها تمـلأ شونة من الغلال... وترص بطريقة عجيبة لا تعرف إلا في هذه الديار[3]. وذكـر البعض[4] أن حمولة بعض هذه السفن – وكانت تعرف "بالدرمونة"[5] تـصل إلـى خمسة آلاف أردب من الغلال، ومن أنواع مراكب نقل الغلال أيضاً العـشارى[6]. وكان يوضع على متن هذه السفن عدد من القادة والجنود لحماية شحنات الغـلال، لأنها قد تتعرض في طريقها لبعض الصعوبات أو المشكلات مثـل اللـصوص أو

---

(١) طافور، رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادى، ترجمة حسن حبشى، القـاهرة ١٩٦٨م، ص٦٤.

(٢) مجدى عبد الرشيد، القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٩٩م، ص١٩٤.

(٣) الفضائل الباهرة، ص ٢٠٣.

(٤) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٢٣؛ حلمى محمد سالم، اقتـصاد مـصر الـداخلي وأنظمته في العصر المماليكى، ص ١٧٢؛ قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري فـي عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٨م، ص ٨٠، ٨٧–٨٨؛ درويش النخيلـى، الـسفن الإسلامية، ص ٤٦.

(٥) الدرمونة تجمع درامين، وهى من المراكب النيلية، تتخذ لحمل الغلال خاصة غلال الأمـراء والسلاطين إلى الأهراء والمخازن الخاصة بهم. لمزيد من التفاصيل انظر درويش النخيلى، السفن الإسلامية ٤٦–٤٨.

(٦) العشارى والجمع عشاريات من المراكب النيلية أيضاً، ويجر بعشرين مجـدافاً ويقـوم بنقـل البضائع ومنها الغلال وكذلك الرجال. انظر درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص٩٥–١٠١.

سوء الطقس وغيرها، مما يتطلب الحفاظ على ما تحمله تلك السفن من غلال. وكانت هذه السفن تلقى مراسيها على ساحل بولاق ساحل الغلة، وكان عددها يتزايد بشكل كبير خاصة في موسم الحصاد فيذكر الحسن الوزان عند نزوله في ميناء بولاق "ويظهر هنا أحياناً حوالى ألف مركب في الميناء ولاسيما في موسم حصاد الحبوب "[1].

وحين تصل السفن المحملة بالغلال إلى ساحل بولاق، سواء عن طريق نهر النيل صحبة الجلابة، أو مع أصحابها من المزارعين، فإنه كان يتم تفريغها، ثم وزنها وتقدير ما عليها من ضرائب، ثم تخزينها في الشون والحواصل[2] بسوق الغلال، ولا يدخل البلد منها إلا قدر الحاجة كما يذكر البقاعى[3]. وعلى هذا كان من الضرورى أن يوجد بساحل الغلة أو بسوق الغلال الحمالون لنقل الغلال على ظهور دوابهم أو على ظهورهم إلى أماكن وزنها، وكذلك الوزانون والكيالون الذين يقومون بسحب الغلال ووزنها بعدة مكاييل، وكان لساحل الغلة ببولاق كيله الخاص به، وبعد أن يتم الوزن، يقوم أمناء الشون والكتبة بتحرير قوائم بها، تشمل وزنها وسعرها، وما هو مقدر عليها من رسوم، وذلك قبل تخزينها في الحواصل والشون[4].

---

(١) وصف أفريقيا، ص ٥٨٥؛ Lapidus, The Grain, p. 7

(٢) حواصل الغلال هي شون أو أهراء تخزن بها الغلال، وكانت في عدة أماكن بالقاهرة أهمها بولاق وتصرف منها الأطلاقات لأرباب الرواتب والخدم والصدقات وأرباب الجوامع والمساجد والجرايات. انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٧٥؛ محمد قنديل البقلى، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ١١١.

(٣) البقاعى، تاريخه، ق٢، ص ٣٦١.

(٤) عبد الحميد حامد سليمان، تاريخ الموانى المصرية في العصر العثمانى، القاهرة ١٩٩٥م، ص ١٥٧.

تعرض الغلال بعد ذلك للبيع في ساحات كبرى مخصصة لهـذا الغـرض، يطلق عليها اسم العرصات أو العراص، وهى عبارة عن مكان فسيح بين الدور لا بناء فيه. وقيل كل بقعة ليس فيها بناء فهى عرصة[1]. وقد استأثرت بولاق بعـدد كبير من العرصات، وكان يوجد بها حواصل الحبوب ومخازنها وشونها[2]. وتحدث الرحالة **Francesco Suriano** الذي زار مصر في عام ٩٠٠هـ/١٤٩٤م عن هذه العرصات فذكر أن الغلال ترص في العرصات وفى ساحات مفتوحة من الـصباح وحتى المساء، وربما كانت هذه الساحات مفتوحة حتى لا تتعرض للحريق[3]. وتقام هذه الساحات على أرصفة ميناء بولاق، ليس فقط لتسهيل الحصول على الضرائب، بل لإمكان وضع الاعتبارات الخاصة بالعرض والطلب، إلى جانب تحديد الأسعار المناسبة للبيع والشراء[4].

يأتى دور السماسرة والدلالون بعد ذلـك، ومهمـتهم التوفيـق بـين البـائع والمشترى، والساعى للواحد منهما على استجلاب الآخر، ويوفق بينهما مقابل رسم يسمى "بالسمسرة". وقد اهتم المماليك بعمل السمسار ليس تسهيلاً للمعـاملات بـين الناس فحسب، وإنما ليحصلوا من وراء ذلك على نصف ما يأخذه السمسار من مال نظير مزاولة عمله[5].

---

(١) المقريزى، السلوك، ج٤، ق٢، ص ٦٩٣، حاشية (١)؛ محيط المحيط.

(٢) عن وصف أحد ساحات بيع الغلال ببولاق انظر وثيقة وقف رقم ٦٦٦ ج أوقـاف؛ أندريـه ريمون، الحرفيون والتجار في القاهرة، ج١، ترجمة ناصر أحمد إبراهيم، ص ٤١٩.

(٣) نقلا عن:
Dopp., "Le Caire Vu Par Les Voyageurs Occidentaux du Moyen Age", dans Bulletin de la Société Royale de Geographie d'Egypte, T. XXIV, Sept., 1954, p. 30.

(٤) Lapidus, The Grain Economy, p. 9–10.

(٥) البيومى إسماعيل، النظم المالية في مصر والشام، القاهرة ١٩٩٨م، ص ١٩٤.

يتضح مما سبق أن ساحل الغلال ببولاق، كان مصدراً هاماً من مصادر الدخل، بل من أهم الجهات التي تحصل الدولة منها أموالاً كثيرة فيذكر المقريزى "مكس ساحل الغلال، كان جل متحصل الديوان (أي ديوان الخاص السلطانى) وعليه إقطاعات الأمراء والأجناد، ويتحصل منه في السنة أربعة آلاف ألف وستمائة ألف درهم، وعليه أربعمائة مقطع لكل منهم من عشرة آلاف إلى ثلاثة آلاف، ولكل من الأمراء من أربعين ألفاً إلى عشرة آلاف درهم"[1]. ويذكر أيضاً "وكانت جهة عظيمة لها متحصل كثير جداً، وينال القبط منها منافع كثيرة لا تحصى"[2].

وتتمثل هذه الأموال فيما كان يفرض في ساحل الغلال من مكوس من أهمها : مكس ساحل الغلة، مكس نصف السمسرة، ومكس العرصة.

أما عن **مكس ساحل الغلة** فهو مبلغ مقرر على ما يباع من الغلال بالساحل، وكان مقرر الأردب[3] درهمين للسلطان، ويلحقه نصف درهم، غير ما ينهب ويسرق[4]. وكان هذا المكس مصدر شكوى مستمرة ممن يدفعونه لما يحل بهم من بلاء شديد، وتعب عظيم لكثرة المغارم والظلم، فإن مظالمه كانت تتعدد ما بين: نواتية تسرق، وكيالين تبخس، وشادين وكتاب يريد كل منهم شيئاً كما تذكر

---

(١) المقريزى، المواعظ، ج١، ص ٨٨، وانظر أيضاً ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص ٤٤.
Nelly Hanna, An Urban History of Bulaq, p. 25–26.

(٢) المواعظ، ج١، ص ٨٩؛ وانظر أيضاً ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص ٤٥.

(٣) الأردب مكيال مصرى للحنطة يتألف من ٦ ويبات، وكل ويبة ٨ أقداح كبيرة أو ١٦ قدحاً صغيراً؛ ويصعب تحديده بدقة. فالترهنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٥٨.

(٤) المقريزى، المواعظ، ج١، ص ٨٩؛ السلوك، ج٢، ق١، ص ١٥٠.
Lepidus, "The Grain. Economy of Mamluk Egypt" in Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol. XII, Part 1, Brill-Leiden Junuary 1969, Note I p. 7–8.

المصادر[1]. ولعل ذلك ما دفع الناصر محمد بن قلاوون إلى إبطال هذا المكس في شعبان من عام ٧١٥هـ/١٣١٥م، وإزال هذا الظلم جميعه عن الرعية؛ وزالت بذلك هذه الظلمة الظلامة عن أهل مصر[2]. ويذكر ابن أيبك، أن هذا المكس كانت له عدة فروع وهي: الخروبة[3]، والثمن[4]، والوزانة، والقداحة[5]، والسمسرة واللقطة، وقد ألغاها الناصر محمد جميعها في عام ٧١٥هـ/١٣١٥م[6].

ما لبث هذا المكس أن عاد ثانية في عهد الناصر محمد بن قلاوون بعد إبطاله، مما دفع الناصر محمد بن قلاوون إلى إصدار أمر جديد بإلغائه مرة أخرى، إذ يذكر ابن حبيب في حوادث عام ٧٢٤هـ/١٣٢٣م "رسم السلطان بإبطال مكس الغلة بالديار المصرية والبلاد الشامية، وكان مبلغاً عظيماً"[7]. ولا تذكر المصادر شيئاً عن مكس ساحل الغلة بعد ذلك إلا في عصر الظاهر برقوق حيث يذكر ابن حجر في حوادث سنة ٧٩٩هـ/١٣٩٧م في ربيع الأول منه أن بدر الدين محمد بن

---

(١) المقريزى، المواعظ، ج١، ص ٨٩؛ السلوك، ج٢، ق١، ص ١٥٠؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص ٤٥.

(٢) المقريزى، المواعظ، ج١، ص ٨٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص ٤٤، ٤٥؛ النويرى، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣٢، ص ٢٢٧.

(٣) الخروبة هي مكيال في مصر = ١/١٦ من القدح. انظر فالترهنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٦٢.

(٤) الثمن كان يساوى في مصر ١/٨ قدح. انظر فالترهنتس، المكاييل والأوزان، ص ٦١.

(٥) القداحة من القدح وهو مكيال مصرى له حجمان "القدح الصغير" وكان كل ١٦ منه تساوى وبية، وكل ٩٦ منه تساوى أردبا، و "القدح الكبير" وكان كل ٨ منه تساوى وبية، وكل ٤٨ تساوى أردباً. فالترهنتس، المكاييل والأوزان، ص ٦٥.

(٦) ابن أيبك الدوادار، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ج٩ من كنز الدرر، تحقيق هانس روبرت رويمر، القاهرة ١٩٦٠م، ص ٢٨٦.

(٧) تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٢م، ج٢، ص١٤٢.

محمد الطوخى (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م) تولى الوزارة في هذا العام، وفى ولايته هذه أبطل مكس الغلة[1]. مما يدل على أن مكس ساحل الغلة عاد ثانية بعد أن ألغاه السلطان الناصر محمد بن قلاوون للمرة الثانية في عام ٧٢٤هـ/١٣٢٣م؛ مما دفع الوزير بدر الدين محمد إلى القيام بإلغائه. ولكن يبدو أنه عاد مرة أخرى بدليل أن ابن إياس يذكر أن الأشرف قايتباى أبطله[2].

استمر مكس ساحل الغلة في دائرة الإلغاء حتى عام ٩٠١هـ/١٤٩٥م إذ يذكر ابن إياس أن السلطان (الناصر محمد بن قايتباى) أحدث مكساً على بيع الغلة، وجعل على كل أردب نصف فضة، ولم يعهد هذا قبل ذلك، وكانت هذه الفعلة من أقبح مساوئه[3]. وعاد ابن إياس وذكر في موضع آخر أن السلطان أحدث مكساً على بيع الغلال، وجعل على كل أدرب قمح أو شعير نصف فضة خارجاً عن ثمنه، لمن يشترى أو يبيع، وقد تزايد الأمر بعد ذلك إلى أن صارت نصفين[4]. يتضح من عبارات ابن إياس أن مكس ساحل الغلة كان قد ألغى تماماً في عهد السلطان قايتباى، مما جعله يذكر أن السلطان الناصر محمد بن قايتباى استحدث هذا المكس، ولم يعهد هذا قبل ذلك، لأنه صار يفرض على البائع والمشترى.

ولما تولى السلطان الغورى عرش السلطنة تزايد الأمر حتى صار يؤخذ على كل أردب غلال ثلاثة أنصاف من البائع والمشترى، وصار يسمى الموجب، واستمر ذلك مدة حتى أبطل السلطان الغورى في صفر من عام ٩١٩هـ/١٥١٣م ما كان يؤخذ على مشترى كل أردب من الغلال موجب، فكان يؤخذ نصف فضة

(١) إنباء الغمر، ج٣، ص ٣٢١، وانظر أيضاً الصيرفى، نزهة النفوس، ج١، ص ٤٤٦، ٤٦٥.
(٢) بدائع الزهور، ج٥، ص ١٤.
(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٣١٥.
(٤) بدائع الزهور، ج٣، ص ٣٣١.

على كل أردب قمح، ثم صارت نصفين موجب وكيالة[1]، فتصل إلى ثلاثة أنصاف فضة على كل أردب، فلما أمر السلطان الغوري بإبطال هذا المكس ارتفعت له الأصوات بالدعاء، وانطلقت له النساء بالزغاريت[2]. ولكن ما لبث مكس ساحل الغلة، الذي أصبح يسمى بالموجب أن عاد ثانية، مما دفع السلطان إلى أن يصدر أمراً بأن ينادى في ٢٥ من المحرم عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م في بولاق بأن المكوس التي كانت تؤخذ على الغلال بطالة، أي أنه ألغى مكس ساحل الغلة[3]. وظل مكس الغلة مبطلاً حتى نهاية عصر سلاطين المماليك.

مكس نصف السمسرة :

حرص سلاطين المماليك على تحصيل مكس نصف السمسرة، ويقصد به نصف ما يحصل عليه السمسار من مال نظير مزاولة عمله، كما سبق أن ذكرنا، ويعد ناصر الدين محمد بن عبد الله الشيخي[4] والى القاهرة، أول من أحدث مكس نصف السمسرة، وذلك أثناء توليه الوزارة في عام ٧٠٣هـ/١٣٠٤م، إذ أمر بأن كل من باع شيئًا، فإن دلالة كل مائة درهم درهمان، يؤخذ منها درهم للسلطان، فصار السمسار أو الدلال، يحسب حسابه، ويجتهد حتى يحصل على حصته، وتصير الغرامة على البائع، أي سعى السمسار من أجل استخلاص درهمه قبل درهم السلطان، وذلك على حساب البائعين؛ فتضرر الناس من ذلك، وأونوا، حتى

---

(١) كيلة وهذا المكيال في مصر يساوى ثمانية أقداح. فالترهنتس، المكاييل والأوزان، ص ٧٢.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٣٠٤؛ ج٥، ص ١٤.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ١٤.

(٤) هو ذبيان الماوردى الشيخى ناصر الدين والى القاهرة، توصل إلى خدمة بيبرس الجاشنكير وتقرب منه إلى أن ولاه ولاية القاهرة، ثم ترقى إلى أن ولى الوزارة، توفى في ذى القعدة سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م. لمزيد من التفاصيل انظر ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٢، ص ١٩٥-١٩٦.

أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بإبطال هذا المكس في عام ٧١٥هـ/١٣١٥م مع ما أبطله من مكوس في هذا العام، وذلك على الرغم من إنه كان يتحصل من هذا المكس جملة كثيرة، عليها عدة مقطعين[1].

ظل السمسار يمارس عمله بعد وفاة السلطان الناصر محمد وحتى عصر السلطان برقوق، وكان يأخذ من المبتاعين للغلال عن كل أردب درهمين كسمسرة وكيالة منها درهم للدولة، فأبطل ذلك السلطان برقوق، ولم يلبث السلطان برقوق أن توفى، فعادت السمسرة من جديد في عهد ابنه السلطان فرج وتحديداً في ذى الحجة ٨٠١هـ/١٣٩٩م، إذ أحضر يلبغا السالمى الاستادار[2] السماسرة، وقرر لهم عن كل أردب نصف درهم من غير زيادة على ذلك من السمسرة والكيالة والأمانة وشدد عليهم في ذلك[3]. ومنذ ذلك الحين ظل مكس السمسرة سارياً طوال عصر سلاطين المماليك دون أن يتعرض للإلغاء ثانية، ولكن يبدو أنه ارتفع فيذكر المقريزى في حوادث عام ٨١٨هـ/١٤١٥م أن السمسار لا يأخذ إلا عشرة دراهم، بعدما كانت سمسرته خمسة دراهم. مما يوضح أن السمسرة ارتفعت من درهمين ونصف إلى خمسة دراهم ثم إلى عشرة دراهم[4].

أوردت المصادر بعض أسماء سماسرة الغلال بساحل الغلة ببولاق، ومن

---

(١) المقريزى، المواعظ، ج١، ص ٨٩؛ السلوك، ج٢، ق١، ص ١٥٠-١٥١؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص ٤٥-٤٦؛ النويرى، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣٢، ص ٢٢٧؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، ج٢، ص ١٥٥.

(٢) هو أبو المعالى السالمى الظاهرى برقوق، ويذكر أنه سمرقندى، وأنه جلب إلى مصر مع تاجر اسمه سالم، واشتراه برقوق، وصيره خاصكيا، ثم تدرج حتى وصل إلى استادار، ثم قرر في الوزارة سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م، ثم قبض عليه. انظر السخاوى، الضوء اللامع، م٥، ج١٠، ص ٢٨٩-٢٩٠.

(٣) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ٣٥-٣٦؛ البيومى إسماعيل، النظم المالية، ص ١٩٤-١٩٥.

(٤) السلوك، ج٤، ق١، ص ٣٣٣.

هؤلاء: "والد شهاب الدين أحمد بن المحمرة"[1] وعمه، لذلك كان يعرف بابن السمسار، لكون أبيه وعمه كانا من سماسرة الغلال بساحل بولاق[2]. ومن سماسرة الغلال أيضاً بساحل الغلة ببولاق "عبد الرحمن السمسار"[3] الذي استدعاه السلطان المؤيد شيخ المحمودى في شوال من عام ٨١٧هـ/١٤١٤م هو والخازندار مرجان[4]، وأعطاهما مالاً جزيلاً وأرسلهما إلى الصعيد لشراء القمح، بعد أن تعرضت البلاد للقحط وارتفع سعر القمح، وتزاحم الناس على الخبز في الأسواق، وقل الواصل من قمح الوجه البحرى بسبب الفأر الذي تسلط على الزرع في هذه السنة[5].

وكان عبد الرحمن السمسار هذا على درجة كبيرة من الثراء، ميالاً إلى فعل الخير إذ يذكر ابن حجر في حوادث رمضان سنة ٨٢٥هـ/١٤٢١م إنه اشترى

---

(١) يعرف بابن المحمرة وهى أمه، نسبت إلى التحمير من الحمرة، ويعرف أيضاً بابن السمسار، ولد في سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٧م، وتوفى في سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م. لمزيد من التفاصيل انظر السخاوى، الضوء اللامع، ج٢، ص ١٨٦-١٨٧؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج٢، ص ١٤٦-١٤٧.

(٢) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٨، ص ٩٠. وذكر المقريزى أن أباه كان سمساراً في الغلال بساحل بولاق، أما عمه فكان طحاناً. انظر السلوك، ج٤، ق٢، ص ٦٩٩.

(٣) كانت له شهرة في طائفته، ومال جم، ومات في عام ٨٢٤هـ. المقريزي، السلوك، ج٤، ق٢، ص٥٩٧.

(٤) مرجان بن عبدالله الهندي المؤيدي الخازندار ت ٨٣٣هـ/١٤٢٩م. انظر ترجمته في ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١١، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ٢٠٠٥م، ص٢٣٥-٢٣٦؛ والخازندار هو الذي يتولى أعمال خزانة السلطان أو الأمير أو غيرهما، وفى عهدته ما بها من أموال وغلال. انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٦٢-٤٦٣؛ محمد قنديل البقلى، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ١١٣.

(٥) لمزيد من التفاصيل انظر ابن حجر، إنباء الغمر، ج٧، ص ١٨٥-١٨٨؛ العيني، عقد الجمان (٨١٥-٨٢٣هـ)، ص٢٤٢.

داراً بشاطئ النيل، وزخرفها وأتقنها، وأنفق عليها أكثر من خمسة آلاف دينار، ووقفها على جهات، وجعل صورة الوقف في خشب محفور فيه يقرأه كل واحد، غير أنه توفى في ذات العام، وكان مديناً للسلطان برسباى، فأمر الأخير بهدم دار عبد الرحمن السمسار، فهدمت وبيع رخامها وخشبها وإنقاضها لتسديد دينه للسلطان وذلك رغم كونها وقفاً[1].

وكانت هناك وظيفة كاتب السمسرة، إذ ذكر ابن حجر في حوادث سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م اسم عبد الله العمرى كاتب السمسرة وعرفه بقوله: والد صاحبنا شمس الدين العمرى موقع الدست[2]. وذكر المقريزى في وفيات عام ٨٢٩هـ/١٤٢٥م شمس الدين محمد بن جمال الدين بن محمد المعروف بابن كاتب السمسرة[3].

مكس العرصة :

كان يؤخذ على العراص أو العرصات — وهى تلك الساحات الواسعة التي تعرض فيها الغلال للبيع — مكسًا عرف باسم (مكس العرصة) وقد أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بإبطاله كذلك، مع ما أبطله من مكوس (٧١٥هـ/١٣١٥م)[4]. ولكنه ما لبث أن عاد ثانية بعد وفاته، إذ يذكر ابن حجر في حوادث ٨٠١هـ/١٣٩٩م " أبطل يلبغا السالمى الاستادار مكس العرصة ... وكتب

---

(١) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٧، ص ٤٥٧-٤٥٨؛ محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، القاهرة ١٩٨٠، ص ٣٥٩.

(٢) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٧، ص ٢٢٧. وموقع الدست هو الذي يوقع على القصص أي الشكاوى. وعنه انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج٥، ص ١٤٤؛ البقلى، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٣٣٥.

(٣) السلوك، ج٤، ق٢، ص ٧٣١.

(٤) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج٢، ص ١٥٥.

به مرسوماً .... ورفع الظلم عن الناس أجمعين"[1]. ولم تذكر بشأنه المصادر شيئاً بعد هذا التاريخ.

لم تقتصر مكوس سوق الغلال على مكس ساحل الغلة، ونصف السمسرة والعرصة، بل كان يلزم أرباب الغلال في أوقات معينة خاصة في حالات هجوم الأعداء على البلاد – بدفع ضرائب أخرى من أجل إعداد الجيش وإرساله لمحاربتهم، ففى عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م حينما استعد تيمور لنك للهجوم على بلاد الشام، الزام يلبغا السالمى الاستادار أرباب الغلال المحضرة للبيع في المراكب بسواحل القاهرة وخاصة بولاق، أن يؤخذ منهم عن كل أردب درهم، كما يذكر ابن تغرى بردى[2].

دور السلاطين والأمراء في سوق الغلال ببولاق :

تركزت تجارة الغلال في أيدى السلاطين، الذين استطاعوا من خلال المكوس المفروضة على الغلال، أن يتحكموا في الكميات الضخمة من الغلال، ومن ثم يصبحوا هم أصحاب معظم الغلال في مصر، وقد حرص السلاطين على تخزين كميات من الغلال كإحتياطى، يمكن من خلاله سد حاجاتهم وحاجات مماليكهم وموظفيهم وحاجات سكان القاهرة كلها من الخبز طول العام. لأن منهم من اعتبر أن واجبه يحتم عليه توفير الخبز بمقادير كافية لإتباعه، ومن ثم كان من الضرورى التحكم في تدفق كميات الغلال، وتوزيعها توزيعاً مناسباً. وقد شعر عدد من السلاطين بحاجة الناس إلى الغلال في وقت الأزمات، وحاولوا إتخاذ خطوات إيجابية من أجل سد النقص أو العجز من القمح بالذات[3]. ومن الإجراءات التي

(١) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ٣٥.

(٢) النجوم الزاهرة، ج١٢، ص ٢٤٧-٢٤٨.

(٣) Boaz Shoshan, "Grain Riots and the Moral Economy": Cairo 1350–1517", in Journal of Interdiscrplinary History, vol. 10. Issue 3 (Winter 1980) pp. 462, 465; Lapidus, the Grain Economy, p. 3–4.

اتخذها بعض السلاطين في حالة اشتداد الأزمة ما يلي :

أولا: الأمر بفتح الشون السلطانية والبيع منها بسعر أقل من سعر السوق، وهناك الكثير من الأمثلة على ذلك، فعندما ارتفعت أسعار القمح في عام ٧٣٦هـ/١٣٣٦م، خاف السلطان الناصر محمد بن قلاوون عاقبة ذلك وأمر بفتح حواصله وشونه، وباع الأردب بخمسة وعشرين درهماً، وهو سعر أقل من السعر المتداول في السوق، وكان ثلاثين درهماً الأردب. لذلك ندم من خزن الغلال وخاصة القمح أما للمؤنة أو التجارة بعد أن رخص سعره[١].

وفى ذى الحجة من عام ٨٣١هـ/١٤٢٧م أمر السلطان بوسباي بفتح الشون السلطانية وغيرها، والبيع منها، مما ترتب عليه انفراج الأزمة، وانخفض سعر القمح ليصل إلى مائتين وعشرين درهماً بعد أن بلغ ثلاثمائة وخمسين[٢]. وكذلك فعل السلطان برسباى نفس الشئ في عام ٨٣٩هـ/١٤٣٥م عندما غلا سعر القمح، وقل الخبز في الحوانيت، وضجت العامة[٣]. وفى عام ٨٥٥هـ/١٤٥١م أمر السلطان جقمق ببيع القمح من شونته كل أردب بألف، ونادى بذلك، فسر الناس بذلك، وباعوا بنفس السعر الذي باع به السلطان، وكان أقل من سعر السوق في ذلك الوقت[٤].

وعندما ارتفع سعر القمح إلى سبعمائة درهم كل أردب في ذى الحجة ٨٧٢هـ/ يوليو ١٤٦٨م، فتح السلطان قايتباى شونه، وباع منها بأقل من سبعمائة، كما أمر السلطان قايتباى في رمضان ٨٧٤هـ/ مارس ١٤٧٠م

---

(١) المقريزى، السلوك، ج٢، ق٢، ص ٣٩٤؛ إغاثة الأمة، ص ٤٠؛ ابن حجر، إنباء، ج٨، ص٢٩٦.

(٢) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٨، ص ١٤٨.

(٣) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٨، ص ٣٧٤.

(٤) السخاوى، التبر المسبوك، ج٣، ص ٨٩-٩٠.

بفتح اثنتين من شونه ببولاق، وباع الغلال بسعر ألف درهم فلوس الأردب، وهو سعر أقل من السعر المتداول بالسوق، وهو أربعة دنانير (١٣٠٠ درهم للأردب) ففرح الناس وابتاعوا ودعوا للسلطان[١]. كذلك نزل السلطان قايتباي في عام ٨٧٧هـ/١٤٧٢م إلى بولاق، وأمر بفتح شونة من شونه، وأمر بأن ينادى بأن لا يباع الأردب من القمح بأزيد من دينار، لذلك توافر القمح في السوق، بعد أن كاد يعدم، وحصل بذلك النفع للناس كما يذكر عبد الباسط بن خليل[٢]. كذلك فعل ذات السلطان في أزمة المحرم عام ٨٩٢هـ/ ديسمبر ١٤٨٦م حينما ارتفع سعر القمح ارتفاعاً باهظاً، إذ أمر بفتح عدة شون، وباع منها القمح بسعر خمسة أشرفية كل أردب، وكان الأردب قد وصل إلى ستة دنانير، وهدد بمعاقبة من يعصى تنفيذ هذا الأمر من أصحاب الغلال[٣].

ثانيا: الإرسال في شراء القمح وجلب الغلال من الصعيد مثلما فعل السلطان المؤيد شيخ المحمودى، فعندما اشتدت الأزمة في عام ٨١٧هـ/١٤١٤م وقل المعروض من القمح، وارتفع ثمنه، تصدى السلطان المؤيد شيخ للنظر في أمر القمح بنفسه، وجهز مرجان الخازندار وعبد الرحمن السمسار بمال جزيل، وأرسلهما إلى الصعيد لشراء القمح، وحثهم على ضرورة إحضاره بسرعة من أجل أن يكثر بالقاهرة ويقل الزحام على الخبز[٤]. وعندما قدم

---

(١) الصيرفى، أنباء الهصر، ص ١٦٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١٦-١٧، ص ٤٣؛ آدم صبره، الفقر والإحسان في مصر عصر سلاطين المماليك ١٢٥٠-١٥١٧م، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة ٢٠٠٣م، ص ٢٥٥.

(٢) نيل الأمل، ج٧، ص ٥٤-٥٥.

(٣) انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٣٧-٢٣٨ وانظر أيضاً:
Boaz Shoshan, Grain, p. 466.

(٤) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٧، ص ١٨٨؛ المقريزى؛ السلوك، ج٤، ق١، ص ٣٤٣؛ العيني، عقد الجمان (٨١٥-٨٢٣هـ)، ص٢٤٢.
Lapidus, The Grain Economy, p. 5,6 .

مرجان الخازندار من الصعيد، ومعه كميات كبيرة من الغلال، أمر السلطان أن يبيع ما اشتراه بالسعر الحاضر أي بسعر السوق، ولو خسر النـصف[1]. مما يظهر رغبة السلطان الشديدة في حل الأزمة. كذلك عاود السلطان المؤيد الكرة ثانية في عام ٨١٩هـ/١٤١٦م، حيث بعث بمال مع المحتـسب بـدر الدين العينتابى ليشترى القمح من الوجه القبلى، ويسير به إلى القاهرة توسعة على الناس[2].

ثالثاً: إجبار الأمراء على فتح شونهم وعرض ما بها من قمح وغلال للبيع بـسعر معقول. ففى غلاء عام ٧٣٦هـ/١٣٣٦م امتنع الأمراء عن بيع القمح طلبـاً للفائدة فأمرهم السلطان الناصر محمد بأن يفتحوا الـشون، ويبيعـوا الأردب بثلاثين درهما، وكان سعره قد وصل سبعين درهما الأردب، ومن باع بأكثر من ذلك نهب ماله، وطلب من الأمراء ألا يخالفوا ذلك[3]. وتكرر ذلـك فـي عام ٧٩٦هـ/١٣٩٤م عندما نودى بفتح شون الأمراء والبيع منها بسعر الله تعالى، وهدد بالنهب من لا يفتح مخازنه ويبيع منها، ففتح مباشرو الأمـراء شونهم، وباعوا الغلال المخزونة لديهم خوفاً من نهبها، ولذلك انحل السعر أي انخفض[4].

أمر السلطان جقمق كذلك في رجب من عـام ٨٥٤هـــ/١٤٥٠م صـهره ومملوكه الأمير أزبك بن ططخ الساقى الظاهرى، والأمير جانبك اليـشبكى والـي القاهرة بأن يتوجها إلى ساحل بولاق، ويجلسا على باب شونة الأمير زيـن الـدين

---

(١) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٧، ص ٢٠٥، وانظر أيضاً:
Boaz Shoshan, Grain Riots, p. 467.

(٢) المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٣٤٣.

(٣) المقريزى، السلوك، ج٢، ق٢، ص ٣٩٤؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج٢، ص ١٦٥.

(٤) المقريزى، السلوك، ج٣، ص ٨١٨.

الاستادار، ويشرعا في بيع ما فيها من الغلال بستمائة درهم الأردب، توجه الأميران بالفعل إلى ساحل بولاق، وفعلاً ما أمرهما به السلطان جقمق، وداما هناك أياماً[1]. كذلك أمر السلطان قايتباى في ٨٩٠هـ/١٤٨٥م الأمراء من أصحاب الغلال ببيعها بسعر أقل من سعر السوق، وهدد بمعاقبة من يعصى تنفيذ هذا الأمر منهم[2].

يتضح مما سبق أن بعض السلاطين لعبوا دوراً هاماً في تحديد أسعار بيع الغلال وخاصة القمح في الأسواق، وذلك حرصاً منهم على ضرب الاحتكار، وحل الأزمات الاقتصادية الناجمة عن نقص الغلال في سوق الغلال ومعاناة الناس من جراء ذلك.

ولكن إذا كان هناك من السلاطين من حرص على حل الأزمات الناجمة عن اختفاء الغلال وارتفاع أسعارها بشتى الوسائل، إلا أن هناك من السلاطين من كان يسعى لشراء الغلال لكونها رخيصة، وعندما ترتفع أسعارها يقوم ببيعها مما يعود عليه بالنفع والفائدة، ومن هؤلاء السلطان برسباى، ففى شوال من عام ٨٣٥هـ/١٤٣١م صدرت الأوامر السلطانية الشريفة إلى أعمال مصر بشراء غلال الناس للسلطان، فإنها رخيصة مع توقع زيادة النيل وارتفاع الأسعار، وألزم سماسرة الغلة بساحل مصر وساحل بولاق أن لا يبيعوا لأحد شيئاً من الغلال، حتى يتكفى السلطان برسباى، وقد دفع ذلك العامة والخاصة إلى شراء الغلال، فنشطت حركة البيع فيها، بعد أن كانت كاسدة منذ أشهر، وارتفعت أسعارها[3]. كذلك حدث

---

(١) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج١، ص ٢٣٥.

(٢) Boaz Shoshan, Grain Riots, p. 467.

(٣) المقريزى، السلوك، ج٤، ق٢، ص ٨٧٢؛ الصيرفى، نزهة النفوس، ج٣، ص ٢٣٩؛ Ahmed Darrag, L'Egypte, p. 152.

في عام ٨٤٠هـ/١٤٣٦م أن رخص سعر القمح في الأسواق، فأمر السلطان برسباى بشرائه وحرزه أو تخزينه، فنتج عن ذلك ارتفاع سعره[١].

ولجأ بعض السلاطين كذلك إلى نظام الطرح على التجار، أي فرض الغلال على التجار غصباً بأسعار مرتفعة عن سعر السوق، يحددها السلطان وهو ما عرف بـ "رمى البضائع أو طرح البضائع" وقد أدى ذلك إلى إلحاق الضرر بتجار الغلال إذ كانوا يبيعونها بالخسارة. ففى صفر ٨٣٨هـ/ أكتوبر ١٤٣٤م طرح من شون السلطان برسباى عشرة آلاف أردب من الفول على أصحاب البساتين والمعاصر وغيرها، بسعر مائة وخمسة وسبعين درهماً من الفلوس كل أردب. ونتيجة لذلك نزل بالناس كما يذكر المقريزى منه خسارات متعددة، لا من زيادة السعر، بل من كثرة الكلف[٢]. وبذلك سعى السلطان برسباى إلى استغلال أمواله بتشغيلها في تجارة الغلال أملاً في الكسب والحصول على الفائدة، ونافس بذلك أرباب التجارة في أرزاقهم، وألحق بهم الضرر.

تركزت تجارة الغلال أيضاً في أيدى عدد من الأمراء من ذوى النفوذ وأصحاب السلطة، بدليل ما ذكره المقريزى من أن "أكثر الغلال إنما هي للأمراء"[٣]. فقد أحضروا كميات ضخمة من الغلال من الوجه القبلى إلى بولاق وجمعوها في أهراء ضخمة وحواصل كبيرة وشون، وذلك للسيطرة على تلك التجارة وتضييق الخناق على التجار والتحكم في الأسعار، عن طريق الامتناع عن بيع ما لديهم من غلال في الأسواق[٤]. وعندما يشح وجود القمح على سبيل المثال

---

(١) المقريزى، السلوك، ج٤، ق٢، ص ١٠٠٤؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٨، ص ٤١٩.

(٢) المقريزى، السلوك، ج٤، ق٢، ص ٩٣٣.

(٣) السلوك، ج٢، ق٢، ص ٣٩٤.

(٤) أشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعى للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادى عبله، ص ٤١٢.

في الأسواق يبيعونه بالسعر الذي يحددونه. فيشير ابن تغرى بردى إلى أن أمــراء السلطان فرج بن برقوق بذلوا جهدهم في ارتفاع الأسعار بخزنهم الغــلال وبيعهــا بالسعر الكثير وذلك في سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٦م[1]. غير أن بعض السلاطين كــانوا لهؤلاء بالمرصاد في حين حاكاهم البعض الآخر كما سبق أن ذكرنا. فحــدث فــي صفر من عام ٨٢٩هـ/١٤٢٥م أن أحد أمراء الألوف لما بلغ سعر القمح مــائتين وخمسين درهماً الأردب قال: "لا أبيع قمحى إلا بثلاثمائة درهم الأردب "[2]. ونتيجة لذلك اشتدت حدة الأزمة، وتزايدت ندرة القمح بعد أن امتنع السلطان برسباى عــن البيع من حواصله لقلة ما عنده من قمح، لذلك أمل الأمراء أن يبيعوا – كما يــذكر المقريزى – البر (أي القمح) بالدر"[3].

لجأ بعض الأمراء كذلك إلى التلاعب في وزن الغلال ومن هــؤلاء الــوزير تغرى برمش، وناظر الدولة شرف الدين الصغير، فقد كانا يشتريان الغــلال مــن الأقاليم بالكيل الكبير، ويصرفونهما من الشون بالكيل المصري، فغــضب عليهمــا السلطان الغورى، وألزمهما بدفع عشرة آلاف دينار يردونها للخزائن الشريفة وذلك في شوال من عام ٩١٢هـ/١٥٠٧م[4].

تعاون التجار الأغنياء مع الأمراء الذين سيطروا على تجارة القمح في جلب شحنات كبيرة من قمح الصعيد إلى شاطئ القمح في بولاق، حيــث وضــعت فــي مخازن الأمراء وشونهم، وبالتالي أصبح مجال مشاريع التجار أكثر محدودية مــن

---

(١) النجوم، ج٣، ص١٥٢؛ حامد زيان غانم، الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مــصر عــصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٦، ص ٧٠.

(٢) المقريزى، السلوك، ج٤، ق٢، ص٧١١؛ Lapidus, The Grain Economy, p. 10.

(٣) السلوك، ج٤، ق٢، ص٧١١. لمزيد من التفاصيل انظر ما يلــي فــي الحــديث عــن دور المحتسب في ساحل الغلة.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٠٥.

ذي قبل(1).

وقد حدث في عام ٨١٨هـ/١٤١٥م أن حاول بعض الأمراء والأغنياء احتكار تجارة القمح، فاستكثر والي القاهرة من شراء القمح، فأشيع عنه أنه يخزن القمح لينال فيه ربحاً كبيراً، وانتشرت الإشاعة بهذا، فتنبه خزان القمح، وامتنعوا عن بيعه، وفي ذات الوقت أخذ الأغنياء في شراء القمح وخزنه، فارتفع لذلك سعره وعز وجوده بعد كساده(2).

دور المحتسب في ساحل الغلة :

كان المحتسب يولي اهتماماً خاصاً بساحل الغلال ببولاق، حيث تنتشر وكالات وحوانيت بيع الغلال والحبوب، وذلك لضمان مصالح الرعية، والإشراف الكامل على التجار.

يبدأ عمل المحتسب قبل أن تصل السفن محملة بالغلال إلى ساحل بولاق، فينصح أصحابها بألا يحملوها فوق العادة، خوفاً من أن تتعرض للغرق، وكذلك يمنعهم من السير وقت هبوب الرياح واشتدادها وذلك حفاظاً على أرواح من بها، وما تحمله من غلال(3). وعندما تصل الغلال إلى ساحل الغلة، يتم وزنها وكيلها استعداداً لنقلها إلى الحواصل والشون. لذا كان على المحتسب التعرف على المكاييل المستخدمة فيها بصفة دائمة، ويراعي ما يحاولون به تطفيف المكيال، ولابد أن يشترط على الكيالين أن تكون مكاييلهم مختومة بختمه، وعليه ألا يدع الكشف عليها من حين لآخر، كما ينبغي عليه أن يحذرهم من المغالاة في الرسوم، التي يتقاضوها

---

(١) آشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عبله، ص ٤١٢.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٤، ق١، ص٣٣٠-٣٣١.

(٣) ابن الإخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى، القاهرة ١٩٧٦م، ص ٣٢٤.

ويخوفهم من عقوبة الله تعالى، وينهاهم عن البخس والتطفيف في ذلك كله، ومتى ظهر له أن أحدهم صدرت منه خيانة عزره[1] على ذلك وأشهره حتى يرتدع به غيره من الكيالين[2].

وعندما تحمل الغلال إلى العراصات على ظهور الدواب، كان المحتسب يأمر الحمالين وأصحاب الدواب ألا يحملوها أكثر من طاقتها، وألا يضربوها ضرباً قوياً، وألا يوقفوها في العراص وعلى ظهورها أحمالها لأنها إذا وقفت والأحمال عليها أضرتها، وذلك رفقاً بهذه الحيوانات[3].

لم ينس المحتسب الدلالين وسماسرة الغلال فلا يستطيع أحدهم أن يمارس عمله إلا بعد أن يثبت في مجلس المحتسب أنه ممن تُقبل شهادته، وينبغي أن يكونوا أخياراً ثقاة من أهل الدين والأمانة والخبرة وصدق القول، لأنهم يتسلمون غلال الناس، الذين يأمنونهم في بيعها، ويشترط عليهم ألا يزيدوا في ثمن السلعة من أنفسهم، ولا يقبضوا ثمنها من غير أن يعهد لهم صاحبها بذلك[4].

وكان المحتسب أيضًا، يُحرم على أصحاب الغلال وتجارها احتكار الغلة، وذلك بأن يشترونها في وقت الرخاء، ويبيعونها وقت الغلاء، حتى يزداد ثمنها، وكان يلزمهم ببيعها إجباراً، لأن الاحتكار حرام، قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) التعزيز هو عقوبة يقدرها القاضي حسب نوع الجريمة للمنع والرد (العزر)، أما أن يكون لمعصية كالغش والربا والرشوة وخيانة الأمانة أو يكون لمصلحة دنيوية مثل إشاعة خبر كاذب بين الناس أو التحريض على التظاهر أو التمرد وغير ذلك مما يؤثر على أمن المجتمع. وحد هذه العقوبة يبدأ بالنصيحة وينتهي بالإعدام: انظر علاء طه رزق، السجون والعقوبات، ص ١٦٠-١٦١.

(٢) ابن الأخوة، معالم القربة، ص١٤٦-١٤٧؛ الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، بيروت بدون تاريخ، ص ٢٠.

(٣) الشيزري، نهاية الرتبة، ص١٣-١٤.

(٤) ابن الأخوة، معالم القربة، ص ٢١٦-٢١٧؛ الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٦٤.

وسلم " الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون"، وقال أيضاً "لا يحتكر إلا خـاطئ "[1].

فحدث في عام ٧٣٦هـ/١٣٣٦م أن ارتفعت أسعار القمح، وامتنع الأمراء عن البيع وكانت أكثر الغلال لهم، ولم يبيعوا بالسعر الذي حدده السلطان الناصر محمد بـن قلاوون وهو ثلاثين درهماً الأردب، وراح مباشروهم يجلسون أمام أبواب شـونهم ولا يبيعون منها شيئاً، بل يخرجون منها الغلة على إنها جراية لمخـاديمهم، وهـم يبيعونها في الخفاء بستين وبسبعين درهماً الأردب. وحاول السلطان ردعهم عـن طريق تعيين محتسب اشتهرت كفايته وأمانته وهو ضياء الدين يوسف بن أبى بكر ابن محمد المشهور بالضياء بن خطيب بيت الأبار الشامي[2].

وأكد السلطان الناصر علي الضياء في القيام بما ندبه إليه وهو منع الأمـراء من احتكار الغلال وتوزيع ما في شونهم، فكان أول ما بدأ به الضياء، هو أن خـتم شون الأمراء كلها بعد أن سجل عدد أرادب الغلال التي بها، ودون ما يحتاج إليـه كل أمير من الجراية لمؤونته والعليق لدوابه إلى حين قدوم الغلة الجديدة، ثم طلـب السماسرة والأمناء والكيالين وأشهر عليهم ألا تفتح شونة إلا بإذنه. وصار كل يوم يركب إلى شونة، ويخرج ما فيها، ولا يبيع منها الأردب إلا بثلاثين درهمـا، فلـم يستطع أحد البيع بأكثر من ذلك[3].

---

(١) الشيزرى، نهاية الرتبة، ص ١٢؛ ابن تيمية، الحسبة في الإسلام، نشرها قصي محب الـدين الخطيب، القاهرة ١٣٨٧هـ، ص ١٢.

(٢) هو يوسف بن أبى بكر بن خطيب بيت الآبار ولد سنة ٦٨٩هـ، ولى القضاء بمصر، وولى نظر المطابخ والأسرى والمرستان، كما ولى الحسبة، وكان ملجأ الشاميين في زمانه، وتوفى في ذى الحجة ٧٦١هـ. لمزيد من التفاصيل انظر، ابن حجـر، الـدرر، ج٥، ص ٢٥٧-٢٥٨، ترجمة رقم ٥١٨٦.

(٣) المقريزى، السلوك، ج٢، ق٢، ص ٣٩٤-٣٩٥؛ وانظر أيضاً سهام أبو زيد، الحـسبة فـي مصر الإسلامية، ص ١٨٢-١٨٣.

تصدى الضياء المحتسب لكل من يحاول البيع بأكثر من هذا السعر، فعندما علم أن سمسارى الأمير قوصون وبشتاك[1] باعا بأكثر من السعر المحدد، أمر بضربهما بالمقارع وأشهرهما. ولم يكتف الضياء المحتسب بهذا، بل أعلم السلطان بذلك فاستدعى الأمير قوصون على الفور، وسبه ولعنه، وشهر عليه السيف، وضربه على أكتافه ورأسه في وجود الأمراء، واشتد غضب السلطان، فخاف الأمراء كلهم، ولم يتجاسر أحد بعدها من الأمراء أن يفتح شونته إلا بأمر المحتسب، مع الالتزام بالسعر الذي حدده السلطان، مما أدى إلى انحلال الأسعار وخفضها[2]. وهناك حادثة أخرى توضح دور المحتسب في إرغام الأمراء على البيع من شونهم ومنعهم من الاحتكار، ففي سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م أمر المحتسب ابن الطبلاوى الأمراء بفتح الشون، وهدد من يمتنع عن ذلك بنهب شونته، فبادر مباشرو الأمراء، وفتحوا الشون، فأنخفضت الأسعار وأسرع الناس لشراء ما يحتاجون إليه[3].

أمر المحتسب إينال الششمانى[4] كذلك في عام ٨٩٢هـ/١٤٨٦م بفتح عدة شون ببولاق، وبيع القمح منها بخمسة دنانير الأردب، وذلك بعد أن قام بضرب

---

(١) انظر ترجمة قوصون الساقى الناصرى في ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٣، ص ٣٤٢-٣٤٤؛ وانظر أيضاً ترجمة بشتاك الناصرى في ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص ١٠-١٢.

(٢) المقريزى، السلوك، ج٢، ق٢، ص ٣٩٥.

(٣) الصيرفي، نزهة، ج١، ص ٣٩١؛ عثمان على محمد، الأزمات الاقتصادية في مصر في العصر المملوكى، ص ١٧٦.

(٤) إينال الششمانى، أصله من مماليك الناصر فرج، وصار أمير عشرة، وفى سلطنة المؤيد شيخ قبض عليه وحبس سنين ثم أفرج عنه، وولاه الأشرف برسباى حسبة القاهرة، ثم جعله أمير طبلخاناه وثانى رأس نوبة، كذلك تولى نيابة صفد، وأتابكية دمشق، وتوفى بدمشق في ربيع الآخر عام ٨٥١هـ/١٤٤٧م. لمزيد من التفاصيل انظر ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج٣، ص ٢٠٧-٢٠٨.

الكثير من الباعة وأرهبهم، وردعهم بالضرب المبرح. وإذا كان الشمشانى قد لجأ إلى العنف لإجبار باعة الغلال على البيع، فإن غيره من المحتسبين كان يتبع معهم سياسة اللين، وتركهم يباعون غلالهم بأى أسعار ومن هؤلاء محمود العنتابى. وكانت نتيجة هذه السياسة أن ارتفع سعر القمح، وتكالب الناس على شرائه[١]. وبذلك أثبتت سياسة التأديب والضرب التي استخدمها الشمشانى فعاليتها.

شارك المحتسب السلطان في تسعير الغلال، خاصة في حالات ارتفاع أسعارها في محاولة لضبط الأسعار، ومعنى التسعير: إلزام ولى الأمر أو من يقوم مقامه – الناس بثمن معين لا يتبايعون إلا به، فيمنعون من الزيادة عليه أو النقص عنه، بحيث يراعى حق الطرفين بالعدل وذلك للمصلحة العامة[٢]. وذلك على الرغم من الموقف المعارض من جانب قضاة المسلمين تجاه سياسة ضبط الأسعار[٣]. فقد ذكر الشيزرى "أنه لا يجوز للمحتسب تسعير البضائع على أربابها، ولا أن يلزمهم ببيعها بسعر معلوم"[٤]. ولكن تعترف المالكية إنه من حق الحاكم أن ينظم الأسعار خاصة في وقت الشدة والغلاء، كذلك تؤيد مدرسة ابن تيمية التسعير للغلال وغيرها طالما اقتضت المصلحة ذلك أي مصلحة المشترين والبائعين[٥].

حدث أن تكالب الناس على شراء القمح وغيره من الغلال في شهر ذى القعدة سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م فارتفع سعر الأردب إلى مائتى درهم، والشعير والفول إلى مائة وخمسين، وتعذر وجود الغلال رغم كثرتها بالقاهرة والريف، فأمر السلطان

---

(١) انظر المقريزى، السلوك، ج٤، ق٢، ص ٧١٠-٧١١؛ عبد الباسط، نيل الأمل، ج٨، ص٥٦.

(٢) عثمان على محمد، الأزمات الاقتصادية في مصر، ص ١٧٧.

(٣) قاسم عبده، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٦٥-٦٦؛ Boaz Shoshan, Grain Riots, p. 466.

(٤) الشيزرى، نهاية الرتبة، ص ١٢.

(٥) ابن تيمية، الحسبة في الإسلام، ص ١٢-١٤، ناقش ابن تيمية قضية التسعير عند المالكية والشافعية، انظر، ص ٢٠-٢٣؛ وانظر أيضاً: Lapidus, The Grain Economy, p. 11.

برسباى الأمير إينال الششمانى المحتسب أن لا يسمح لأحد ببيع القمح بأزيد من مائة وخمسين درهما الأردب، وأن لا يشترى أحد أكثر من عشرة أرادب. وقد دفعه إلى تحديد سعر القمح أن أرباب الأموال توقعوا حدوث الغلاء، فأكثروا من شراء الغلال ظناً منهم أن يبيعوها إذا طلبها المحتاجون بأعلى الأثمان[1].

لم تكن عملية ضبط الأسعار عملية سهلة بل كان على المحتسب أن يواجه في سبيلها الكثير من الصعوبات، لأنه في بعض الأحيان كان السعر المحدد لبيع الغلال لا يناسب التجار، لذلك كانوا يمتنعون عن بيع غلالهم مثلما حدث في عام ٨١٧هـ/١٤١٤م حينما امتنع التجار وخاصة تجار الصعيد وأهله عن بيع القمح، بعد أن بلغهم أن المحتسب منع الزيادة في السعر، فاشتد الأمر وعم البلاء، واضطر المحتسب وهو التاج إلى الاستعفاء من منصبه (شوال ٨١٨هـ/١٤١٥م)[2] ونادى السلطان المؤيد شيخ في يوم الأحد ١٧ من ذي الحجة من نفس العام أن لا يتكلم أحد في سعر الغلال، فإن الأسعار بيد الله وأن ما ثمة محتسب إلا المقام الشريف أي السلطان، وتصدى السلطان بنفسه لأمر القمح[3]. وحدث أيضًا في نفس العام (٨١٨هـ/١٤١٥م) أن منع المحتسب شمس الدين محمد الحلاوى الزيادة في سعر الغلال، وتشدد في ذلك مما ترتب عليه أن أمسك أهل الصعيد أيديهم عن بيع القمح، وكانت النتيجة أن ارتفعت أسعار الغلال في القاهرة لقلة القمح الواصل إليها، وأعتزل الحلاوى من منصبه خوفاً على نفسه، وأعيد التاج[4].

---

(١) المقريزى، السلوك، ج٤، ق٢، ص ٧٥٠-٧٥١.

(٢) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٧، ص ١٨٦؛ وانظر أيضاً:
Boaz Shoshan, Grain, p. 466.
كان التاج قد ولي الحسبة مع الولاية والحجوبية في ٢٩ شوال ٨١٧هـ. العيني، عقد الجمان (٨١٥-٨٢٣هـ)، ص٢٠٨-٢٠٩.

(٣) العيني، عقد الجمان (٨١٥-٨٢٣هـ)، ص٢٤١-٢٤٢.

(٤) المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص٣٣١، ٣٣٢.

قام التاج بمنع كل من قدَّم بقمح من أن يبيعه إلا للطحانين، وسعَّر الأردب بثلاثمائة وخمسين درهماً، وذلك في محاولة منه لمنع المضاربة، وكانت النتيجة أن رفض من يحوزون الغلال بيعها، وانقطع الواصل منها، وهنا حاول التاج الذهاب إلى البلاد القريبة، وتتبع مخازن القمح بها وأمر ببيعها بالقاهرة للطحانين بثلاثمائة وخمسين درهما سوى كلفه، وتشدد في بيعه لغير الطحانين، مما دفع الناس للخروج أفواجاً إلى الأرياف لشراء القمح، وكان من بين هؤلاء المقريزى نفسه الذي اشترى القمح من الريف بستمائة درهم[1].

أدى التسعير الجبري للقمح أيضاً إلى تعرض دار المحتسب للهجوم، مثلما حدث في عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م عندما ثار جماعة من المماليك الجلبان، وتواجهوا إلى بيت المحتسب البدرى بدر الدين ابن مزهر، وقصدوا حرقه، ثم توجهوا إلى شون السلطان والأمراء وكسروا أبوابها، ونهبوا ما فيها من شعير وقمح، وركب إليهم السلطان بنفسه، وتوجه إلى بولاق، فلما رأوه فروا من وجهه. وقد دفع ذلك القاضى كاتب السر أن يُقبل رجل السلطان ثلاث مرات حتى يصدر أمراً بإعفاء ولده بدر الدين من الحسبة، فما استجاب له إلا بعد جهد كبير[2].

وفى بعض الأحيان كان تجار الغلال، عندما يجدون أن أسعار الغلال في سوق الغلال غير مرضية، كانوا يتجهون بمراكبهم وسفنهم المحملة بالغلال نحو الإسكندرية وذلك لإرسالها إلى بلاد الشام، خاصة إذا كانت الأسعار هناك سوف تعوضهم عن تكاليف النقل[3]. وعلى هذا النحو لم يأت التسعير إلا بنتائج عكسية لما

---

(١) السلوك، ج٤، ق١، ص ٣٣٤-٣٣٥؛ وانظر أيضًا العيني، عقد الجمان (٨١٥-٨٢٣م)، ص٢٤٤؛ أدم صبره، الفقر والإحسان، ص٢٤٧-٢٤٨.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٣٣؛ عبد الباسط، نيل الأمل، ج٨، ص ٣٨.

(٣) Lapidus, The Grain Economy, p. 8.

كان مرجو منه في بعض الأحيان.

ويعد فرض قيود على جلب الغلال إلى سوق الغلة، وفرض ضرائب إضافية عليها من مهام المحتسب أيضاً فيذكر المقريزى في حوادث عام ٨١٨هـ/١٤١٥م أن المحتسب حجر على من يجلب القمح، وحدد على كل أردب مبلغاً يؤخذ من بائعه، فكرهه الناس، لذلك عزل من منصبه[(١)]. وفى عام ٨٣٣هـ/١٤٢٩م منع المحتسب الأمير إينال الششمانى كل من وصل بمغله إلى ساحل مصر وبولاق من بيعه، وإرجاء عملياتهم التجارية، وشدد في ذلك، فاشترى الناس الغلال من الشون السلطانية، كل أردب من القمح بثلاثمائة وستين، فتوفرت الغلال نتيجة لذلك، عندئذ إذن المحتسب للجلابة في بيع غلالهم، مما ترتب عليه انخفاض السعر[(٢)]. وفى عام ٨٥٣هـ/١٤٤٩م أحضر الأمير سودون السودونى الحاجب الثالث مغل إقطاعه إلى ساحل بولاق، فطلب منه المحتسب إن يبيع نصفه فقط، ويبقى على النصف الآخر، فامتنع عن البيع، وكان القمح قد عز وجوده، فأبلغ المحتسب السلطان، فأمر بنفيه[(٣)].

ومع ذلك فكان هناك من المحتسبين من استغل منصبه وحاول رفع سعر القمح من أجل أن يحصل، هو على الزيادة، فحدث في شعبان من عام ٨٥٣هـ/١٤٤٩م أن أمر المحتسب على بن اسكندر بالنداء بأن يباع كل أردب قمح بدينار، في حين كان سعره إذ ذاك نحو خمسمائة درهم الأردب، وفتح المحتسب شونته بساحل بولاق، وباع منها من غير تحجير، ولكنه كذب في السعر، وباع

---

(١) المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٣٣١؛ أدم صبرة، الفقر والإحسان، ص ٢٤٧.

(٢) الصيرفى، نزهة النفوس، ج٣، ص ١٨٠-١٨١؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٨، ص١٩٨؛ Ahmed Darrag, L'Egypte, p. 81.

(٣) السخاوى، التبر المسبوك، ج٢، ص ١٦٦؛ ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج١، ص١٦١.

بالسعر المذكور، ولم يسمح لأحد من التجار بالبيع إلا بإذن منه. وحدث أن بعض الناس اشترى قمحاً بغير إذنه، فضربه ضرباً مبرحاً، وشهره[1]. لذلك أصدر السلطان قراراً بعزله وتعيين غيره في منصبه[2].

وهكذا أدت الاضطرابات الناجمة عن قلة الغلال في الأسواق إلى التأثير على مكوث المحتسب في منصبه فمنهم من كان يعزله السلطان، ومنهم من كان يعزل نفسه أو يطلب من السلطان إعفاءه من منصبه وذلك لشدة ما قاساه من مشقة بسبب منصبه هذا. وليس أدل على ذلك مما جاء على لسان العينى إذ يذكر "أنى قاسيت مدة إقامتى في الوظيفة (يقصد الحسبة) تعباً شديداً ونصباً كثيراً، وكنت أنام في المراكب في البحر غالب الليالى، ولم أكن أقطع الركوب ليلاً ونهاراً "[3].

وتجدر الإشارة إلى أن حسبة بولاق كانت تتبع محتسب القاهرة، ولكن نظراً لكثرة أعباء محتسب القاهرة، فقد كان ينيب عنه شخصاً آخر للنظر في حسبة بولاق، فقد ذكر السخاوى أن محمد بن أبى بكر الشمس بن ناصر الدين السنهورى القاهرى الشافعى ويعرف بالعنانى، كان ممن ناب عن العينى في حسبة بولاق غير مرة[4]. وذلك بحكم أن العينى تولى هذا المنصب عدة مرات خلال أعوام ٨٠١هـ/١٣٩٨م، ٨٠٢هـ/١٣٩٩م، ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، ٨١٩هـ/١٤١٦م، ٨٢٥هـ/١٤٢١م، ٨٣٣هـ/١٤٢٩م، ٨٤٤هـ/١٤٤٠م، ٨٤٧هـ/١٤٤٣م[5].

وكذلك باشر حسن بن على بن حسن المناوى أحد النواب ويعرف بابن القلفاط

---

(١) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج١، ص١٦٨-١٦٩.

(٢) السخاوى، التبر المسبوك، ج٢، ص ١٦٧-١٦٩.

(٣) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (٨١٥-٨٢٣هـ)، تحقيق عبد الرازق الطنطاوى القرموط، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٢٥٨؛ ج٢، القاهرة، ١٩٨٩م، ص٣١.

(٤) الضوء اللامع، ج٧، ترجمة ٤٧١، ص ٢٠٠.

(٥) سهام أبو زيد، الحسبة في مصر الإسلامية، ص ٢٦٣-٢٧١.

حرفة أبيه – حسبة بولاق في أيام تولى يشبك الجمالى حسبة القاهرة في سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م، ولكنه ما لبث أن أعرض عنها كما يذكر السخاوى[١].

أسباب ارتفاع أسعار الغلال وانخفاضها في ساحل الغلة ونتائجه :

تأثرت حركة البيع والشراء في سوق الغلال بساحل الغلة ببولاق بارتفاع أسعار الغلال حيناً وانخفاضها حيناً آخر، خاصة القمح، فسعره لم يكن ثابتاً في كثير من الأحيان وكان يتغير بحسب الظروف زيادة ونقصاناً والسؤال الذي يطرح نفسه ما هي أسباب ارتفاع أسعار الغلال وخاصة القمح وما هي أسباب انخفاضها.

يمكن من خلال مطالعة مصادر العصر المملوكى إرجاع أسباب ارتفاع أسعار الغلال وانخفاضها إلى عوامل طبيعية وأخرى بشرية، فبالنسبة لارتفاع أسعار الغلال.

أولا : العوامل الطبيعية : ويأتى في طلعتها زيادة النيل ونقصانه، وقد أوردت المصادر العديد من الإشارات إلى نقصان مياه النيل وقصوره في بعض الأحيان مما يترتب عليه ارتفاع أسعار الغلال خاصة القمح، وقلة المعروض منه مع كثرة الطلب عليه، وإشارات أخرى إلى زيادة النيل أو وصوله إلى معدله الطبيعى – ١٦ ذراع – مما يؤدى إلى انخفاض الأسعار، نتيجة لكثرة العرض وقلة الطلب عليه[٢]. وقد استغل سماسرة الغلال حالة الفيضان هذه في العمل على رفع

---

(١) السخاوى، الضوء اللامع، م٢، ج٣، ص ١٠٩.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن ارتفاع أسعار الغلال وخاصة القمح بسبب نقصان النيل وزيادته انظر: ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص ٤٧، ج٣، ص ٢٨٠-٢٨١، ٢٩٢، ج٧، ص٤٣٠-٤٣١، ٢٦٠، ج٨، ص ٤٥، ٤٧، ٢٩٦، ٢٩٨؛ ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج١، ص٢٣١، ص ٢٥٨-٢٥٩، ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٧٠-٢٧٢، ٢٩٥-٢٩٨، ص ٣١٧، ٤٣٠، ٤٣١، ٥١٦، جـ٣، ٤٣٠، ٤٣١؛ المقريزى، السلوك، ج٤، ق٢، ص ٧٠٩، ٧١٠، ص٨٩٤، إغاثة الأمة، ص ٤٠، ٤٢؛ السخاوى، التبر المسبوك، ج٢، ص ١٦٦-١٦٧؛ حلمى محمد سالم، اقتصاد مصر الداخلي وأنظمته في العهد المماليكى، ص ٣٥٣-٣٦٠؛
Boaz Shoshan, Grain, p. 472, 476–478.
وتجدر الإشارة إلى أن مصادر عصر سلاطين المماليك حافلة بذكر أحوال النيل زيادة ونقصان مما يصعب على المرء أحصائها لذلك اكتفت الباحثة بذكر مجرد إشارات.

الأسعار وخفضها[1].

لم يكن النيل وحده زيادة ونقصان هو المسئول عن ارتفاع أسعار الغلال خاصة القمح والشعير، ولكن هبوب الرياح قد يؤدى كذلك إلى ارتفاع الأسعار، ففى عام ٨٢٩هـ/١٤٢٥م هبت رياح مريسية[2]، وتوالت أياماً تزيد على عشرة أيام، ولم تستطع المراكب السفر في النيل، فأنكشف الساحل من الغلة كما يذكر المقريزى[3]. وحدث كذلك في عام ٨٣١هـ/١٤٢٧م أن ارتفع السعر بسبب هبوب الرياح المريسية التي حالت بين المراكب المحملة بالغلال والقادمة من الوجه البحرى وبين الوصول إلى ساحل بولاق[4]. هذا إلى جانب قلة المطر في فصل الشتاء، وجفاف الزروع مما يؤدى إلى ارتفاع الأسعار كذلك[5].

وكان غزو الفئران من العوامل الطبيعية كذلك التي تسببت في تدمير المحاصيل في الحقول وندرتها، فيذكر ابن حجر في حوادث سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م أن الوجه البحرى كان مقلاً في الغلال بسبب الفأر، الذي تسلط على الزرع في هذه

---

(١) Boaz Shoshan, Grain, pp. 468–469.

(٢) الريح المريسى هي ريح الجنوب تأتى من قبل مريس وهى بلدة بأعمال بلاد النوبة التي تلى السودان. انظر ابن اياس، حوادث الدهور، ج١، ص ٤٩٤، هامش (١).

(٣) المقريزى، السلوك، ج٤، ق٢، ص ٧١١؛ وانظر أيضاً ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج١، ص٤٩٤.

(٤) عن تأثير الرياح والحر الشديد على أسعار القمح انظر ابن حجر، إنباء الغمر، ج٥، ص ١٣٥، ج٧، ص ٣٢٣-٣٢٤، ج٨، ص ٨؛ العينى، عقد الجمان (٨١٥-٨٢٣هـ)، تحقيق عبد الرازق القرموط، ص٣٢٥؛ عثمان على محمد عطا، الأزمات الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي، ص٨٦-٨٩.

(٥) المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص٣٣٠؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٧، ص ٢٦٨، ٢٦٠؛ العيني، عقد الجمان (٨١٥-٨٢٣هـ)، ٣٠٢.

السنة، مما ترتب عليه أن ظهرت حاجته لجلب القمح من الصعيد[1]. وإلى جانب الفئران كان هناك الدود الذي يأكل الزراعات من القمح وغيره، مثلما حدث في أعوام ٨٢١هـ/١٤١٨م، و٨٣١هـ/١٤٢٧م وترتب على ذلك ارتفاع أسعار الغلال[2].

ثانياً : العوامل البشرية :

يمكن إحصائها على النحو التالي :

١- " **كثرة الحرامية** " بالنيل كما يذكر ابن حجر[3] مما ترتب عليه قلة جلب الغلال من الوجه القبلي – المصدر الرئيسي لجلب القمح – وهذا يعني عدم توفير الأمن والأمان للسفن المحملة بالغلال والقادمة إلى القاهرة وسوق الغلال ببولاق.

٢- " **المماليك السلطانية** " الذين استغلوا نفوذهم، وصاروا يأخذون الغلال من المراكب باليد دون أن يدفعوا ثمناً لها، بل ويستولون على كل ما في المراكب تماماً، مما دفع أصحاب الغلال إلى الكف عن البيع خوفاً من هؤلاء الظلمة كما يذكر ابن تغرى بردى[4]. وحاول السلطان جقمق في عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م الحد من ذلك فأرسل الأمير مرجان العادلى المحمودى[5]، نائب مقدم المماليك

---

(١) المقريزى، السلوك، ج٤، ص٣٣١؛ ابن حجر، إنباء، ج٧، ص ١٨٦.

(٢) العينى، عقد الجمان (٨١٥-٨٢٣هـ)، تحقيق عبد الرازق القرموط، ص٣٢٥؛ سنوات (٨٢٤-٨٥٠هـ)، ص٣٢٨.

(٣) إنباء الغمر، ج٧، ص٢٦٠.

(٤) حوادث الدهور، ج١، ص ٢٣٥.

(٥) هو الزين العادلى الحبشى الطواشى أصله من خدام العادل سليمان صاحب حصن كيفا، ثم صار من خدام طباق المماليك بالقلعة ثم عمل نائب مقدم المماليك، ثم عزله الأشرف إينال، ومات في ٨٦٥هـ/١٤٦٠م. انظر السخاوى، الضوء اللامع، م٥، ج١٠، ص١٥٣.

السلطانية في محاولة لمنع المماليك من ركوب المراكب، والتقدم إلى ملاقاة الغلال في النيل، فكفوا عن ذلك قليلاً. كذلك قام السلطان عينه بعرض المماليك السلطانية لينهاهم عن أخذ الغلال، وأمرهم بسكنى الطباق في قلعة الجبل، خاصة بعد أن عظم البلاء، وارتفع سعر القمح إلى سبعمائة درهم وليته موجود، إنما عز وجوده بساحل الغلة، وصار لا يتواصل أحد لشرائه إلا بجهد[1].

٣- " **إغارات العربان وقيامهم بنهب مراكب الغلال وسلبها**"، مما أضر بالمحاصيل ضرراً بالغاً وساهم في ارتفاع أسعارها[2]. فحدث في عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م أن قام الأمير يشبك الدوادار بالذهاب إلى الصعيد للحد من إغارات العربان ونهبهم مراكب المغل القادم من بلاد الصعيد ونهب ما فيها، وكانوا قد أخذوا بعض هذه المراكب، ونهبوا ما فيها ثم أحرقوها، مما ترتب عليه ارتفاع أسعار القمح وغيره من الغلات. فما كان من الأمير يشبك إلا أن نهب بلادهم وشتت شملهم، وضرب عدة قرى من شرقى بلاد الصعيد، ولم يكتف بذلك بل أحضر معه وهو عائد أربعمائة أمرأة منهم إلى ساحل بولاق، وحبسهم في وكالة قانم التاجر، وذلك للضغط على أزواجهم الذين قطعوا الطريق، واستولوا على مراكب الغلات القادمة من بلاد الصعيد إلى ساحل الغلال ببولاق[3].

---

(١) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج١، ص٢٣٧؛ وانظر أيضاً هدية إمام، المماليك الجلبان، ص١٧٣-١٧٤. أما الطباق فمفردها طبقة، وهو تكنات الجيش المملوكى الكائنة بساحة الإيوان بالقلعة، وتضم كل طبقة أبناء الجنس الواحد من المماليك ليسود بينهم نوع من التفاهم والمودة، كما أن الطباق أشبه بمدرسة عسكرية يتم فيها تعليم وتربية المماليك.

(٢) المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٣٣٠.

(٣) ابن داود الصيرفى، أبناء الهصر، ص٤٥.

٤- ثورات المماليك الجلبان :

كان للفوضى التي أشاعها الجلبان خاصة في العصر الجركسي أثرها في ارتفاع الأسعار، ففى عهد جقمق وبالتحديد في عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م هجم هؤلاء الجلبان على المراكب المحملة بالغلال ونهبوا ما بها، فكف أصحاب الغلال عن البيع خوفاً من هؤلاء الظلمة، فعظم البلاء وأمر جقمق الأمير أزبك بن ططخ والأمير جان بك الوالى بحماية القمح الوارد إلى القاهرة من نهب المماليك الأجلاب وحماية الشون الخاصة بالأمراء حتى يباع ما فيها من الغلال[١]. وفى عهد اينال حدث في عام ٨٥٩هـ/١٤٥٤م أن توجه المماليك الجلبان إلى بولاق، ونهبوا شون الأمراء لأجل الشعير لأنه كان مشحوناً كما يذكر ابن إياس[٢]، وعز وجوده وذلك بسبب قلته في شون السلطان، كما ثار المماليك الجلبان أيضاً في سنة ٨٧٨هـ/١٤٧٣م ونزلوا جهة بولاق، ونهبوا ما فيها، ثم قصدوا شون شعير الأمير يشبك الدوادار ونهبوا ما فيها، واشتد غضب السلطان قايتباى، ونزل من القلعة لمطاردتهم، ولكن كان نزوله بعد فوات الآوان[٣]. كذلك كثيراً ما تعرضت شون السلاطين للنهب من قبل هؤلاء الجلبان[٤]. ومما لا شك فيه أن مثل هذه الثورات قد أضرت بالغلال، وأدت إلى إرتفاع أسعارها وأثرت على وجودها في الأسواق.

---

(١) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج١، ص٨٩؛ حلمى سالم، اقتصاد مصر الداخلي، ص٣٩٥؛ عثمان على محمد، الأزمات الاقتصادية، ص ١٧١.

(٢) بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٢٤؛ وانظر أيضاً ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج١، ص٤٥٣.

(٣) عبد الباسط، نيل الأمل، ج٧، ص ٩٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٩٤؛ عبد الرحمن عبد التواب، قايتباى المحمود، ص ١٠٢.

(٤) انظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٣٣؛ ج٥، ص ١٤٦-١٤٧.

٥- نقل غلال مصر إلى بلاد الشام وبلاد الحجاز :

وكان ذلك بسبب التجارة من ناحية أو ما عانته هذه البلاد من غلاء وقحط من ناحية أخرى، ففى سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م وقع الغلاء ببلاد الحجاز وبلاد الشام، وقدم لذلك كثير من الخلائق من تلك البلاد إلى مصر لشراء القمح، وحملوا منه ما لا يقدر قدره كما يروى المقريزى. ويذكر المقريزى كذلك في حوادث سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٥م، أنه حمل غرابان مما أنشئ بساحل بولاق – وهما قطعاً – على الجمال إلى السويس، ليركبا ويطرحاً في بحر السويس، لأجل حمل الغلال إلى مكة، مدداً للمجردين[١]. وفى سنة ٨٦٠هـ/١٤٥٥م حمل من غلال مصر مائتى ألف من الأرادب إلى تلك البلاد، مما ألحق الضرر بأهل مصر، ورفع سعر الغلال فيها[٢].

ويروى ابن إياس[٣] في حوادث سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م أن السلطان الغورى كان يشترى القمح، ويرسله إلى الشام، لأنه كان بها غلاء عظيم، وقد ترتب على ذلك ارتفاع سعر القمح حتى وصل إلى سبعة أشرفية الأردب، وانشحطت الغلة في سوق الغلال وفى القاهرة بسبب ذلك، وكادت تكون غلوة مع وجود القمح الجديد.

ويمكن إضافة عامل آخر إلى العوامل السابقة، يتمثل في محاولة بعض السلاطين والأمراء والأغنياء احتكار تجارة القمح، وتخزين كميات كبيرة منه، والإمساك عن بيعه طمعاً في الحصول على الكثير من الأرباح كما سبق أن ذكرنا.

والسؤال الذي يطرح نفسه ما النتائج التي ترتبت على ارتفاع أسعار الغلال خاصة القمح وقلة الوارد منه إلى ساحل بولاق بالنسبة للناس والجلابة ؟

وترتب على ارتفاع سعر القمح وقلة الوارد منه إلى ساحل الغلة ببولاق عدة

---

(١) السلوك، ج٤، ق١، ص ٣٣٠؛ ج٤، ق٢، ص ٦٨٦.

(٢) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج١، ص ٤٩٣-٤٩٤.

(٣) بدائع الزهور، ج٤، ص ٣٠٢.

نتائج يمكن إجمالها من خلال المصادر[١] فيما يلي:-

أولاً : جمهرة عدد لا يحصى من الناس بساحل بولاق لطلب القمح وبحثاً عن الغلال، ومنهم من ينجح في الحصول عليها ومنهم من يعود غائباً.

ثانيًا: انتشار حوادث السلب والنهب، إذ تمتد يد الناس كما يذكر ابن حجر والعيني[٢] للخطف مما يدفع مراكب حمل القمح وغيره من الغلال إلى الوقوف بوسط النيل، وليس على ساحل بولاق، خشية ما تتعرض له من نهب بالساحل، ويتوجه إليها الناس في الشخاتير ليشتروا منها، ثم يعودون بما اشتروه. وخوفاً من السلب والنهب أيضاً كان الجالبون بعد أن يرسوا بمراكبهم على ساحل بولاق، يرحلوا عنه إلى طره وما فوقها لينظروا ماذا سيحدث[٣].

ثالثاً: الزحام الشديد على المراكب التي تحمل القمح مما يترتب عليه موت جماعة من الزحام، وغرق جماعة في البحر عند التوجه إلى المراكب الواقفة في عرض النيل، فيذكر ابن حجر[٤]. في حوادث سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م ماتت امرأة ورجل أثناء التزاحم على المراكب التي تحمل الغلال في ساحل بولاق؛ كما تحدث المقريزى[٥] عن غرق مركب، فيها جماعة كثيرة ممن عدى من الساحل، ليشترى من قمح وصل في مركب قد وقفت في وسط النيل، فغرق

---

(١) ابن حجر العسقلانى، إنباء الغمر، ج٧، ص ١٧٨، ١٨٦-١٨٧؛ المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص٣٣٢-٣٣٣؛ الصيرفى، أنباء الهصر، ص٢١٥؛ العيني، عقد الجمان (٨١٥-٨٢٣هـ)، ص٢٤٣.

(٢) إنباء الغمر، ج٧، ص١٨٦؛ عقد الجمان (٨١٥-٨٢٣هـ)، ص٢٤٣، ٢٥٥.

(٣) الصيرفى، إنباء الهصر، ص ٢٠٥.

(٤) إنباء الغمر، ج٧، ص ١٧٨.

(٥) السلوك، ج٤، ق١، ص ٣٣٣.

منهم نحو العشرين.

رابعًا: تعطل حركة البيع والشراء في الأسواق بسبب اشتغال الناس في طلب القمح.

خامسًا: ارتفاع أسعار الخدمات المرتبطة بالغلال كالحراسة والسمسرة والنقل فيذكر المقريزى[1] في حوادث عام ٨١٨هـ/١٤١٥م أنه إذا اشترى أحد أردب قمح فما دونه فعليه أن يدفع خمسين درهماً لمن يحرسه ويحميه من النهابة، وعشرة دراهم للسمسار بعد أن كانت سمسرته خمسة دراهم، ويأخذ التراس (سائق العربة) أجرة حمل الأردب خمسة عشر درهما، بعد ما كانت أجرته خمسة دراهم. وهكذا يلاحظ ارتفاع أسعار الخدمات المرتبطة بالغلة نتيجة لقلة الوارد منها وارتفاع سعرها.

سادسًا: اللجوء إلى حبوب أخرى غير القمح لعمل الخبز أو خلط القمح بغيره من الحبوب كالشعير والذرة والحمص والفول، فيذكر الصيرفى[2] " أن أهل الطواحين صاروا يطحنون الثلث من القمح، والثلث من الحمص، والثلث من الشعير، وربما طحنوا الفول وعجنوا منه ". وذكر ابن إياس[3] في حوادث سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٦م أن الخبز أصبح يصنع من الذرة بدلاً من القمح، ولذلك صنف العوام رقصة وهم يقولون.

زويجى ذى المسخرة   يطعمنى خبز الذرة

كذلك لجأ الناس إلى أكل الخضراوات كالفول الأخضر والقلقاس بدلاً من القمح لتكملة النقص في غذائهم[4].

---

(١) السلوك، ج٤، ق١، ص ٣٣٣.

(٢) نزهة النفوس، ج٢، ص ٣٥٩.

(٣) بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٣٨.

(٤) المقريزى، السلوك، ج٤، ص ق١، ص ٣٣٥.

أما عن رخص أسعار الغلال وانخفاضها فيرجع كذلك إلى عدة عوامل منها:

أولاً : **قدوم محصول جديد:** فكثيراً ما رخص سعر الغلال وانحط سعرها بسبب قدوم محصول جديد مثلما حدث في عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م فقد انحط أي رخص سعر القمح من مائة درهم إلى أربعين درهما بسبب دخول محصول الشعير الجديد[1]. كذلك عندما وصلت إلى ساحل بولاق في عام ٧٩٨هـ/١٣٩٥م مراكب مشحونة بالغلال، نزل سعر القمح عشرة دراهم عن كل أردب، ثم أخذ في الانحطاط والتراجع لكثرة المعروض في السوق، فرجع إلى خمسين درهماً عن كل أردب[2]. كذلك وصلت ساحل الغلة ببولاق في عام ٨١٩هـ/١٤١٦م غلال كثيرة من الصعيد لذلك رخص سعر القمح، وبيع الأردب بـ ٢٧٠ درهما[3]. وهكذا ساهم قدوم المحصول الجديد إلى ساحل الغلة في خفض سعرها ورخصها.

ثانيًا: **الطرح :** (أو ما نسميه حالياً بالإغراق) ويعنى عرض كميات كبيرة من الغلال في الأسواق وبسعر محدد، يقل على السعر السائد في السوق، ويؤدى ذلك حقيقة إلى إلحاق الضرر بالتجار ولكنه يعود بالنفع على المستهلك، لأنه يشترى الغلال بسعر رخيص. فقد انحط سعر القمح لأقصى درجة في سنة ٧٨٨هـ/١٣٨٦م عندما قام الوزير شمس الدين المعروف بكاتب أرلان[4]

---

(١) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص ٨٤.

(٢) الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص ٤٢٦-٤٢٧؛ ابن حجر، إنباء، ج٣، ص٢٨٠-٢٨١، ٢٩٢.

(٣) المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص ٣٤٩؛ ابن تغرى بردى، حوادث، ج١، ص٢٠٢.

(٤) هو شمس الدين إبراهيم بن عبد الله القبطي، كان نصرانيا وأسلم، وخدم عند الأمير أرلان فاشتهر به، اتصل بالأمير برقوق، وظل في خدمته إلى أن تسلطن برقوق وولاه الوزارة في عام ٧٨٥هـ/١٣٨٣م. ابن قاضى شهبة، تاريخه، ج٣، ص ٢٢٤-٢٢٥؛ المقريزى، السلوك، ج٣، ق٢، ص ٥٦٩.

بطرح كميات كبيرة من القمح في الأسواق تقدر بمائة ألف وثمانية عشر ألف أردب قمحاً بسعر دينار واحد للأردب، مما أضر بالتجار ضرراً بالغاً، وكان له أكبر الأثر على الحياة الاقتصادية في تلك الآونة[1].

قام بعض الوزراء كذلك بخفض سعر الغلال نكاية في أحد التجار المعـــادين لهم ومثال ذلك ما حدث في عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م حيث أمر الوزير يشبك الدوادار بأن يباع القمح بأقل الأسعار، وأراد بذلك إنزال الضرر بأحد تجار القمح المعـــادين له[2]. هذا إلى جانب إرغام الفلاحين على بيع غلالهم حتى يدفعوا ما علــيهم مـــن أموال، مما يؤدى إلى كثرة المعروض منها في الأسواق، وبالتالي انخفاض سعرها مثلما فعل الوزير سيف الدين أرغون شاه[3] الذي أرغم المزارعين في البحيرة على بيع غلالهم حتى يقدموا له ما ألزموا به من المال، فأدى ذلك إلى كثــرة الغـــلال، فانخفض سعرها، حتى بيع القمح كل خمسة أرادب بدينار فقط[4].

ثالثاً: الأوبئة والطواعين: لعبت الأوبئة والطواعين دوراً كبيراً في خفض أســـعار الغلال ورخصها، لما ينتج عنها من موت أعداد كبيرة من الناس مثلما حدث في سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م[5]. وكذلك وباء عام ٨٣٣هـ/١٤٢٩م ومات فيـــه

---

(١) انظر ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص ٢٢٣؛ المقريزى، الـــسلوك، ج٣، ق٢، ص ٥٥٣؛ الصيرفى، نزهة النفوس، ج١، ص ١٤٣.

(٢) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج٣، ص ٦٨٥.

(٣) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج٢، ص ٣٢٤، ٣٢٥.

(٤) المقريزى، السلوك، ج٤، ق٢، ص ٦٣١.

(٥) لمزيد من التفاصيل انظر: المقريزى، السلوك، ج٤، ق١، ص ٣٤٩؛ ابن تغـــرى بـــردى، حوادث الدهور، ج١، ص ٢٠٢؛ وعن الأوبئة التي تعرضت لها مصر في عصر المماليـــك الجراكسة انظر قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١٦٢-١٦٨.

سبعون من أهل بولاق، وفر الناس منها ومن القاهرة ومن غيرهما لشدته[1].

وطاعون عام ٨٦٤هـ/١٤٥٩م الذي عم بولاق حتى أنه كان يموت في اليوم ثلاثمائة وأربعمائة وقيل أكثر من ذلك، وعندما ارتفع عنها بلغ عدد من كان يموت في اليوم ثلاثة نفر وقيل سبعة وقيل عشرة[2]. كذلك فشا الطاعون بالقاهرة ومصر وبولاق في عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨[3]. كما فشا الطاعون ببولاق أيضاً في عام ٨٨١هـ/١٤٧٦م، وصار يجرف الناس جرفاً على حد تعبير عبد الباسط بن خليل[4]. ومما لا شك فيه أن مثل هذه الأوبئة التي أصابت بولاق والقاهرة قد ساهمت بشكل فعال في خفض أسعار الغلال خاصة القمح إذ يترتب عليها موت أعداد لا حصر لها من الناس، وبالتالي قلة الطلب على الغلال ورخص سعرها لكثرة المعروض منها.

(١) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ٣٣٣-٣٤٤؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٨، ص ٢٠٠ وما يليها؛ المقريزى، السلوك، ج٤، ق٢، ص ٨٢٥.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٦، ص ١٣٧-١٣٩، ١٤١؛ عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، ج٦، ص ٨١.

(٣) الصيرفى، إنباء الهصر، ص ٥٥.

(٤) نيل الأمل، ج٧، ص ١٧٠.

الفصل السادس

النشاط الصناعى والحرفى في بولاق
عصر سلاطين المماليك الجراكسة

- بولاق دار لصناعة السفن.
- الحرف والصناعات الأخرى في بولاق:

أولاً : معاصر الزيت وصناعة الزيوت.

ثانيًا : معاصر القصب وصناعة السكر والعسل.

ثالثًا : حرفة طحن الغلال.

رابعًا : الصباغة.

خامسًا : صناعة منتجات الألبان .

سادسًا : حرفة صيد السمك.

الفصل السادس

النشاط الصناعى والحرفى في بولاق عصر سلاطين المماليك الجراكسة

بولاق دار لصناعة السفن :

عرفت القاهرة قبل ظهور بولاق عدداً من دور الصناعة[1]. أي صناعة السفن ومن أهمها دار صناعة المقس، ودار صناعة مصر القديمة، ودار صناعة جزيرة الروضة، غير أن دور الصناعة هذه ما لبثت أن اضمحلت وتضاءل دورها وتقلص، فبعد أن انحسرت مياه النيل عن المقس، لم تعد تقع على شاطئ النيل ولذلك خبى ضوئها كدار لصناعة السفن وميناء ترسو فيه تلك السفن[2]. وظلت دار صناعة مصر القديمة عامرة إلى ما قبل سنة سبعمائة هجرية، ثم صارت بستاناً وانتهى دورها كدار لصناعة السفن كذلك[3]. وتعرضت جزيرة الروضة أيضاً للتخريب على أيدى سلاطين المماليك البحرية وخاصة في عصر المعز أيبك وخلال سنتى ٦٤٩ و ٦٥١هـ/١٢٥١ و١٢٥٣م، ثم خربت قلعتها على أيدى المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد، مما أدى إلى تخوف باقي سلاطين المماليك من إنشاء السفن في دار صناعتها[4]. وفى نفس الوقت كانت حاجة البلاد ماسة إلى الأسطول لصد هجمات الأعداء عن شواطئها، ومواجهة قراصنة البحر، الذين

---

(١) دار الصناعة اسم لمكان أعد لإنشاء المراكب البحرية والسفن الحربية والتجارية، انظر المقريزى، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ١٨٩.

(٢) عن دار صناعة المقس انظر المقريزى، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ١٩٥-١٩٦.

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر المقريزى، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ١٩٧.

(٤) المقريزى، المواعظ، ج٢، ص ١٩٨، وانظر أيضاً مصطفى على إبراهيم، "جزيرة الروضة منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية حكم المماليك "رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة طنطا ٢٠٠١م، ص ١٤٤.

اعتادوا مهاجمة شواطئ مصر والشام للنيل منها.

أفادت دار صناعة بولاق من تلك الظروف إذ غدت تقوم بعين الدور الذي قامت به دور صناعة القاهرة (المقس – مصر القديمة – الجزيرة)، واهتم سلاطين المماليك بها وذلك لبناء السفن اللازمة للأسطول، وحرصوا على أن يوفروا لها ما تحتاج إليه من أخشاب وقار وكتان وغيرها من مستلزمات تلك الصناعة، كذلك حرصوا على مباشرة سير العمل فيها بأنفسهم على نحو ما سنرى.

كان خشب السنط من أهم أنواع الأخشاب التي تستخدم في صناعة السفن، وكان يزرع بمصر، ويجلب إلى بولاق من الوجه القبلي على ظهور المراكب، كذلك استخدمت في بناء السفن بدار صناعة بولاق أخشاب كثيرة أخذت من قصور سرياقوس[1]. بل امتدت يد سلاطين المماليك إلى الأشجار الخاصة التي كان الفلاحون يغرسونها في حقولهم وبساتينهم. فيذكر ابن تغرى بردى[2] في حوادث سنة ٨٦٤هـ/١٤٥٩م أن شاد عمارة السفن سنقر الزردكاش أخرب بساتين الناس، وقطع أشجارها، وأخذ أخشابها بغير ثمن ولا مقابل من أجل أن يعمر بها السلطان إينال العلائى (٨٥٧-٨٦٥هـ/١٤٥٣-١٤٦٠م) المراكب والأغربة. كذلك أشار ابن إياس في حوادث سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م إلى أن السلطان الغورى حرج على بيع خشب السنط بسبب عمارة المراكب، وصاروا يقطعون أشجار الناس من الغيطان غصباً باليد... لأجل عمارة المراكب[3]. وعلى الرغم من ذلك إلا أن كمية الأخشاب الموجودة بمصر لم تكن كافية لبناء سفن الأسطول، لذلك كانت مصر تضطر لإستيراد الخشب من الخارج وخاصة من الأناضول والبلقان وغيرها.

أرسل سلاطين المماليك حملات إلى جنوب الأناضول لجلب الأخشاب من

---

(١) المقريزى، السلوك، ج٤، ق٢، ص ٦٨٢.

(٢) منتخبات من حوادث الدهور، ج٢، ص ٣٤١.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٣٥٥.

غاباتها فيذكر ابن تغرى بردى في حوادث سنة ٨٦١هـ/١٤٥٦م أن الأمراء سافروا من بولاق إلى الجون[١] ببر التركية لأجل قطع الأخشاب، وكان على رأسهم مقدم العسكر الأمير يشبك الفقيه المؤيدى — أحد أمراء الطبلخاناه ورأس نوبة — ومعه الأمير أزبك المؤيدى أحد أمراء العشرات، والأمير نوروز الأشرفى، وجماعة أخرى من الخاصكية[٢]. كذلك خرجت في عام ٨٦٦هـ/١٤٦١م تجريدة إلى بلاد الجون وفيها ثلاثة من أمراء العشرات هم: دولات باى النجمى الأشرفي، واسنبغا الناصرى وتغرى بردى الطيارى، وسافروا من ساحل بولاق إلى دمياط ومنها إلى الجون لجلب الأخشاب[٣].

واستمرت مصر ترسل الحملات إلى الجون لجلب الأخشاب حتى أواخر عصر سلاطين المماليك فيذكر ابن إياس في حوادث سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م أنه خرج الأمير محمد بيك إلى نحو الجون بسبب قطع الأخشاب لأجل عمارة المراكب والسفن لإرسالها إلى الهند[٤].

حرص سلاطين المماليك كذلك على توفير سائر مستلزمات صناعة السفن بساحل بولاق فإلى جانب الأخشاب، حرصوا على توفير القار والكتان والحديد والمسامير وغيرها مما تتطلبه تلك الصناعة، كذلك اهتموا بالعاملين في تلك الصناعة، فقد قامت صناعة السفن على أكتاف عدة حرف مختلفة، إذ يذكر ابن تغرى بردى[٥] " ... الصناع في عمل المراكب من النجارين والنشارين والقلافطة وأرباب البضائع التي تحتاج إليها المراكب وهى أنواع كثيرة...".

---

(١) الجون قلعة خراب عند فم خليج القسطنطينية من الجهة الشمالية تجاه القسطنطينية. انظر ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٦، ص ١٠٩، هامش ٣.

(٢) النجوم الزاهرة، ج١٦، ص ١٠٩؛ وانظر أيضًا أندريه ريمون، القاهرة، ص ١٦٩.

(٣) ابن تغرى بردى، منتخبات من حوادث الدهور، ج٣، ص ٤٣٠.

(٤) بدائع الزهور، ج٤، ص ١٨٥.

(٥) منتخبات من حوادث الدهور، ج٢، ص ٣٤١.

يتضح من العبارة السابقة أن صناعة السفن تبدأ بقطع الأخشاب وتجهيزهـــا، ويقوم بهذا العمل طائفة النشارين، ثم طائفة النجارين التي تقوم بتصميم المراكـــب والسفن، وتجميع الأخشاب، وتشكيل الهياكل على أنواعها المختلفة. وبعد الانتهـــاء من بناء هيكل المركب أو السفينة أو القارب، يحتاج قبل نزوله الماء إلى حـــرفيين من طائفة القلافطة، ومهمة هؤلاء سد المركب بالألواح الخشبية وإحكامها ثم تأمينها من تسرب المياه، وذلك بأن يدفع بالكتان في الفجوات وفى الفراغات بين الألـــواح، ثم يطلى المركب بعد ذلك بالقار. ثم تأتى عملية تجهيز المركب بالأدوات اللازمـــة حتى تصبح جاهزة للملاحة كالأشرعة، ويقوم بها طائفة القلوعية، والحبال ويقـــوم بتصنيعها طائفة الحبالين، والمراسى وهى ما كانت تقـــوم بـــه طائفـــة الحـــدادين والخواصين وغيرهم. وهكذا اضطلعت هذه الطوائف المختلفة بدور هام في عمارة السفن وصناعة الأساطيل الحربية والتجارية[1].

كان اهتمام دار الصناعة ببولاق في المقام الأول بالسفن الحربية، التي تنـــشأ لغزو العدو، وتشحن بالسلاح وآلات الحرب والمقاتلة، ثم تخرج من ساحل بـــولاق إلى ثغر دمياط أو ثغر الإسكندرية من أجل جهاد الأعداء ومواجهة خطر القراصنة في البحر المتوسط. هذا إلى جانب اهتمام دار صناعة بولاق بالـــسفن والمراكـــب النيلية التي تمر في النيل صاعدة إلى أعلى الصعيد – كمـــا يـــذكر المقريـــزى – ومنحدرة إلى أسفل الأرض لحمل الغلال وغيرها من السلع والبضائع[2]. كذلك كان من تلك المراكب ما يقوم بنقل الأفراد المسافرين من مكان لآخر، ومنها ما يستخدم في النزهة على صفحة النيل أو للصيد، وسوف يظهر دور كل منها في موضعه.

أولى سلاطين المماليك الجراكسة دار الصناعة في بولاق عناية خاصة، فقد استمرت هجمات الفرنج والقراصنة على شواطئ مصر والشام، فضلاً عن اهتمـــام

---

(١) انظر عبد الحميد حامد، الملاحة النيلية في مصر العثمانية، القاهرة ٢٠٠٠م، ص ١٩-٢٣.

(٢) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ١٨٩.

سلاطين هذا العصر باستعادة جزر البحر المتوسط المفقودة التي أتخذها الغرب الأوربى محطات وقواعد لشن هجماتهم على سواحل دولة المماليك، خاصة جزيرة قبرص وجزيرة رودس، علاوة على ذلك كان من الضرورى إعداد السفن اللازمة لمواجهة الأخطار الجديدة التي تعرضت لها دولة المماليك في آواخر عصرها لاسيما خطر البرتغاليين.

اعتنى السلطان الأشرف برسباى (٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢١-١٤٣٧م) عناية كبير بدار الصناعة ببولاق، وكان يشرف عليها بنفسه، بل ويذهب يوميًا إليها، ليشرف بنفسه على بناء السفن اللازمة للأسطول، وليتأكد من سير العمل فيها، إذ كان يستعد لغزو جزيرة قبرص. ففى صفر من عام ٨٢٨هـ/١٤٢٥م ركب السلطان برسباى في طائفة يسيرة، بثياب جلوسه – كما يذكر المقريزى[١] وكشف الطريدة[٢] الحربية التي تعمل بساحل بولاق. وفى شهر ربيع الآخر من نفس العام أمر السلطان أن يبدأ العمل في طريدتين حربيتين وأربعة أغربة في دار الصناعة في بولاق، واهتم بالأشراف على تجهيزها بنفسه، بأن حرص على زيارة دار الصناعة ببولاق بصفة مستمرة، لتفقد سير العمل في بنائها، فتذكر المصادر[٣] أنه ركب من القلعة بثياب جلوسه (رجب ٨٢٨هـ)، ونزل إلى ساحل بولاق لرؤية ما أمر بإنشائه من الطرائد والأغربة لغزو الفرنج، وبعد أن شاهد الأغربة والطرائد التي عملت برسم الجهاد، وقد أشحنوا بالسلاح والرجال، عاد إلى القلعة، ثم ركب في الغد، وتوجه إلى بيت زين الدين عبد الباسط المطل على النيل ببولاق لمشاهدة

---

(١) السلوك، ج٤، ق٢، ص ٦٧٩.

(٢) الطريدة والجمع طرائد وطرادات وهى سفن تستعمل في البحر المتوسط، وهى مفتوحة المؤخرة، بأبواب تفتح وتغلق، ومعدة لحمل الخيل والفرسان، لمزيد من التفاصيل انظر درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص ٨٩-٩٢.

(٣) المقريزى، السلوك، ج٤، ق٢،ص ٦٨٢، ٦٨٩، ٦٩٠؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ٢٧٦؛ عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، ج٤، ص ١٦٧؛ البقاعى، تاريخه، ق٣، ص١٤١.

الأغربة بعد أن استعدت للسفر، وكان عددها أربعة أغربة، بكل غراب أمير، وتقدم الأربعة الأمير جرباش الكريمى الظاهرى حاجب الحجاب، وكان يوماً مشهوداً، حشر فيه الناس من كل جهة لمشاهدة ذلك.

لم يكتف السلطان برسباى بذلك، بل أعد أغربة أخرى بدار صناعة بولاق إذ يذكر عبد الباسط بن خليل أنه بلغ عدد الأغربة التي أعدها السلطان برسباى بدار صناعة بولاق ثمانية أغربة، وكان لسفرها أوقاتاً مشهودة بساحل بولاق(1). وهذا يعنى أنه أعد أربعة أغربة أخرى غير الأربعة الأولى في ساحل بولاق، وجعل في كل واحد منها مقدم من أعيان المماليك السلطانية، وكان آخرها سفراً الغراب الثامن في ٨ شعبان من عام ٨٢٨هـ/١٤٢٥م وقد أخذت هذه الأغربة طريقها إلى قبرص عبر موانى مصر(2).

وعندما كان السلطان برسباى يعد العدة لغزوة قبرص الكبرى في عام ٨٢٩هـ/١٤٢٦م(3). أمر بعمارة الأغربة والحمالات(4) والزوارق في دار صناعة بولاق، وجدَّ في ذلك وبذل الأموال، ولما تكاملت العمارة حتى بلغت مائة قطعة

---

(١) نيل الأمل، ج٤، ص ١٧٥.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ٢٧٦؛ العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (٨٢٤-٨٥٠)، تحقيق عبد الرازق الطنطاوى القرموط، ص٢٥٤؛ ولمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة انظر:

Ahmed Darrag, L'Egypte sous Le Règne de Barsbay, pp. 246–253.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة انظر: المقريزى، السلوك، ج٤، ق٢، ص ٧١٩-٧٢٤؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٨، ص ٩٨-١٠٦؛ العينى، عقد الجمان (٨٢٤-٨٥٠هـ)، ص٢٦٤-٢٧٣؛

Ahmed Darrag, L'Egypte, pp. 253–255.

(٤) مفردها حمالة وهى من ملحقات الأسطول الحربى، مخصصة لنقل مؤونة الجيش، وأزواده والصناع والخدم الملحقين بالجيش والأسطول. لمزيد من التفاصيل انظر درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص ٤٠-٤١؛ وعن الزوارق انظر ص ٥٩-٦٢.

وزيادة – كما يذكر ابن حجر[1] – تجمع المجاهدون في بولاق للخروج للغزو (شعبان ٨٢٩هـ/ يوليو ١٤٢٦م) وكان يوم خروجهم من ساحل بولاق يوماً مشهوداً، تجمع الناس من مختلف النواحي والجهات لمشاهدتهم، وازدحمت بيوت بولاق بالمتفرجين[2].

سار السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م) على نهج السلطان برسباى في مواجهة الفرنج بجزر البحر المتوسط، خاصة بعد أن كثر أذاهم، وأخذهم لمراكب التجار كما يذكر الصيرفى[3]. فكما استعاد برسباى قبرص، سعى جقمق إلى استعادة جزيرة رودس، وكان ذلك مدعاة لأن يهتم ببناء الأسطول في دار صناعة بولاق، فأعد بها في سنة ٨٤٤هـ/١٤٤٠م أسطولا مكون من خمسة عشر غراباً لغزو الفرنج، بأحسن ترتيب ونظام، وهيئة وحرمة واهتمام كما يروى الصيرفى[4]، وذلك لما فيها من الغزاة، والمطوعة والمماليك السلطانية.

وسافر الأسطول من ساحل بولاق لغزو جزيرة رودس، ورغم فشله في تحقيق الغرض المرجو من ورائه إلا أن السلطان جقمق لم ييأس وأمر في عام ٨٤٧هـ/١٤٤٣م بتجهيز مراكب كثيرة، وأقام الصناع في عملها على شاطئ النيل ببولاق أي في دار صناعتها، واستمر العمل لعدة شهور، وأنفق عليها السلطان أموالاً كثيرة، ولما تجهزت المراكب بعددها وعُدتها، سافرت من بولاق متجهة إلى ثغر الإسكندرية ومنها إلى رودس لغزوها[5].

---

(١) إنباء الغمر، ج٨، ص ٩٨.

(٢) محمد عبد الغنى الأشقر، الملحمة المصرية عصر المماليك الجراكسة ورد الاعتبار في عهد برسباى، القاهرة ٢٠٠١، ص ٧١.

(٣) نزهة النفوس، ج٤، ص ١٩٦.

(٤) نزهة النفوس، ج٤، ص ١٩٦؛ وانظر أيضاً: ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٥، ص٣٤١؛ العينى، عقد الجمان (٨٢٤-٨٥٠هـ)، تحقيق عبد الرازق القرموط، ص ٥٥٨-٥٥٩.

(٥) لمزيد من التفاصيل انظر: الصيرفى، نزهة النفوس، ج٤، ص ٢٧١-٢٧٢؛ السخاوى، التبر المسبوك، ج١، ص ١٥٦، ١٥٧، ٢٠٢؛ ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج١، ص ٥٩-٦١؛ وانظر أيضاً فاطمة حسن وقاد، "دور الأسطول المصري في عصر الحروب الصليبية"، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب القاهرة ١٩٩٨م، ص٢٣٠، ٢٣٦.

وفى شوال من عام ٨٦٤هـ/١٤٦٠م نزل السلطان إينال إلى بولاق بعد أن عرض الجند، وذلك لمتابعة سير العمل في المراكب، التي كان يريد إرسالها إلى جزيرة قبرص[١].

ظلت دار صناعة بولاق تؤدى دورها في عصر دولة المماليك الجراكسة، خاصة عندما يلوح في الأفق خطر خارجي يتهددها، فعندما لاح خطر البرتغاليين ــ الذين سعوا إلى الوصول إلى الهند لجلب سلع الشرق الأقصى وفى مقدمتها التوابل بربع الثمن، الذي كانت تباع به في أسواق مصر وموانيها، مما يترتب عليه انتقال زمام تجارة الشرق الأقصى من أيدى المماليك إلى أيدى البرتغاليين[٢] ــ حاول السلطان الغورى (٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠١-١٥١٦م) قتالهم، ولكنه هزم منهم في معركة ديو البحرية ــ أهم موانى كجرات ــ التي تقع على ساحل الهند الشمالى الغربى – في عام ٩١٥هـ/١٥٠٩م[٣]. لذا سعى السلطان الغورى إلى إعداد أسطول قادر على مواجهة البرتغاليين، وبدأ بتوفير الأخشاب والمواد اللازمة لبناء هذا الأسطول في دار صناعة بولاق، ومن أجل ذلك أرسل إلى السلطان العثمانى بايزيد الثاني طالباً منه أن يبيعه ما يحتاج إليه من أخشاب وعتاد، فأرسل إليه السلطان العثمانى عدة مراكب، تحمل أخشاب وحبال وحديد وسلب ومراسى حديد ومقاذيف وغير ذلك، مما تحتاج إليه صناعة السفن (شوال ٩١٦هـ/ فبراير ١٥١١م) [٤]. عندئذ شرع في بناء سفن الأسطول في دار صناعة بولاق وبادر بإنشاء أربعة أغربة حربية في دار صناعتها، ولما تم إعدادها حملاها على ظهور

---

(١) البقاعى، تاريخه، ق٢، ص ١٤١.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر محمد فتحى الزامل، "دور القوى الأوربية في الحصار الاقتصادي على سلطنة المماليك ١٢٩١-١٥١٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب القاهرة ٢٠٠٠م، ص ١٠٣ وما يليها.

(٣) عن معركة ديو انظر محمد فتحى الزامل، دور القوى الأوربية، ص ١٠٩، ١١٠، ١١١.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٠١.

الإبل مفككة إلى ثغور الطور، وهناك تولى العمال تركيبها، وإنزالها فــي البحــر الأحمر كطليعة للأسطول المصري الذي انتوى السلطان منازلة البرتغاليين به[1].

شهد عام ٩١٧هـ/١٥١١م نشاطاً واسعاً في دار صناعة بولاق، ففي صــفر منه نزل السلطان الغوري لاستعراض المركب الكبير (الغليون) [2]. الذي عمره في بولاق عند الرصيف، ولما اكتملت عمارته في دار صناعتها، زينــوه بالــصناجق، والطوارق، والمكاحل (المدافع)، وتوجهوا به إلى طرا، حيث عرضوه على السلطان في البحر[3]. كذلك أمر السلطان الغوري ببناء عدة سفن في دار صناعة بولاق، ولم يكتف بذلك بل نزل في الحراقة في جمادى الآخرة من نفس العام، وأتى إلى بولاق، فكشف عن تلك المراكب التي أنشأها هناك[4]. ونزل مرة أخرى في ٢٠ من شعبان، وكشف على المراكب التي عمرها هناك، وتكرر نفس الشئ بعد أسبوع آخر أي في ٢٧ من شعبان من عام ٩١٧هـ/١٥١١م حيث نزل السلطان الغوري للمرة الثالثة، وذهب إلى بولاق، وكشف على المراكب، ثم عاد إلى القلعة[5].

تابع السلطان الغوري اهتمامه بالسفن التي تبنى في دار صناعة بولاق ففــي ٢٣ من رمضان من العام نفسه (٩١٧هـ) نزل من القلعة وبصحبته ولده، ونــزل في الحراقة من المقياس، واتجه نحو بولاق، حيث كشف على المراكب التي عمرها هناك[6]. وهكذا تكرر خروج السلطان الغوري إلى دار صناعة بولاق للكشف على

---

(١) سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٦٧م، ص ١٣١.

(٢) الغليون، نوع من المراكب عالي الطرف، وهو يستخدم في القتال وفي نقل المسافرين أيضاً. لمزيد من التفاصيل انظر درويش النخيلي، السفن الإسلامية، ص ١١٢-١١٤.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢١٥؛ وانظر أيضاً محمــود رزق ســليم، الــسلطان قانصوة الغوري، القاهرة، بدون تاريخ، ص٩٨.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٣٨.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٤٣، ٢٤٤.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٤٦.

السفن، وسير العمل فيها عدة مرات خلال عام واحد وهو عام ٩١٧هـ/١٥١١م مما يدل على أن دار صناعة السفن ببولاق أصبحت هي دار الصناعة الوحيدة في القاهرة، التي يتم فيها عمارة السفن الحربية وغيرها.

استمر اهتمام السلطان الغورى بعمارة السفن في دار صناعة بولاق وكثيراً ما كان ينزل إليها من أجل الكشف عن سير العمل فيها ليس فقط في عام ٩١٧هـ/١٥١١م ولكن في الأعوام التالية كذلك ففى الثاني من ذى الحجة من عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م توجه السلطان الغورى إلى بولاق، وكشف على عمارته التي هناك، ثم عاد إلى القلعة، وفعل مثل ذلك في ٢٣ من الشهر ذاته، حيث سار نحو بولاق – كما يروى ابن إياس – وكشف على العمارة التي هناك، ثم عاد من يومه إلى القلعة(١).

لم يقتصر عمل دار صناعة بولاق على بناء السفن الحربية وعمارتها فحسب، بل تم فيها عمارة أنواع أخرى من السفن كسفن نقل الغلال وسائر السلع وسفن التنزهة، فذكر المقريزى إنه تم عمارة غرابين بساحل بولاق، وحمل قطعاً على الجمال إلى السويس، ليركبا ويطرحا في بحر السويس لأجل حمل الغلال ونحوها إلى مكة، وكانت تعمل بمجاديف لتمر سريعة، وتمسك عنها الريح(٢). ويبدو أنه كان يصنع في بولاق نوع من السفن كان تستخدم في نقل الثلج المستورد من الشام، ويرسو في ميناء بولاق، ثم ينقل على البغال إلى الشرابخاناه الشريفة، ويخزن في صهريج(٣). أما عن مراكب النزهة فقد عمر السلطان الغورى ببولاق

---

(١) بدائع الزهور، ج٤، ص ٤٢٧، ٤٣٢.

(٢) السلوك، ج٤، ق٢، ص ٦٨٦؛ وعن سفن نقل الغلال انظر ما سبق، ص١٣٢-١٣٣.

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر، ابن شاهين الظاهرى، زبدة كشف الممالك، ص ١١٧؛ العمرى، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٣٥٦-٣٥٧؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ج١٤، ص٣٩٦.

مركباً على صفة المركب القديم المعروف بالحراقة الذهبية، ولما فرغ العمل فيهـــا، أمر السلطان في المحرم من سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م بأن تزين بالصناجق، ويضعوا فيها الطبول والزمور والنفوط، وأن تحضر على تلك الهيئة من بولاق إلى المقياس، ولما رآها السلطان، انشرح صدره كما يذكر ابن إياس وابتهج(١). وهكذا كان يصنع في دار صناعة بولاق جميع أنواع السفن والمراكب والقوارب وغيرها.

الحرف والصناعات الأخرى في بولاق :

مع ازدهار ميناء بولاق، وتحول تجارة الشرق إليها بدلاً من مصر القديمـــة، تكاثرت بها الأنشطة الحرفية، وسكنها الكثير من الحرفيين، ويشهد على ذلك كثـرة عدد الرباع التي سكن بها هولاء الحرفيون والصناع في بولاق، كما ذكر الرحالـــة ومنهم الحسن الوزان أن "بولاق ربض كبير... يشتمل على كثير من الصناع"(٢).

ومن أهم الصناعات والحرف التي شهدت رواجاً في بولاق صناعة الـسفن، وقد سبق التفصيل لها(٣). ومن الحرف والصناعات التي أمكن التعرف عليها مـــن خلال الوثائق صناعة الزيوت، ومطابخ السكر والقصب، وطواحين الغلال فـضلاً عن المصابغ وصناعة الألبان إلى جانب صناعة الخبز وغيرها مـــن الـصناعات الغذائية اللازمة لتلبية احتياجات السكان اليومية(٤).

أولاً : معاصر الزيت وصناعة الزيوت :

كان للزيت أهمية كبيرة في العصر المملـوكى، إذ اسـتعمل فـي الطعـام والإضاءة، وفى الطب في علاج بعض الحالات، وكان يستخرج من بذور الكتـان والسمسم والزيتون وبذرة القطن والذرة والفول السودانى والقرطم وغيرها. وكـان

---

(١) بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٦٨.
(٢) وصف أفريقيا، ص ٥٨٥.
(٣) انظر ما سبق ص١٧١ وما يليها.
(٤) أندريه ريمون، القاهرة، ص ١٦٩؛
Nelly Hanna, An Urban, pp. 24–25.

يتم استخلاص الزيت على عدة خطوات تبدأ بغربلة البـذور وتنظيفهـا لاسـتبعاد الأتربة، وخصص بالمعاصر أماكن لهذا الغرض تسمى مسطاح[1]، أو مقعد لطيف برسم النخل، ثم تطحن البذور بدون تحميص وتبلل البذور أثناء الطحين بمحلـول ملحى مخفف، ثم توضع البذور فوق أبراش من الحلفا في طبقات متبادلـة، ويمـر قرص المعصرة، وتكبس البذور المجروشة، فيسيل الزيت في أنية خاصة مصنوعة من الحجر أو من المرمر حتى لا يكون قابلاً للرشح، ثم يخزن بعد ذلك[2].

ومن أهم معاصر الزيت ببولاق التي ذكرتها الوثائق معصرة الزيت بالقرب من جامع الواسطى، وأول ما عرفت هذه المعصرة عرفت باسم زينب ابنـة أبـو المحاسن كما جاء في وثيقة وقفها، وهى مؤرخة فـي ٧ جمـادى الآخـر سـنة ٨٦٤هـ[3]. ثم انتقلت ملكيتها على ما يبدو إلى الزينى فيروز بن عبد الله الطواشى الحر الزينى خشقدم الزمام، الذي قام ببيعها بعد ذلك، واشتراها منه عبد المعين بن شمس الحنفى وكيلاً عن السلطان الغورى[4]، وذلك في ٢٣ جمادى الآخـرة سـنة ٩١٠هـ، ثم جعلها السلطان الغورى من بين أوقافه[5]. والوثائق الثلاثة تصف ذات المعصرة، واتضح من خلالها أن هذه المعصرة كانت تتكون من روشن[6] تعلوهـا

---

(١) المسطاح مكان مستوى تبسط عليه الحبوب لتجفف. محمد محمد أمين وليلى على إبـراهيم، المصطلحات المعمارية، ص ١٠٦.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر، أحمد محمد أحمد، "المنشآت الصناعية في العصر المملوكى من خلال الوثائق"، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب سـوهاج، جامعـة أسـيوط ١٩٨٥م، ص١٦-١٩.

(٣) وثيقة وقف رقم ٧٣٨ج أوقاف، نشر أجزاء منها أحمد محمد أحمد، المنشآت، ص١٩.

(٤) انظر وثيقة بيع رقم ٤٣١ ج/ أوقاف، منشورة عند أحمد محمد أحمد، المنشآت الـصناعية، ص٣٠-٣٢.

(٥) وثيقة وقف رقم ٨٨٣، نشرها عبد اللطيف إبراهيم، دراسات تاريخية وأثرية، ج٢، ملحـق ص٣٠.

(٦) روشن، انظر ما سبق، ص٧٦، هامش ١.

ثلاثة أدوار أو ثلاثة أروقة كاملة المنافع والحقوق.

واشتملت معصرة الزيت هذه على عدة مخازن (حواصل) برسم الكُسب والغلال، مضربين، ودار الدواب وتحتوى على مخزن ومنخلة ودشيش، وبئر ماء معين، وفسقية بها اثنى عشر حجراً بقواعدها وحواجزها، وهى برسم اعتصار الزيت، ومدشتان[1] برسم البذر والقرطم ومدشتان ومنخلتان وحوض برسم منخلة دش البذر، وبيت العيدان ويحتوى على الأعواد الخاصة بعصر الزيت، وعددها أربعة عيدان، إلى جانب أربعة آبار برسم الزيت، ومخزن برسم الزيت كذلك؛ مع دار البقر ومرحاض[2].

أما عن حدود هذه المعصرة، فالحد الشرقى ينتهى لوقف المدرسة الظاهرية، والحد الغربى ينتهى لوكالة نور الدين الطنبدى، وبعضه للزقاق المتوصل منه إلى الجامع الواسطى، أما الحد القبلى فينتهى عند وقف ابن سنقر، والحد البحرى ينتهى للطريق وفيه الواجهة والأروقة[3].

كان ببولاق كذلك سيرجة لعصر زيت السمسم وصناعة السيرج (الزيت الحار) والطحينة، وكانت وقفاً على المدرسة الجيعانية ببولاق[4]. وذكرت سجلات محكمة بولاق سيرجة أخرى في وقف الأمير يشبك من مهدى تجاه باب جامع زين

---

(١) المدش: الدش جعل الحبوب دشيشة بمعنى طحنها غليظاً، ومن ثم فالمدش يختلف عن الطاحون، فالأخير يجعل الحب دقيقاً. محمد محمد أمين وليلى على إبراهيم، المصطلحات المعمارية، ص١٠٢.

(٢) انظر وثيقة رقم ٧٣٨ج/ أوقاف، ووثيقة رقم ٤٣١ ج/ أوقاف، وانظر أيضًا: أحمد محمد أحمد، المنشآت الصناعية، ص ٣٠-٣٣، ووثيقة رقم ٨٨٣ أوقاف الغورى، عبد اللطيف إبراهيم، دراسات تاريخية، ج٢، الملحق، ص ٣٠.

(٣) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات تاريخية، ج٢، الملحق، ص٣٠؛ أحمد محمد أحمد، المنشآت، ص٣٢، ٣٣.

(٤) وثيقة بيع رقم ٢٠٢ ج/ أوقاف؛ أحمد محمد أحمد، المنشآت، ص٦٥.

الدين الاستادار، وقد اشتملت على منافع وحقوق، وآلة صالحة لــلإدارة، وأجــرت لصناعة السيرج والطحينة[1]. كذلك عرفت بولاق في العصر المملوكى الجركــسى معاصر لعصر زيت الخرنوب، ومنها معصرة جاء ذكرها في أوقاف القاضى زين الدين الاستادار لعصر الدبس والخرنوب بخط سوق الاستادارية، وقد اشتملت على بيت نار ومنافع وحقوق[2].

ثانياً : معاصر القصب وصناعة السكر والعسل :

انتشرت معاصر القصب في بولاق بشكل كبير، خاصة وأن زراعة قــصب السكر قد ازدهرت في بولاق وأنحائها، كذلك كثرت بها مطابخ السكر. ومن أهــم هذه المعاصر معصرة قصب تقع أمام المدرسة الجيعانية، وقد فصلت لها وثيقة بيع رقم ٢٠٢ جــ/ أوقاف والمؤرخة بتاريخ ٢٣ ربيع الآخر سنة ٩٠٩هــــ/١٥٠٣م باسم شمس الدين جمال الفاضوى البائع[3]. كذلك جاء وصف مماثل لهذه المعصرة في وثيقة وقف الغورى رقم ٨٨٣[4]. وهذه المعصرة كما اتضح من المصادر كانت ملكًا للسعدى إبراهيم بن الجيعان صاحب المدرسة الجيعانية، ففى حديث ابن تغرى بردى عن حريق بولاق الشهير في عام ٨٦٢هــ/١٤٥٧م تحدث عن هذه المعصرة فذكر "واحترقت فيه (أي في الحريق) معصرة السعدى ابراهيم بن الجيعــان التــي عمرها تجاه مدرسته"[5]. وحدد البقاعى أيضاً موقع هذه المعصرة بقوله وهى خارج درب البارزى شمالية[6]. ومن خلال الوثائق اتضح أن هذه المعصرة كان لها حدود أربعة القبلى ينتهى إلى غيط ابن البارزى مما يؤكد كلام البقاعى، والحد البحــري

(١) نقلاً عن عادل شحاته طايع، حي بولاق، ص ٢١٠.
(٢) نقلاً عن عادل شحاته طايع، حي بولاق، ص٢٠٥.
(٣) انظر الوثيقة عند أحمد محمد أحمد، المنشآت، ص ٦٤-٦٥.
(٤) عبد اللطيف إبراهيم، دراسات، ج ٢ الملحق، ص ٣٠.
(٥) منتخبات من حوادث الدهور، ج٢، ص ٣١٣.
(٦) تاريخه (إظهار العصر)، ج٢، ص ٣٦٠.

ينتهى إلى الطريق الذي يفصل بين المدرسة الجيعانية وقصر البرابخية، أما الحد الشرقى فينتهى إلى الطريق الذي يفصل بين قصر الحجازية ومعصرة ابن الصيرفى والشونة، أما الحد الغربى فينتهى إلى السرجة الجارية في وقف المدرسة الجيعانية[1].

وهناك أيضاً معصرة القصب الواردة في وقف الأمير يشبك من مهدى الدوادار وتقع خارج بولاق بخط القرابيص وخط المدرسة الجيعانية المعروفة بالوسطانية، وقد اختصت بعصر القصب وطبخ السكر[2].

احتوت بولاق كذلك على عدد آخر من معاصر القصب ومنها معصرة ابن الصيرفى بجوار قصر الحجازية والمجاورة أيضاً لمعصرة الجيعانى، ومعصرة الخليفة والمعصرة الطنبدية[3]. وأشار ابن إياس إلى معصرة أخرى في بولاق في حوادث سنة ٩١٤هـ/١٥٠٦م[4]. وليس أدل على كثرة المعاصر في بولاق مما تذكره المصادر[5] في حوادث سنة ٨٤٨هـ/١٤٤٤م من أن المحتسب يار على العجمى الخراسانى ركب في جمعه، وذهب إلى بولاق، فكبس المعاصر بساحل بولاق، وقبض على عبدين وجاريتين من بعض المعاصر التي هناك، فاجتمع عليه العبيد وأهل المعصرة، ورجموه بالحجارة، وأكثروا من سبه ولعنه، وكادوا أن

---

(١) وثيقة بيع رقم ٢٠٢ ج/ أوقاف، منشورة عند أحمد محمد أحمد، المنشآت الصناعية، ص٦٥؛ وثيقة وقف الغورى ٨٨٣، انظر عبد اللطيف إبراهيم، دراسات، ج٢، الملحق، ص٣٠.

(٢) انظر سجلات محكمة بولاق، نقلاً عن عادل شحاته، حي بولاق، ص٢٠٥.

(٣) وثيقة بيع ٢٠٢ج أوقاف، نشر أحمد محمد أحمد، المنشآت الصناعية، ص٦٥؛ وثيقة وقف الغورى رقم ٨٨٣، نشر عبداللطيف إبراهيم، دراسات، ج٢، ملحق، ص ٣٠؛ ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج١، ص ٢١٦، السخاوى، التبر المسبوك، ج٣، ص ٣٩.

(٤) بدائع الزهور، ج٤، ص ١١٤.

(٥) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج١، ص ٧١؛ السخاوى، التبر المسبوك، ج١، ص ٢٠٠؛ العينى، عقد الجمان، حوادث وتراجم (٨٢٤-٨٥٠هـ) تحقيق عبد الرازق الطنطاوى، ص٦٢٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص٢٤١.

يقتلوه لولا أن هرب ودخل بيت الكمال ابن البارزى كاتب السر نجاة بنفسه.

يتضح من هذه الرواية كثرة عدد المعاصر بساحل بولاق، وأن معظمها كان يقع إلى الشمال من قصور آل البارزى، وأن معظم من كان يعمل بهذه المعاصر من العبيد والجوارى، وأن المحتسب كانت له مهمة الإشراف العام على هذه المعاصر لضمان سير العمل فيها كممثل للدولة وموظف من قبلها، وهذا ما يوحي بأنه وجدت في بولاق معاصر عامة إلى جانب المعاصر الخاصة.

لم يقتصر عمل معاصر القصب على اعتصار القصب فحسب، بل وطبخه وصناعة السكر والعسل منه، وقد ظهر ذلك من خلال ما ذكره ابن إياس في حوادث سنة ٩١٢هـ/١٥٠٦م، عن إشتعال النيران في معصرة ببولاق نتيجة عاصفة، حيث طارت شرارة نار إلى شونة تبن في تلك المعصرة، فعملت فيها النار، فأحترقت المعصرة، ونهب ما فيها من قصب وسكر وعسل[1].

وأمكن التعرف على محتويات معاصر القصب ومطابخ السكر وذلك من خلال الوثائق[2] التي اتضح منها أن معصرة القصب تحتوى على :

- بيت القصب ويتكون من عدة مخازن ذكرت بعض الوثائق أن عددها ثمانية عشر مخزناً، لتخزين القصب، إلى جانب مكان ينقل إليه القصب لتقشيره وإعداده للعصر، ويسمى (بيت التقشير).
- المدار[3] ويقع بجوار بيت القصب وهو عبارة عن ساحة بها أحواض يوضع فيها القصب بعد تقشيره بالإضافة إلى حوض أو أكثر للماء، ويحتوى المدار

---

(١) بدائع الزهور، ج٤، ص ١١٤.

(٢) انظر وثيقة بيع ٢٠٢ ج/ أوقاف نشر أحمد محمد أحمد، المنشآت، ص ٦٤-٦٥؛ وثيقة وقف الغورى ٨٨٣ أوقاف، نشر عبد اللطيف ابراهيم، دراسات، ج٢، الملحق، ص٣٠.

(٣) المدار يعنى ما يحيط بالمبنى سواء من الداخل أو من الخارج. محمد محمد أمين وليلى على إبراهيم، المصطلحات المعمارية، ص ٤٥.

على حجرين معدين لاعتصار قصب السكر وهما من الحجر الصوان، لكل منهما قاعدة وجايزة وهرميس ويقصد به الحجر الذي يعصر القصب، والهودية وهى الجزء الخشبى الذي تربط فيه الأبقار لإدارة المعصرة.

- بيت البقر أو دار البقر وهى عبارة عن ساحة لربط الأبقار وتحتوى على طوايل، ومتبن، وحاصل صغير أي مخزن برسم العلف ومنافع ومرافق وحقوق كما تذكر الوثائق. وبه أيضاً حوض وبيت مدشة.
- المطبخ: وكان ينقسم في معصرة ابن الجيعان إلى قسمين كل قسم به (بيت خابية)[1] وبه أربعة عشر بيتاً برسم قدور النحاس، وعدد إثنان (بيت بطسة)[2] وعدد إثنان (بيت صب) وبالمطبخ أيضاً مخازن لتخزين السكر المصنع والعسل.
- ويجاور المعصرة شونة وبئر ماء وبعض بيوت السودان ممن كانوا يعملون في المعصرة وبيوت للوقادين.

أما عن مراحل صناعة السكر والعسل، فبعد أن يتم تنظيف عيدان القصب وتقشيرها ونزع أطرافها العليا، تنقل إلى المدار حيث يتم عصرها بواسطة معصرتين إحداهما حجرية والأخرى خشبية، ثم يجمع العصير ويصفى عدة مرات، وفى المطبخ يوضع في الخابية وهى آنية كبيرة من النحاس وتغلى غلياناً شديداً إلى أن يتحول إلى سائل يعرف باسم (المحلب) ثم ينقل إلى (بيت الصب) حيث يصب في أباليج، تعلق فوق قواديس، وتترك، ثم ينقل ليقطر من مسامها عسل القصب[3].

وتبدأ صناعة السكر من لحظة وضع المحلب في الأباليج، ففى الوقت الذي

---

(١) وهي الآنية والقدور كبيرة الحجم.

(٢) وهي الآنية الكبيرة تشبه القوارير.

(٣) النويرى، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٨، ص ٢٦٧-٢٧١؛ حلمى محمد سالم، اقتصاد مصر الداخلي وأنظمته في العصر المماليكى، إسكندرية بدون تاريخ، ص ٦٨-٧٠، ٧٤.

ينفصل فيه العسل من المحلب، يبدأ المحلب في التجمد في نفس الوقت داخل الأباليج، ويتحول إلى قند، والقند هو أول نوع من أنواع السكر، التي كانت تصنع وقتئذ وأقلها جودة، لأنه لم يناله التكرير، لذلك كان أحمر اللون. أما عملية التكرير فكانت تتم بإعادة طبخ القند على النار عدة مرات، وبعد كل مرة يوضع في أقماع ليجمد فيها، بينما تفصل الشوائب العالقة به، وتسيل من ثقوب بأسفل الأقماع، فيصبح السكر المتحصل من القند أكثر نقاء عن ذى قبل. ومن ثم فإن صناعة السكر تعتبر مكملة لصناعة عسل القصب، لذلك كان يراعى في كثير من الأحيان أن تقام مطابخ السكر مع مطابخ عسل القصب في مبنى واحد[1].

ثالثاً : حرفة طحن الغلال:

كانت بولاق ساحل الغلة، ومن ثم لا عجب أن وجد بها عدد من طواحين[2] الغلال، منها طواحين عامة وأخرى خاصة يمتلكها الأثرياء في المنازل والقصور لطحن غلالهم، أما المطاحن العامة فهى التي يمتلكها طحانون محترفون مهنتهم طحن الغلال، لقاء أجر معين، لمن يرغب من الناس؛ وقد زاول هذه المهنة أو الحرفة متمرس يعاونه صبى يتعلم منه كيفية سير العمل في الطاحونة، وكان رأس الصناع الموجودين بالطاحونة رجل يعرف باسم (المدولب) في الطواحين أي الشخص الذي يديرها، فقد جاء في ترجمة الشيخ شهاب الدين أحمد بن يوسف الشهير، بأن الزعيفريني أنه انقطع عن الناس، وسكن بولاق، ودولب طاحونا، أي قام بإدارتها[3].

(١) حلمى محمد سالم، اقتصاد مصر الداخلي، ص ٧٤.

(٢) عن الوصف المعمارى للطاحون انظر عادل شحاته، حى بولاق، ص٢١٥؛ محمد محمد أمين وليلى على إبراهيم، المصطلحات المعمارية، ص٧٥.

(٣) الصيرفى، نزهة النفوس، ج٣، ص ١٢٥-١٢٦، العينى، عقد الجمان (٨٢٣-٨٥٠هـ)، تحقيق عبد الرازق القرموط، ص ٣٢٤.

وكانت أغلب الطواحين العامة ببولاق تدار بالخيول والبغال، ويؤكد ذلك ما جاء على لسان الحسن الوزان "نجد على طول الطريق بيوتاً ومطاحن تديرها الحيوانات"[1].

خضع الطحانون في بولاق مثل غيرها لإشراف دقيق من قبل المحتسب فقد كان يلزمهم بألا يخلطوا ردئ الحنطة بجيدها، ولا عتيقها بجديدها، وبغربلة الغلة من التراب، وتنقيتها من الطين، وتنظيفها من الغبار قبل طحنها، كما يلزمهم بتغيير مناخل الدقيق في كل ثلاثة أشهر أو أقل من ذلك، ثم يقوم المحتسب باختبار الدقيق، فإنهم ربما خلطوا فيه دقيق الحمص أو الفول حتى يزيده. أما الدواب المستخدمة في إدارة الطواحين فقد ألزم المحتسب أربابها بأن يريحوها في كل يوم وليلة لحاجتها إلى السكون والراحة، وأن لا يستعمل الدابة في طحن أكثر من ربع ويبة[2]. كذلك يجعل المحتسب على الطحانين كميات من الدقيق يرفعونها إلى حوانيت الخبازين في كل يوم[3].

ومن أشهر الطواحين التي عرفتها بولاق "طاحون بالقرب من جامع الخطيرى" أشارت إليه أحدى وثائق الوقف وهي باسم أبو السعادات محمد الجوينى ومؤرخة بـ ٢٦ صفر سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٦م، وذكرت الوثيقة أن هذا الطاحون كان باسم الشيخ تقى الدين السبكى[4]. كذلك أشارت بعض سجلات محكمة بولاق

---

(١) وصف أفريقيا، ص ٥٨٥؛ وانظر أيضاً حلمى محمد سالم، اقتصاد مصر، ص ٧٨؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، القاهرة ١٩٩٩م، ص ١٣١-١٣٢.

(٢) الويبة مكيال مصري بالدرجة الأولى، كان يعادل ١٢,١٦٨ك جرام قمح، وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان = ١٦ قدحًا. انظر فالترهنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص٨٠.

(٣) انظر ابن الأخوة، معالم القربة في طلب الحسبة، ص ١٥٢-١٥٣، الشيزرى، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ٢١.

(٤) انظر نص الوثيقة رقم ٦٦٦ (وزارة الأوقاف)، وانظر أيضًا أحمد محمد أحمد، المنشآت الصناعية، ص ١١٩.

إلى وجود مدشات ببولاق في العصر المملوكى لجرش العدس وغسله ونشره وتقشيره ومنها مدش في وقف القاضى زين الدين الاستادار، ويقع بخط الاستادارية، ويشتمل على حجر ودائرة وحوض مبنى تحت تخوم الأرض ومنافع وحقوق وخصص لجرش العدس(١).

رابعاً : الصباغة:

مارس أهل بولاق حرفة الصباغة، واشتغل بها العديد منهم، فقد أشارت وثائق الوقف(٢) إلى وجود عدد من المصابغ في بولاق، ومنها مصبغة تقع ببولاق خارج باب البحر بخط حلقة السمك، ومصبغة أخرى لصبغ الأزرق، تقع بجوار جامع الخطيرى. وقد تخصصت بعض المصابغ في صبغ لون بعينه، وقد أتضح ذلك من تحديد الوثائق ذلك بأن المصبغة المجاورة لجامع الخطيرى كانت لصبغ الأزرق فحسب، وقد كانت النيلة(٣) التي تستخدم في صبغ الأزرق تزرع في مصر، كما كانت تستورد في بعض الأحيان، وإلى جانب النيلة استطاع المصريون الحصول على اللون الأزرق من نبات العظلم وهو نبات كان ينمو في الفيوم(٤). وبالإضافة إلى النيلة أو العظلم فقد استخدم الصباخون أيضاً في صناعتهم الشب والنطرون الذي كان يمثل مادة أساسية تستخدم في غسل الكتان وبياض قماشه، وكانت أرض مصر غنية بهما(٥).

---

(١) نقلاً عن عادل شحاته، حى بولاق، ص ٢٢١.

(٢) وثيقة رقم ٢٧٣ القلعة، مؤرخة في صفر ٩١٧هـ، ووثيقة رقم ٢٣٢، قلعة وانظر أيضاً أحمد محمد أحمد، المنشآت الصناعية، ص ٢١٦.

(٣) كانت صبغة الأزرق تستخلص بالتبخير أو التسخين من أوراق شجرة النيلة البرية. لمزيد من التفاصيل انظر: أحمد محمد أحمد، المنشآت الصناعية، ص٢٠٦، ٢١١.

(٤) أحمد محمد أحمد، المنشآت الصناعية، ص٢٠٧، ٢١١.

(٥) لمزيد من التفاصيل عن الشب والنطرون انظر، المقريزى، المواعظ والاعتبار، م١، ص١٠٩-١١٠؛ ٢٣٦.

وتصف الوثائق المكان المعد لصبغة النيلة والخوابى برسم الصبغ في حواصل الصباغين بأن بوسطه فسقية معدة لصبغ النيلة، وبه ثمانية عشر حاصلاً داير معدة لسكنى صباغة الأزرق، بها خوابى برسم الصبغ(1). ويتضح من هذا الوصف أن المصبغة كان بها مكان لسكنى الصباغين وإقامتهم.

خامساً : منتجات الألبان :

نظراً لأن الماشية والدواب كانت تأتي إلى بولاق بكثرة عبر نهر النيل من إمبابة لتمد القاهرة بحاجتها من اللحوم والألبان(2)، فقد قامت عليها عدة صناعات منها منتجات الألبان كالجبن والزبد وغيرها، وقد أشارت بعض وثائق العصر المملوكى(3) عند ذكرها للحمام الواقع بالقرب من جامع الخطيرى إلى وجود (قاعة لبن) ببولاق إذ جاء فيها "والحد الشرقى ينتهى إلى قاعة لبن هناك.."، كذلك جاء في وثيقة أخرى إلى جانب وثيقة وقف الغوري رقم ٨٨٢ عند وصف حمام على مقربة من جامع الخطيرى ببولاق، وجاء فيهما ذكر قاعة للبن "والحد الغربى ينتهى إلى بناية حسن وأخيه نجا المعروف البناء المذكور بقاعة اللبن..." (4). ووجود هذه القاعة وغيرها يعني بلا شك أن هذه القاعات كان يتم فيها تصنيع منتجات الألبان كالجبن والزبد وغيرها، وقد خضع مصنعو منتجات الألبان وبائعوها لأشراف المحتسب، فكان يأمر بائعى اللبن بتغطية أوانيهم، وأن يكون المكان مبيضاً مبلطاً، كما يلزمهم بغسل القصارى والمواعين بمسواك الليف الجديد والماء النظيف حتى لا يفسد اللبن، خاصة في أوقات الحر، ولا يستعمل إلا اللبن الحليب الدسم بخيره، ولا

---

(1) انظر أحمد محمد أحمد، المنشآت الصناعية، ص ٢١٤.

(2) انظر ما يلي ص

(3) وثيقةوقف رقم ٥٣٦ (أوقاف).

(4) وثيقة وقف رقم ٣٩٦ج (أوقاف)، وانظر أيضاً أحمد محمد أحمد، المنشآت، ص ١٥٥.

يكون مقشوطاً، وأوضح المحتسب طرق غش اللبن وكيفية معرفتها[1].

كذلك عرفت بولاق صناعة الجلود[2] وإن لم تمدنا وثائق العصر المملوكى الجركسي بإشارات عن هذه الصناعة.

سادساً : حرفة الصيد:

مارس بعض أهالى بولاق حرفة صيد السمك، وذلك أمر طبيعى بحكم وقوعها على النيل مباشرة، وخصص لصيد الأسماك نوعاً معيناً من المراكب منها ما يسمى بالشختور والجمع شخاتير، وكانت هذه المراكب تستخدم فى الصيد والنزهة كذلك كما سبق أن ذكرنا. وعندما تعرضت القاهرة لوباء فى سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م مات فيه سبعون من أهل بولاق، والأكثر من ذلك أنه تفشى بحيث أن ثمانية عشر إنساناً من صيادى السمك، كانوا في موضع واحد، فمات منهم أربعة عشر إنساناً في يوم واحد كما تروى المصادر[3]. وهذا مثال يدل على ممارسة أهل بولاق لحرفة الصيد.

كان للأسماك التي يتم صيدها من ساحل بولاق – أسواقاً متخصصة فى أنواع تلك الأسماك، فقد ذكر ابن تغرى بردى في معرض حديثه عن حريق بولاق ٨٦٢هـ/١٤٥٧م "سوق موردة[4] البورى" وأن دخل هذا السوق كان وقفاً على جامع الواسطى ببولاق، فقد كانت تقع بجواره، وكان بهذه المنطقة خط يعرف بخط حلقة السمك. وكان ما يتم صيده ويفيض عن حاجة أهل بولاق، يحمل بطبيعة الحال

---

(١) ابن الأخوة، معالم القربة، ص ٢١٠.

(٢) Nelly Hanna, An Urban History of Būlāq, p. 25.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ٣٣٨-٣٣٩؛ المقريزى، السلوك، ج٤، ق٢، ص ٨٢٥؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٨، ص ٢٠٠ وما يليها.

(٤) منتخبات من حوادث الدهور، ج٢، ص٣١٤؛ الموردة هي الطريق الموصلة للماء، وموردة البورى ببولاق كانت تقع بالقرب من جامع الواسطى. انظر عبد اللطيف إبراهيم، دراسات، ج٢، الملحق، ص٣٦، هامش ٣٩٤.

إلى "دار السمك" بالقاهرة، فيباع، ويؤخذ منه مكس السلطان كما يذكر المقريزى[1].

انتظم أصحاب الحرف كما هي العادة في شكل نقابات وظهر نوع من التضامن بين العمال في الحرفة الواحدة لوجود روابط مشتركة بينهم، وتؤكد إحدى الحوادث التي وقعت في بولاق ذلك. ففى عام ٩١٣هـ/١٥٠٧-١٥٠٨م تحارب جماعة من (الجوابر) مع جماعة من (النفر) في بولاق، وكان الجوابر يعملون في الزوارق، فهاجم النفر حمولات زوارقهم ونهبوها، فتعصب الجوابر على النفر وضربوهم، وجرحوا منهم جماعة، واستردوا منهم ما استولوا عليه، فلما بلغ ذلك طائفة النفر، اجتمع منهم السواد الأعظم، وتوجهوا إلى بولاق، ووثبوا على الجوابر، ونهبوا ما في مراكبهم من الغلال، ونهبوا دكاكين بولاق، وخطفوا عمائم الناس، عندئذ ثار عليهم الجوابر والنواتية الذين ببولاق، وأتوا إليهم بالسيوف والمقاليع، وقتلوا منهم عدداً، فاتسعت الفتنة – كما يذكر ابن إياس[2] – واستمرت ثلاثة أيام متتالية حتى تدخل السلطان لحسم الخلاف بينهم.

ومما لا شك فيه أن أهل بولاق مارسوا كافة أنواع الحرف والصناعات من أجل سد احتياجاتهم اليومية واحتياجات المناطق المجاورة لهم خاصة أهل القاهرة، غير أن المصادر ضنت بذكرها لذلك لم نعرض إلا للحرف والصناعات التي أشارت إليها المصادر والوثائق فحسب.

---

(١) المواعظ والاعتبار، ج١، ص ١٠٨.

(٢) بدائع الزهور، ج٤، ص ١٢٢-١٢٣. وانظر أيضاً: لابيدوس، مدن الشام في العصر المملوكي، ترجمة سهيل زكار، دمشق ١٩٨٥م، ص ١٦٥.

الفصل السابع

ميناء بولاق
ودوره في حركة التجارة والنقل

- عوامل ازدهار ميناء بولاق.
- ديوان الجمرك (عماله وموظفوه).
- الرسوم التي تحصل في ميناء بولاق من الأجانب والوطنيين.
- توثيق عمليات البيع والشراء (الشهود والقاضى).
- النقل والمواصلات.

الفصل السابع

ميناء بولاق ودوره في حركة التجارة والنقل

عوامل ازدهار ميناء بولاق :

أمست بولاق من موانئ القاهرة النهرية بداية من عام ٧١٣هـ/١٣١٣م وهو العام الذي أطلت فيه بولاق برأسها على أرض القاهرة، وبدأت تحل محل ميناء المقس، الذي أصبح غير صالح للاستعمال بسبب انحسار النيل نحو الغرب. ومع ذلك فإن تحركات النيل، من نقصان وزيادة وتراجع وانحسار، قد أعاقت نمو ميناء بولاق بعض الشئ، فكان النيل يحترق في بعض الأحيان، وتقل مياهه وتنحسر عن ساحل بولاق، فيستطيع الناس الخوض من عدة أماكن من ساحل بولاق إلى إنبابة، ثم تعود مياهه للزيادة شيئاً فشيئاً، ومما لا شك فيه أن مثل هذه التحركات للنيل قد أعاقت نمو ميناء بولاق بعض الشئ،(1) إلا أن فيضانات النيل اللاحقة، وظهور جزر بالقرب من بولاق لم تعرقل نمو الميناء بصفة دائمة(2).

ما لبث ميناء بولاق أن اتسع بحيث صارت السفن تقلع منه وترسو فيه، وقد اتضح ذلك من رواية ابن تغرى بردى في حوادث عام ٧٥٢هـ/١٣٥١م عن عودة الأمير شيخون(3) من الإسكندرية بعد سجنه بها ذكر "والمراكب قد ملأت وجه الماء

---

(١) لمزيد من التفاصيل أنظر ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٤، ص ١٣٠؛ السخاوى، التبر المسبوك، ج٣، ص ٩٥-٩٦؛ عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ٣، ص ٤٤٢؛ السيوطى، حسن المحاضرة، تحقيق محمد أبو الفضل، ص ٣٠٢؛ أندريه ريمون، القاهرة، ص ١٥٢.

(٢) أندريه ريمون، القاهرة، ص ١٦٩.

(٣) هو شيخو الناصرى كان رأس مشورة في دولة الناصر حسن، وصار زمام الملك بيده، وعظم شأنه، قبض عليه وسجن بالإسكندرية في عام ٧٥١هـ/١٣٥٠م ثم أفرج عنه في العام التالي، تصدى لثورة الأحدب بصعيد مصر، وزادت عظمته في دولة الناصر حسن الثانية، ومات في ٧٥٨هـ. لمزيد من التفاصيل أنظر ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٢٩٣-٢٩٤.

تبادر لبشارته، ... وسار إلى أن أرسى بساحل بولاق... وتلقته المراكب، ... وما إن وصلت حراقته إلا وكان حولها ألف مركب.." [1]. وفي هذا دلالة على أن بولاق صارت ميناءاً كبيراً يتسع لهذا العدد من المراكب في هذا التاريخ. كذلك أشار السيوطي إلى هبوب عاصفة عاتية غرق على أثرها ثلاثمائة مركب عند ساحل بولاق وذلك في عام ٧٥٧هـ/١٣٥٦م[2]. ثم بدأ ميناء بولاق يشتد عوده في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وبدأ يلعب دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية لمدينة القاهرة خاصة بعد أن أضمحل ميناء الفسطاط (مصر القديمة) بسبب :

أولاً : تراكم الرمال في فرع النيل الكائن بين جزيرة الروضة وساحل الفسطاط مما أحدث في النهاية أضراراً بميناء مصر القديمة، وساهم في نهضة ميناء بولاق[3].

ثانيًا : تحول طريق التجارة المصرية بداية من عصر السلطان برسباي (٨٢٥-٨٤٢هـ/١٤٢١-١٤٣٨م) واعتمادها على تجارة البحر المتوسط بدلاً من تجارة البحر الأحمر عبر الطريق التقليدي (عيذاب – قوص – الفسطاط (مصر القديمة) علاوة على تخريب ميناء عيذاب نهائياً في أواسط القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي[4].

---

(١) النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص ٢٥٩-٢٦٠.

(٢) حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٢١٤؛ وانظر أيضًا: ابن قاضي شهبة، تاريخه، م٣، ج٢، ص٩٦.

(٣) أندريه ريمون، القاهرة، ص ١٥١.

(٤) أنظر أندريه ريمون، القاهرة، ص ١٥٦؛ أيمن فؤاد، التطور العمراني لمدينة القاهرة منذ نشأتها حتى الآن، القاهرة ١٩٩٧م، ص ٤٠؛ عباس الطرابيلي، أحياء القاهرة المحروسة، القاهرة ٢٠٠٣م، ص ١٦١؛

Nelly Hanna, An Urban History of Bulaq, p. 15.

وقد ترتب على ذلك أفول نجم ميناء الفسطاط (مصر القديمة) وفقدانها لأهميتها الاقتصادية، وهجر الناس لها، وهذا ما عبر عنه ابن شاهين الظاهرى، فعندما تحدث عن ميناء بولاق ذكر "وهو من أحسن الأماكن على شاطئ النيل، ويرد إلى سواحله أكثر مما يرد إلى ساحل مصر (أي مصر القديمة الفسطاط) من المتاجر، فإن الوارد إلى ساحل بولاق كان أكثر بكثير"[١]. كذلك كتب الرحالة اليهودى مشولم بن مناحم **Meshullam Ben Menaham** — الذي زار مصر في عام ٨٨٦هـ/١٤٨١م — كتب يقول "أصبحت مصر القديمة المسماة بابوزينيا **Babozinia** كلها أنقاض، ويعيش فيها عدد قليل من الناس"[٢]. وفي ذات الوقت تألق نجم بولاق كميناء، إذ أصبحت ميناء القاهرة النيلى الأول، بعد أن كان ميناء الفسطاط هو مينائها الأول، وزادت أهمية هذا الميناء حتى صار الميناء الرئيسي للقاهرة، الذي يربطها بأهم موانئ المتوسط أي الإسكندرية ودمياط، كما جعل بولاق تستحوذ على الشطر الأكبر من حجم تجارة القاهرة عبر النيل[٣]. وقد أكد هذه الحقيقة الرحالة المغربى العياشى بقوله: "رسينا ببولاق، وهى مرسى القاهرة الكبيرة، والتي يتجمع فيها مراكب دمياط ورشيد"[٤].

يرجع ازدهار ميناء بولاق إلى جهود بعض السلاطين، فمنهم من اهتم بتشييد عدد من البيوتات التجارية به مثل برسباى وإينال وغيرهم، ومنهم من حرص على تشييد رصيف للميناء من أجل شحن وتفريغ البضائع في سهولة ويسر، فضلاً عن الاهتمام بتحسين الطرق المؤدية إليه أو المتجه منه إلى القاهرة، مثلما فعل جقمق،

---

(١) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس ١٨٩٤م، ص ٢٨، ٣١.

(٢) Alder, Jewish Travellers, London 1930, p. 167.

(٣) أندريه ريمون، القاهرة، ص ١٧٠؛ عبد الحميد حامد، تاريخ الموانى المصرية، ص ٢٨؛ Nelly Hanna, An Urban History of Bulaq, p. 16.

(٤) ماء الموائد، القاهرة ١٩٢١م، جـ٢، ص ٢٥٧؛ نجلاء مصطفى شيحة، الجاليات، ص ١٣٢، هامش (١).

الذي أدرك أنه من الممكن أن يجنى منافع كثيرة من هذا الموقع الجديد أي بولاق، لذلك سعى إلى تبنى سياسة تستهدف الوفاء باحتياجاته، فبنى سلسلة من الأحواض، وأنشأ الرصيف عند مدرسة ابن الزمن وكان انتهاؤه عند قصر الطنبدية أو السبكية، وخرج جقمق في جمادى الأول سنة ٨٥٤هـ/١٤٥٠م للكشف على هذا الرصيف، الذي عمره في بولاق عند المعاصر، وأخلع على (على بن القيسى) الذي كان مشدّا على عمارة هذا الرصيف[١]. ونتج عن ذلك تسهيل في حركة التجارة داخل الميناء بشكل كبير سواء عبر النهر أم برّا، فقد كان للظاهر جقمق وزوجته خوند زهـرة نشاطاً تجارياً واضحاً في بولاق، فقد امتلكت زوجته ثلاث وكالات كما سبق أن ذكرنا، كما امتلك هو وكالة كانت قائمة بخط ساحل الغلال[٢].

ساهم في ازدهار ميناء بولاق كذلك أنها كانت مركزاً رئيسًا لتجارة الغلال وبها ساحل الغلة، حيث يجلب تجار الحبوب إليها الغلال من الصعيد وضواحى الوجه البحرى، كالقمح والفول والسمسم والشعير والعدس، وغيرها، فضلاً عن أن كميات كبيرة من الحبوب، كانت ترسل إلى بلاد الحجاز وكذلك إلى بلاد الشام عبر ميناء بولاق، مما ساعد على تنشيط الحركة في هذا الميناء وازدهاره بالتالي.

شهد ميناء بولاق نشاطاً تجارياً واسعاً على الصعيدين الداخلي والخارجى، فمخطئ من يظن أن نشاط بولاق التجاري كان قاصرًا على ما يأتيها من صعيد مصر والوجه البحرى من غلال وسلع وبضائع لتمد القاهرة بما تحتاج إليه من تلك السلع، باعتبارها منفذ القاهرة على النيل، بل أن بولاق ساهمت كذلك في حركة التجارة الخارجية، إذ كانت تصل ميناء بولاق السفن المحملة بالسلع والمتاجر من

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٧٩، ٣٠٠؛

Nelly Hanna, An Urban, p. 27.

أندرية ريمون، القاهرة، ص ١٦٩.

(٢) عادل شحاته طايع، حى بولاق، ص ٥١؛ وانظر ما سبق، ص٩١.

الشرق والغرب، فالمراكب المحملة بسلع الشرق، وعلى رأسها التوابل الهندية، كانت تصل إلى بولاق، ثم يحملها البنادقة على متن سفنهم هم وغيرهم من المدن الإيطالية لسد احتياجات الغرب منها[1]. كذلك كانت تصل ميناء بولاق سلع الغرب الواصلة من الإسكندرية عن طريق فرع رشيد، ومن موانى الشام عن طريق فرع دمياط، فعلى سبيل المثال كانت المراكب المحملة بالثلج والقادمة من ثغور الشام مثل بيروت وصيدا وطرابلس وغيرها، كانت تأتى إلى دمياط في البحر، ثم يخرج الثلج في النيل إلى ساحل بولاق، فينقل على البغال السلطانية ويحمل إلى الشرابخاناه الشريفة ويخزن في صهريج أعد له[2].

وصلت إلى ميناء بولاق كذلك السفن المحملة بسلع الحبشة والنوبة والسودان عن طريق البحر الأحمر أو موانى النيل الجنوبية[3]. لذلك لا عجب فيما ذكره ابن بطوطة عن النيل أن به "من المراكب ستة وثلاثين ألفا... تمر صاعدة إلى الصعيد، ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق"[4].

شهد الرحالة الأوربيون الذين زاروا مصر في القرنين الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى، التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى بصحة ذلك فالرحالة الفلورنسى فريسكو بالدى **Frescobaldi** أبدى دهشته عندما وصل إلى

---

(١) نعيم زكى، طرق التجارة ومحطاتها أواخر العصور الوسطى، ص ١٢٨-١٢٩؛ عفاف صبرة، علاقة البندقية بمصر والشام (١١٠٠-١٤٠٠م)، القاهرة ١٩٨٣م، ص١٢٢؛ ناجلا محمد عبد النبى، مصر والبندقية، القاهرة، ٢٠٠١م، ص١٤١.

(٢) العمرى، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت ١٩٨٨م، ص ٢٥٦.

(٣) نعيم زكى، طرق التجارة ومحطاتها، ص ١٢٩؛ شوقى عبد القوى، التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر المماليك، القاهرة ٢٠٠٠م، ص ٩٠.

Nelly Hanna, An Urban History of Bulaq, p. 7, 19.

(٤) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دائرة معارف الشعب، بدون تاريخ، ص٣٢.

ميناء بولاق في أكتوبر سنة ١٣٨٤م من رؤية سفن المسلمين محملة بالبضائع وراسية بالميناء، وأثار دهشته أكثر أن كل سفينة من هذه السفن كان على متنها عدد كبير من النساء، وهن تاجرات كبيرات جداً، وكن ذاهبات إلى الإسكندرية عبر رشيد لمباشرة أعمالهن التجارية. وذكر بالدى في موضع آخر، ولها (أي للقاهرة) ميناء جيد، وحينما كنا هناك، رأينا عدداً كبيراً من القوارب، بحيث أن كل ما رأيته في موانى جنوه والبندقية وانكونا مجتمعة – دون أن أحصى السفن ذات الطابقين – لا تبلغ ثلث عدد القوارب التي كانت هناك، وتبلغ في مجموعها أربعمائة قارب ولا تزيد[1].

وذكر الرحالة فليكس فابرى **Felix Fabri** – الذي زار مصر في عام ١٤٨٣م وهناك (أي في بولاق) على صفحة النيل، يوجد في الميناء العديد من المراكب" وبطبيعة الحال كان الكثير منها محملاً بمختلف ألوان البضائع[2]. وقد أوضح الرحالة جوس فان جستل **Joos Van Ghistele** الذي زار مصر في عام (١٤٨٢-١٤٨٣م) – الصورة التي كانت عليها بولاق فذكر "يوجد في هذا المكان المستودع الرئيسي للبضائع والسلع المجلوبة بالمراكب إلى القاهرة من جميع المناطق المجاورة، سواء من الصعيد أو مصر العليا أو من الإسكندرية أو من دمياط أو من المناطق الأخرى في أعالي النيل أو في سافله" ثم ختم عبارته هذه

---

(١) Frescobaldi, Gucci and Sigoli, Visit to The Holy Places of Egypt. Sinai, Palestine and Syria in 1384, Jerusalem 1948, pp. 44–45, 46.

وأنظر أيضاً جاستون فييت، القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة مصطفى العبادى، القاهرة ١٩٩٠م، ص ٧٤-٧٥، آن وولف، كم تبعد القاهرة، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة ٢٠٠٦، ص ٢٠٧.

(٢) Voyage en Egypte de Félix Fabri 1483, Presenté, Tra, Par Le R. P. Jacques Masson, Le Caire, 1972 p. 582.

بقوله: "إنه مشهد عظيم لدرجة أن الإنسان الذي يـــراه لا يـــستطيع أن يـــصفه"[1]. واتضح مما سبق أن معظم البضائع والتجارات المتداولة في أسواق القاهرة كانـــت تمر بميناء بولاق النهرى، ومن ثم فقد شهدت بولاق فـــي ذلـــك العـــصر رواجـــاً وازدهاراً مذهلاً.

رغم أن البعض كان يظن أن تجارة مصر قد اضمحلت في تلك الأونة بسبب سياسة الاحتكار التي سلكها سلاطين المماليك، وبلغت الذروة في عهـــد الـــسلطان برسباى. حقيقة أن هذه السياسة أضرت بتجارة مصر بين الشرق والغرب وخاصة تجارة الكارم، ولكن حركة التجارة مع بلاد الشام والحبشة وأفريقيا بل ومع المـــدن الإيطالية خاصة البندقية ظلت قائمة ومستمرة، وقد انعكس ذلك كله علـــى نـــشاط الحركة التجارية في بولاق، إذ بدأ عدد من تجار الكارم يحولـــون نـــشاطهم إلـــى بولاق، ويستثمرون أموالهم فيها، ومن هؤلاء نور الدين الطنبـــدى وابـــن الـــزمن وغيرهما، وراحوا يشيدون الوكالات والرباع والقياسر في بولاق كمـــا ســـبق أن ذكرنا. بل واشتهرت أسر منهم بنشاطها التجاري في بولاق، وهى أســـرة عرفـــت بابن علیبة، من أشهر تجارها في بولاق حسن بن إبراهيم بـــدر الـــدين المنـــاوى (ت ٨٩٨هـــ/١٤٣٩م)[2]. أما حركة التجارة فقد شهدت صعوداً متنامياً، إذ توطدت العلاقات مع الدول الأوربية، وتم تبادل السفارات وعقد المعاهدات التجارية، ومـــن ثم فقد أدى ذلك إلى نمو العلاقات التجارية، وأصبح له تأثير مباشر علـــى حجـــم البضائع، التي تتعامل فيها بولاق والقادمة إليها عبر موانئ البحر المتوسط[3].

---

(١) Joos Van Ghistele 1482–1483, Voyage en Egypte, Tra., Introduction et Notes par Reneé Bauwens – Préaux, Le Caire 1977, p. 56.

وانظر أيضًا : أندريه ريمون، القاهرة، ص١٧٠.

(٢) السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٢٩٠؛ وأنظر أيضًا: عادل شـــحاته، حـــى بـــولاق، ص٢٤.

(٣) Nelly Hanna, An Urban, p. 20.

ديوان الجمرك :

ولا يستطيع المرء سواء أن كان مسافراً أو تاجر دخول القاهرة، قبل المرور بجمرك بولاق، فقد ذكر كل من الرحالة **Jean Chesneau** والرحالة **André Thevet** وقد زارا مصر خلال الفترة من (١٥٤٩-١٥٥٢م) وذكر إنه يوجد في بولاق الجمرك، الذي يجب على كل شخص أن يمر به قبل الدخول إلى هذه المدينة (أي مدينة القاهرة)(١).

أقيم على رصيف ميناء بولاق ديوان، عرف باسم "ديوان الجمرك" يعمل به عدد من العمال وموظفى الحكومة ورجالاتها، ووجد بالجمرك عدد من العمال بصفة دائمة، وكان لهم العديد من المهام، فمنهم من يصعد على المركب أو السفينة بمجرد وصولها إلى الميناء، ويقومون بتفتيش الركاب وما يحملونه من أمتعة، والتجار وما يحملونه من سلع وبضائع، وكانت إجراءات التفتيش هذه تسرى على الأجانب والوطنيين والوافدين للتجارة من المسلمين وغيرهم، لأنها من حقوق سيادة الدولة. ويقوم عمال الجمرك كذلك بتحصيل الرسوم المستحقة على المسافرين والتجار، وعلى السلع الصادرة والواردة إلى ميناء بولاق(٢). ووصف الرحالة الألمانى أرنولد فون هارف **Arnold Von Harff**(٣) الدور الذي لعبه عمال الجمرك في بولاق على النحو التالي: كان يوجد برصيف الميناء (يقصد ميناء بولاق) ديوان

---

(١) Chesneau and Thevet, Voyage en Egypte 1549–1552, Presentation et Notes de Frank Lestringant, Le Caire 1984, p. 67.

(٢) نعيم زكى، طرق التجارة، ص ١٢٩، ٣١٥.

(٣) هو واحد من الحجاج الذين قصدوا الحج إلى بيت المقدس، وقد غادر كولونيا في نوفمبر من عام ١٤٩٦م من أجل هذا الهدف، ودامت رحلته ثلاث سنوات، زار خلالها مصر في عام ١٤٩٧م، وبعد أن أتم رحلته عاد إلى بلاده، حيث دون مشاهدته أثناء رحلته في كتاب أهداه بعد عودته إلى أمير مقاطعة كولونيا. لمزيد من التفاصيل أنظر: عبد الرحمن زكى، القاهرة، ص ١٧٩-١٨٠؛ Dopp, Le Caire, T. 4, p. 32.

للرسوم الجمركية، وما إن رسونا عنده، حتى تم تفتيش جميع أمتعتنا وحقائبنا، وتحصيل الرسوم حتى يؤذن لنا بالدخول (أي دخول مدينة القاهرة) [1]. وذكر الحسن الوزان (ليون الأفريقى) الذي زار مصر في عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م عند حديثه عن ميناء بولاق" وهنا يقف موظفو الضريبة الذين يراقبون البضائع القادمة من الإسكندرية ومن دمياط" [2].

الكتبة والمسجلون :

يأتي دورهم بعد أن يتم إنزال البضائع والسلع للديوان وتفتيشها، حيث يقوم هؤلاء الكتبة والمسجلون، بإعداد قوائم بالبضائع والسلع وأنواعها وكمياتها ووزنها لتسهيل جباية ما عليها من رسوم، ويعاونهم في ذلك مجموعة من الوزانين والكيالين الذين يحددون مقادير السلع والبضائع التي تتطلب الوزن أو الكيل [3].

مباشرو الختم :

استحدث المماليك هذه الوظيفة، لضمان الحصول على الضرائب والرسوم الجمركية على السلع الصادرة والواردة، فضلاً عن منع غش السلع أو التلاعب بها. ويقوم مباشرو الختم بختم الحمولات من البضائع والسلع كدليل على استيفائها الرسوم المطلوبة، كما تختم بأختام أخرى كدليل على نقاوتها، وإنها مرت على رقيب قام بفحصها، وبعد ختم البضائع والسلع تصدر "البراءة" أو المخالصة الجمركية التي يعقبها عملية نقل البضائع والسلع إلى الميناء [4].

---

(١) Arnold Von Harff, The Pilgrimage of Arnold Von Harff Knight, Tran. From The German by Malcolm Letts, London 1946, p. 101.

(٢) الحسن بن الوزان الزياتى، وصف أفريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة، القاهرة ٢٠٠٥م، ص٥٨٥.

(٣) لينبول ، سيرة القاهرة، ص ٢١٨؛ محمد عبد الغنى الأشقر، تجارة التوابل في مصر في العصر المملوكى، القاهرة ١٩٩٩م، ص ٢٣٨.

(٤) نعيم زكى، طرق التجارة، ص ٣٢٨؛ محمد عبد الغنى الأشقر، تجارة التوابل، ص١١٣، ١١٤.

أما عن الرسوم التي كانت تحصل في ميناء بولاق من التجار الأجانب، فقد تحدث عنها الرحالة فون هارف **Von Harff** (١٤٩٦م) فذكر إنهم كانوا يـدفعون عما في حقائبهم من بضائع ومتاجر وسلع ١٠% من قيمتها، أما عن أنفسهم فكـان على كل واحد منهم إذا كان مسافراً عادياً أن يدفع دوكتين[١]. حتـى يـصرح لـه بدخول الميناء، ولكن إذا كان حاجاً فكان عليه أن يدفع خمس دوكات، وأنه تظاهر بأنه تاجر حتى يدفع دوكتين فقط بدلاً من خمس دوكات لكونه حاجاً[٢].

وذكر الحسن الوزان أن البضائع القادمة من الإسكندرية أو من دمياط كانت تدفع ضرائب خفيفة، ولكن البضائع التي تأتى من مصر فهى وحدها التـي يـدفع عليها رسماً كاملاً، وذلك بطبيعة الحال لأن البضائع القادمة من الإسكندرية أو من دمياط سبق أن دفعت رسوماً في هذه الموانئ عند نزولها على أرصفتها[٣].

وتجدر الإشارة إلى أن هناك رسماً آخر كان على التاجر الأجنبى أن يدفعـه إذا ما باع بضاعته كاملة داخل الجمرك[٤]. وكانت عملية البيع هذه تتم تحت سـمع وبصر موظف أجنبى موجود بالجمرك، وهو بمثابة مشرف تجارى تعينه حكومته

---

(١) الدوكة والجمع دوكات هي أولى العملات الذهبية التي ظهرت في أوربا، إذ قام بسكها روجر الثاني (١١٣٠-١١٥٤م) ملك صقلية لأول مرة في عام ١١٤٠م، وأخذت البندقية في التداول بهذه العملة بأمر من الدوج داندولو في عام ١٢٨٣م، واختلفت قيمتها من عصر إلى عصر، ولكنها أصلاً كان تزن ٣,٥ جرام من الذهب الخالص، وكانت منتشرة بمصر، ويتم التعامل بها نظراً لثباتها واستقرارها؛ أنظر عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الـشرق والغـرب، القاهرة ١٩٩٠م، ص ١٧٦-١٧٧؛ الأب أنستاس الكرملـي، النقـود العربيـة، ص ١١١؛ البيومى إسماعيل، النظم المالية، ص ٢٢١، حاشية ١٨٠.

(٢) Arnold Von Harff, The Pilgrimage, p. 101; Dopp, Le Caire, T. 4, p. 34.
وأنظر أيضاً نجلاء شبحة، الجاليات، ص ١٤١.

(٣) الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ص ٥٨٥.

(٤) لمزيد من التفاصيل أنظر: عفاف صبره، علاقة البندقية بمـصر، ص ٢٨٥، ٢٩٢؛ نعـيم زكى، طرق التجارة، ص٣٥٤.

بموافقة السلطان، ويقتصر نشاطه على دائرة الجمرك، ومهمته أن يراعى مواطنيه من التجار، بحيث لا يدفعون في السلعة أكثر من ثمنها، ومرة واحدة، ويحمل سجلاً للمبيعات وآخر للمشتريات لمواطنيه، لمقارنته بسجل السلطات المحلية، ويعمل أحياناً كضامن للتاجر من مواطنيه في حالة إذا ترك المدينة وعليه ديون للجمرك، أو له أو عليه أموال للتجار الوطنيين[1].

وما أن تنتهى إجراءات الإفراج عن البضائع حتى يتم إيداعها في مخازن كبيرة على رصيف الميناء، تحت إشراف موظفي الجمرك بعد فحصها والتأكد من سلامتها. وكانت عملية التفريغ تتم وفقاً لرغبات التجار. وفى تلك المستودعات كانت تتم إجراءات القياس والوزن وتحديد ثمن السلع، وحرصت الدولة على فرض حراسة مشددة عليها حماية لها، ويسند أمر الحراسة إلى حراس الجمرك، مقابل ضريبة معينة نظير الحراسة. وبعد تخزين البضائع في المخازن كانت تباع من خلال المزاد داخل مخازن الجمرك، ويفرض على ذلك ضريبة عرفت باسم ضريبة المزاد. وكانت عملية البيع بالمزاد أو طرح الحلقة، تتم عن طريق مجموعة من العمال لكل منهم دور محدد لعرض السلع، وحشد التجار حولها في حضور الوزان الخاص بديوان القبان أو الجمرك[2].

أما بالنسبة للتجار الوطنيين، فكان يتم جباية رسوم منهم على الصادرات والواردات كذلك من أهمها: (زكاة التجارة) أما عن مقدارها فقد اتضح من خلال النص الذي أورده ابن حجر العسقلانى في حوادث عام ٨٢٧هـ/١٤٢٤م في معرض حديثه عن المجلس الذي عقده السلطان الأشرف برسباى بسبب أخذ الزكاة من التجار وجاء فيه: "أن مرجع جميع الأموال في إخراج الزكاة إلى أربابها إلا

---

(١) نعيم زكى، طرق التجارة، ص ٣١٦.

(٢) المخزومى، المنتقى من كتاب المنهاج في علم خراج مصر، تحقيق كلود كاهن، القاهرة ١٩٨٦، ص ٩-١٠؛ نجلاء مصطفى شيحة، الجاليات الأوربية، ص١٤٢-١٤٣.

زكاة التجارة فللأمام أن ينصب رجلاً يقيم على الجادة، يأخذ من المسلمين ربع العشر، ومن أهل الذمة نصف العشر، ولا يؤخذ من المسلم في السنة أكثر من مرة"[1]. كذلك كان يحصل من التجار المسلمين مكس عرف باسم "مكس الوكالة" وذلك مقابل بعض الخدمات التي تقدم لهم، واستغلالهم للوكالات والعرصات لخزن بضائعهم أو عرضها للبيع[2].

توثيق عمليات البيع والشراء :

كانت تتم في ميناء بولاق – في بعض الأحيان – عمليات البيع والشراء بين التجار، وكانت هذه العمليات لا تتم إلا في حضور الشهود لتوثيق العقود، حتى يصبح من الصعب الرجوع فيها، ويغلق الباب أمام حدوث أي نزاعات حولها، فضلاً عن الحفاظ على حقوق التجار، ومن هؤلاء الشهود الذين ذكرتهم المصادر" أحمد بن إبراهيم شهاب الدين القاهرى الشاهد" [3]. وكان يتكسب بالشهادة في بولاق كما ذكر كل من ابن حجر والسخاوى[4].

وممن تكسبوا بالشهادة في بولاق أيضاً محمد بن الزرعى الأصل المصري المولد والدار والوفاة وتلقب بتاج الدين الفقيه الحنبلى المذهب، وذكر ابن الفرات[5] إنه كان أحد العدول بالقاهرة المحروسة وظواهرها وببولاق وتوفى في ٧٩٩هـ/١٣٩٦م؛ وكذلك على بن على بن محمد بن الحاج نصر العلاء أو النور

---

(١) ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٨، ص ٤٣.

(٢) انظر البيومى إسماعيل، النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، ص ١٨٨.

(٣) كان أحد الصوفية بخانقاة ركن الدين بيبرس، وأجاز لأولاد ابن حجر، وتوفى في أول سنة ٨٢٥هـ، وقد جاوز الثمانين عاماً. لمزيد من التفاصيل أنظر. ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٧، ص ٤٧٢؛ السخاوى، الضوء اللامع، م١، ج١، ص١٩٤.

(٤) ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٧، ص ٤٧٢؛ السخاوى، الضوء اللامع، م١، ج١، ص ١٩٤.

(٥) ابن الفرات، تاريخه، م٩، جـ٢، ص ٤٧٥.

ابن النور الفقيه ناصر الدين، إذ ذكر السخاوى[1] أنه قطن بولاق وتكسب بالشهادة.

وقد تنشأ منازعات بين البائعين والمشترين خاصة في حالة عدم حضور شهود على عقود البيع أو الشراء، في هذه الحالة كان "قاضى بولاق أو نائبه" يتولى نظر مثل هذه المنازعات، فقد ذكرت المصادر[2] أسماء بعض من تولوا حكم القضاء في بولاق أو نابوا فيه، ومن هؤلاء: أحمد بن محمد بن عبد الرحمن البلبيسى الخطيب تاج الدين، وقد ناب في حكم القضاء في بولاق، وتوفى في عام ٨٠١هـ/١٣٩٨م[3]. وناب في قضاء بولاق أيضاً القاضى شهاب الدين أحمد الدماصى الحنفى المعروف بقرقماس، وكان من أصحاب الرباع في بولاق، وتوفى في عام ٨٦٢هـ/١٤٥٧م[4]. وذكره ابن تغرى بردى بقوله: "أنه قاضى بولاق"[5]. وتولى ابنه أيضاً – واسمه عبد القاهر، المعروف بابن قرقماس – قضاء بولاق " وكان مشكور السيرة في قضائه، وكان لا بأس به " كما يذكر ابن إياس[6]. ومن قضاة بولاق أيضاً القاضى تقى الدين البرماوى أمام جامع زين الدين الأستادار – الذي ببولاق – وخطيبه[7].

يتضح مما سبق أن منصب قاضى بولاق كان على درجة كبيرة من الأهمية

---

(١) الضوء اللامع، م٣، جـ٥، ص ٢٦٢.

(٢) ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٤، ص ٤٤-٤٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٤٤، جـ٣، ص ٩٣، ٣٠٨؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٤١؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٦، ص ١٩٢.

(٣) ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٤، ص ٤٥؛ وانظر أيضًا: ترجمته في السخاوى، الضوء، م١، جـ٢، ص ١٢٣.

(٤) انظر ترجمته في السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٤١؛ وأنظر أيضاً ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٤٥.

(٥) النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص ١٩٢.

(٦) بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٠٨.

(٧) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٩٣.

في حسم المنازعات التي قد تنشأ بين التجار بعضهم وبعض، على إنه يلاحظ أن معظم من تولوا القضاء في بولاق أو نابوا فيه قد جمعوا بين هذه الوظيفة، ووظائف أخرى وخاصة إمامة الجوامع في بولاق والخطابة فيها(١).

النقل وطرق المواصلات في بولاق :

كانت بولاق معبراً ومحطة لنقل المسافرين إلى كافة بقاع مصر شمالاً وجنوباً، وحلقة وصل بين القاهرة وضواحيها وبينها وبين موانى مصر، خاصة دمياط والإسكندرية ورشيد، وبينها وبين أقاليم الصعيد.

فبالنسبة لبولاق كمعبر فقد اعتاد سلاطين المماليك الجراكسة عبور النيل إلى الجيزة أما للتصيد أو التريض أو غيره، وذلك عن طريق ميناء بولاق وساحلها، والنزول به في الذهاب وفى الإياب(٢). ومن السلاطين الذين اعتادوا على الخروج إلى سرحات الصيد من بولاق، السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ/١٣٨٢-١٣٩٩م) وقد عدد ابن الفرات هذه السرحات خلال أعوام ٧٨٤هـ، ٧٨٥هـ، ٧٩٦هـ، ٧٩٧هـ، ٧٩٨هـ، ٧٩٩هـ(٣).

اعتاد الناس كذلك عبور النيل من بولاق إلى إمبابة والعودة إليها وذلك بواسطة المعادى المصطفة على طول ساحل بولاق أي المراكب التي كانت تحمل الناس ودوابهم، وكثيراً ما كانت هذه المعادى تتعرض للغرق، فتذكر المصادر(٤) أن

---

(١) أنظر ما سبق عند الحديث عن جوامع بولاق.

(٢) لمزيد من التفاصيل أنظر ابن تغرى بردى، النجوم، ج١١، ص٢٢٩، ٢٣١، ٣٢٥؛ ج١٢، ص٢٨٦؛ المقريزى، السلوك، ج٣، ق٢، ص ٤٨١، ٤٨٣، ٤٨٥؛ عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، ج٢، ص ١٩٨؛ الصيرفى، نزهة النفوس، ج١، ص ٥٣، ٥٦، ٦٠، ٢٨٣.

(٣) ابن الفرات، تاريخه، م٩، جـ٢، بيروت ١٩٣٨م، ص ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٣٥، ٤٥٥، ٤٥٩.

(٤) عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ٤، ص ١٣٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق٢، ص ٤٨، جـ٣، ص ٤٣٥؛ جـ٥، ص ١٧٥.

معدية بولاق غرقت في عهد الأشرف قايتباى وتحديداً في عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م – غرقت في وسط النيل ليلاً بما فيها من الناس والدواب، ومن الطريف إنه كان بها إنسان عارف بالسباحة بارعًا فيها، يعوم من البر إلى البر، ولكنه مات غرقاً، في حين كان بجانبه صبى صغير، لم يكن يعرف السباحة فنجا من الغرق، وطلع إلى البر، فعد ذلك من النوادر وكما قيل:

قد يهلك الإنسان من باب أمنه ... وينجو بعون الله من حيث يحذر[١]

تعرضت معدية بولاق كذلك للغرق مرة أخرى في عام ٩٠٠هـ/١٤٩٤م، ومات بها عدد كبير من الناس رجال ونساء وأطفال، وما بها من دواب وبهائم[٢].

وكان يتم العبور أيضاً من بولاق في النيل إلى شبرا ومصر القديمة وطرا والخانكاه وأوسيم وغيرها بواسطة هذه المعادى، التي كان لها مواضع معينة لضبط رسوم المعدية، ونظراً لأهميتها فقد وجد في بولاق خط عرف باسم (خط المعادى قريباً من جامع الخطيرى)[٣]. وقد ذكر المقريزى[٤] في حوادث عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م أنه كتبت أوراق بمتحصل المعادى ببولاق. مما يشير إلى إنها كانت تدر دخلاً كبيراً. ومن ثم كانت بولاق معبراً هاماً وحلقة وصل بين القاهرة وضواحيها، فقد كانت هي منفذها الهام على النيل، وطريق هام للمواصلات للربط بين أنحائها.

كانت بولاق كذلك حلقة وصل بين القاهرة ودمياط، فمن يود الذهاب إلى

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٣٢؛ عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ٨، ص٣٤.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٠٩.

(٣) الصيرفى، إنباء الهصر، ص ٢٨٧، ٤١٩، ٤٥٨، ٤٩٧؛ عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ٦، ص ٤٢٦، ج٨، ص٢٦١؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٢؛ عن خط المعادى انظر: عادل شحاته طايع، حى بولاق، م١، ص ٨٠.

(٤) السلوك، ج٢، ق٢، ص٥١٨.

دمياط بحرًا كان من الضرورى أن يستقل مركباً من ميناء بولاق، للوصـول إلـى دمياط عن طريق النيل، والمصادر حافلة بالأمثلة الدالة على ذلك نذكر منها علـى سبيل المثال لا الحصر، فى عام ٧٨٣هـ/١٣٨١م أرسل الأتابك برقـوق الأميـر بكلمُش الطازى العلائى إلى دمياط لإحضار أحد أمراء دمشق، لذلك كان عليـه أن يذهب إلى دمياط مروراً ببولاق التي كان يستقل عادة منها مركبـاً للـذهاب إلـى دمياط، وبعد أن أدى مهمته، نزل ببولاق في طريق عودته[١]. كذلك حدث في عام ٨٦٦هـ/١٤٦١م أن سافرت من القاهرة تجريدة فيها ثلاثة من أمراء العشرات هم: دولات باي النجمى الأشرفي، وأسنبغا الناصرى، وتغرى بردى الطيارى، سـافروا من يومهم إلى دمياط من ساحل بولاق[٢].

وكان من الرحالة الذين زاروا القاهرة من يود الذهاب إلى دمياط أو يأتى من دمياط إلى القاهرة عبر النيل، وكان هذا لا يتم إلا مـروراً ببـولاق، فعنـدما أراد الرحالة جوس فان جستيل **Joos Van Ghistele** الرحيل من القاهرة متجهـاً نحـو دمياط، ذهب هو ومن معه إلى بولاق حيث استقلوا مركبا تسمى جـرم **Germe**[٣] ليذهبوا على متنها إلى دمياط[٤].

وذكر الرحالة **Jehan Thenaud** أنهم عندما أرادوا دخول القاهرة رسوا أولاً في ميناء بولاق، وأقاموا في أجمل أحياء القاهرة بعـض الوقـت، وعنـدما أرادوا

(١) ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١١، ص ٢١١؛ وأنظر أيضاً ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٥، ص ٢٩٩، ٤٠٥.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٤٣٠.

(٣) الجرم والجمع جروم نوع من المراكب الطويلة جداً، وهو من أضخم الزوارق المصرية التي تستعمل في نهر النيل، ولكنها لا تسير إلا في وقت الفيضان، وتستخدم في النقل على صفحة النيل. لمزيد من التفاصيل أنظر درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص ٢٢.

(٤) Voyage en Egypte, p. 100.

التحرك نحو دمياط، كان عليهم أن يركبوا سفينتهم من ميناء بولاق كذلك[١]. وهناك أيضاً مجموعة من الرحالة الألمان والإيطاليين زاروا مصر خلال أعوام ١٥٨٧-١٥٨٨م، ولكى يزوروا القاهرة كان عليهم أن يبحروا من دمياط إلى بـولاق فـي مركب كبير تسمى Germe وضعوا فيها كل أنواع المؤن التي يحتاجون إليها فـي طريقهم إلى بولاق[٢].

وهكذا يتضح أن بولاق كانت حلقة الوصل بين القاهرة وميناء دميـاط، وأن الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر كانوا يستقلون المركب المعـروف بـالجرم للرحيل من القاهرة إلى دمياط عبر ميناء بولاق، وأن هذا النوع من المراكب هـو الذي اعتاد الرحالة الأوربيون ركوبه في طريقهم إلى القاهرة أو بالعكس عبر هـذا الميناء.

وتجدر الإشارة إلى أن الرحالة طافور الذي زار مصر في القـرن التاسـع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى، قدم وصفاً تفصيلاً للسفينة التي نقلته من دميـاط إلى القاهرة عبر النيل وكان الوالى قد أعدها لهذا الغرض، فذكر: وهذه المراكـب طويلة طول الأغربة الكبيرة، وهى مجهزة بالحجرات التي تمتد من أحد طرفيها إلى الآخر حيث يستطيع المرء الإقامة، ولها صنادل منبسطة لتستطيع السير في الميـاه الضحلة، وتحمل كثيراً من الحمولة. وتجهز بقلع طويل، يبلغ طول قلع الـشوانى، ولكنه قلع ضيق، مثلث الشكل يشبه قلع الغراب... ويكون عليهـا ثـلاث طبـول، واحدة في مؤخرتها، والثانية في مقدمتها، والثالثة في وسطها لإخافـة التماسـيح، وإبعادها عن طريقها..."[٣]. ويبدو من وصف الرحالة طافور أن هذه السفينة هـي

---

(١) Thenaud, J., Le Voyage D'Outremer de Jean Thenaud, Pub. Et ann. Par C.H. Schefer, Paris, 1864, pp. 181, 215.

(٢) Voyages en Egypte pendant les Années 1587–1588, Le Caire 1972, p. 4.

(٣) رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادى، ترجمة وتقديم حسن حبشي، القـاهرة ١٩٦٨م، ص ٦٣.

من ذلك النوع من السفن الذي يسمى بالجرم، الذي اعتاد الرحالة الأوربيون على ركوبه في طريقهم من بولاق وإليها متجهين إلى دمياط أو إلى رشيد ومنها إلى الإسكندرية كذلك، فقط استقل كثير من الرحالة الأوربيين هذا النوع من السفن في طريقهم كذلك من بولاق إلى رشيد ثم إلى ثغر الإسكندرية[1].

وتحدث الرحالة بطرس بيلون عن هذه السفن فقال: "وشاهدنا سفناً في النيل تسمى جروما، وهى على ثلاثة أو أربعة أنواع مختلفة، بعضها منخفض منبسط عريض ومستدير الشكل تقريباً، وأكبرها شبيه بالقوارب في نهر السين، إلا أنها أقصر بكثير، وهى تنقل حمولات أكثر من غيرها، ولها شراع مثلث الشكل. والنوع الأصغر منها، وهو تلك السفن ذات الشراع المربع، وهى تستخدم فقط لعبور النيل، أو لنقل المؤن من القاهرة إلى القرى أو لنقل الدواب من ضفة إلى أخرى. ولهذه الفلك التي تبحر بعيداً إلى دمياط والإسكندرية شراع مثلث، ويمكنها أن تدخل البحر الهادئ في طقس معتدل"[2].

استخدم الطريق من القاهرة عبر ميناء بولاق إلى رشيد ثم إلى الإسكندرية على الصعيدين المحلى والرسمى، فاستخدمه كثير من المسافرين من القاهرة إلى الإسكندرية، أما على الصعيد الرسمى، فكلما أرادت الدولة سجن أحد رجالاتها في الإسكندرية أو نفيه إليها، كانت تستخدم هذا الطريق، فكانوا يتوجهون بالمحكوم عليهم بالسجن أو النفى إلى بولاق، ثم ينزلونه في الحراقة، ويتوجهون بن إلى ثغر الإسكندرية ليسجن بها. ففى عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م أنزل الملك العزيز بن برسباى من القلعة إلى ساحل بولاق، حيث ركب الحراقة الصغرى ومعه من يتوكل به إلى

---

(١) لمزيد من التفاصيل أنظر:

André Thevet, Voyages en Egypte (1549–1552), p. 24; Jean Palerne Forésien, Voyage en Egypte (1581), p. 37; Christophe Harant, Polzic et Bezdruzic, Voyage en Egypte (1598), pp. 220, 225, 256.

(٢) نقلاً عن جاستون فييت، القاهرة مدينة الفن والتجارة، ص ٧٥.

الإسكندرية حيث سجن بها، وحدث نفس الشئ مع ابن الناصر فرج وابـن المؤيـد شيخ والمنصور عثمان بن الظاهر جقمق في سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م حيث سيق وهو مقيد وسط جمع غفير من المؤيدية والأشرفية، وكان مسفره إلى الإسكندرية خـاير بك المؤيدى[١].

حدث مثل ذلك في سلطنة خشقدم، ففى عام ٨٦٥هـ/١٤٦٠م أمـر السلطان بإخراج الملك المؤيد أحمد إلى ثغر الإسكندرية هو وأخوه الناصرى محمد وعدة أمراء ليسجنوا بها، فنزلوا من القلعة مقيدين، وساروا بهم إلى ساحل بولاق، وأنزلـوهم فـي الحراقة، ونزل معهم في المراكب من يحفظهم أو يحرسهم وساروا بهم إلـى السجن بثغر الإسكندرية، وعلق العامة على ذلك بقولهم: "الملك المؤيد راح وهو مقيد[٢].

وكان يتعذر على بعض السلاطين في بعض الأحيان السفر إلى الإسـكندرية براً، لذلك كانوا يلجأون إلى السفر إليها بحراً، أو عبر نهر النيل مثلما فعل السلطان قايتباى في عام ٨٨٤هـ/١٤٧٩م حينما نزل من القلعة إلى ساحل بـولاق ومعـه العديد من الأمراء منهم: الأتابكى أزبك، ويشبك الدوادار، وخاير بك، والأمير أزبك اليوسفى الخازندار أحد المقدمين، وآخرون من الأمراء المقدمين، وعدد وافر مـن الأمراء الطبلخانات والعشرات، وجمع غفير من الخاصكية ومن المماليك السلطانية، وكان معه من المباشرين القاضى ابن مُزهر كاتـب السـر وغيـره مـن أعيـان المباشرين وغيرهم، لذلك كان له يوم مشهود في بولاق عند نزوله إلى البحر كمـا يذكر ابن إياس[٣].

---

(١) ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٩، ص ٩٧؛ الصيرفى، نزهـة النفـوس، جـ٤، ص ١٥٢، البقاعى، تاريخه، ق١، ص٣٤٦.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٨٠، ٣٨٨، ٤١٠؛ جـ٣، ص ١٥٧؛ جـ٥، ١٦٤-١٦٥؛ البقاعى، تاريخه، ق٣، ص ٢٩٣.

(٣) بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٥٥؛ وأنظر أيضاً جـ٤، ص ٤٧٥.

وعندما خرج أمير المؤمنين المتوكل في ٩٢٣هـ/١٥١٧م قاصداً السفر إلى إسطنبول وبصحبته العديد من الأمراء، توجهوا إلى بولاق، ونزلوا هناك في المراكب ليذهبوا فيها إلى ثغر رشيد ومنه إلى الإسكندرية حتى يتسنى لهم السفر إلى اسطنبول بحراً(١).

ويلاحظ أن المراكب التي كان يستقلها الأوربيون من ميناء بولاق سواء في طريقهم إلى دمياط أو إلى الإسكندرية كانت تعرف بالجرم، أما الوطنيون وأبناء البلد فكانوا يسافرون في الحراقات، كما اتضح من الأمثلة التي ساقتها المصادر، وأن الجرم لم تكن قاصرة على نقل المسافرين فحسب بل والبضائع، أما الحراقات فمنها ما كان يستخدم لنقل الركاب أو في النزهة، فضلاً عن أن منها ما كان يستخدم في القتال. ومن ثم فقد استخدمت جميع أنواع المراكب والسفن سواء في نقل المسافرين أو البضائع، منها الكبير الذي لا يمكنه أن يبحر إلا خلال الفيضان فيما بين شهرى يونيو وأكتوبر، أما الصغير فكان يبحر طوال العام؛ وجميعها اتخذت من بولاق مرسى لها.

وإذا كانت المعديات قد ربطت بولاق بالجيزة وإمبابة والقرى المجاورة، وكان مركزها (خط المعادى) قريباً من جامع الخطيرى، فإن النقل البرى الداخلي في بولاق قد اعتمد على الجمال والحمير والبغال، وكان لها مواقف خاصة داخل الميناء، فما أن تصل السفن إلى الميناء حتى تتقاطر هذه الحيوانات إلى النهر استعداداً لنقل البضائع والناس، فكان منها ما هو مخصص لنقل الرجال والنساء، وما هو مخصص لنقل الحبوب والغلال، ومنها ما هو مخصص لنقل الحطب أو الماء وغيرها(٢).

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٥، ص ١٨٤-١٨٥.
(٢) عادل شحاتة طايع، حى بولاق، ص ٢٦.

الخاتمـــــة

لعبت بولاق دوراً هاماً في عصر دولة المماليك الجراكسة، وواهم من يظـن أن دورها كان ثانوياً في هذا العصر أو هامشياً، بل كان دوراً فاعلاً ومؤثراً، فقـد اتسعت بولاق في هذا العصر اتساعاً كبيراً، وبنيت فيهـا العديـد مـن الجوامـع والمدارس والزوايا فضلاً عن المناظر والقـصور والـدور والربـاع والأسـواق والوكالات وغيرها من المنشآت العمرانية اللازمة لممارسة أوجه النشاط المختلفة، وسكنها العامة والخاصة، ولعبت دوراً مؤثراً في حياة سلاطين ذلك العصر، فمنهم من اتخذها دار لملكه، ومقراً للحكم يمارس منه شئون الرعية تاركاً القلعـة تمامـاً ومقيماً فيها، ومنهم من اتخذها متنزها واستراحة من عناء الحكم والسلطان، ومنهم من اتخذها مقراً لاستقبال الرسل ودار إقامة لهم، ومنهم من حرص علـى التـردد عليها بصفة مستمرة لمتابعة سير العمل في دار الصناعة بها. واتخذها عـدد مـن السلاطين هم وأبناءهم وزوجاتهم داراً للاستشفاء من الأمراض فبحكم وقوعها على النيل، كانت تمتاز بطيب هوائها، وبمنظر النيل الذي يدب الحياة من جديد في الجسد العليل، أما بالنسبة للعامة فكانت بولاق أيضاً متنزهاً لهم يقضون به أسعد الأوقـات وأطيبها، ويستعيدون فيه نشاطهم وحيويتهم من جديد.

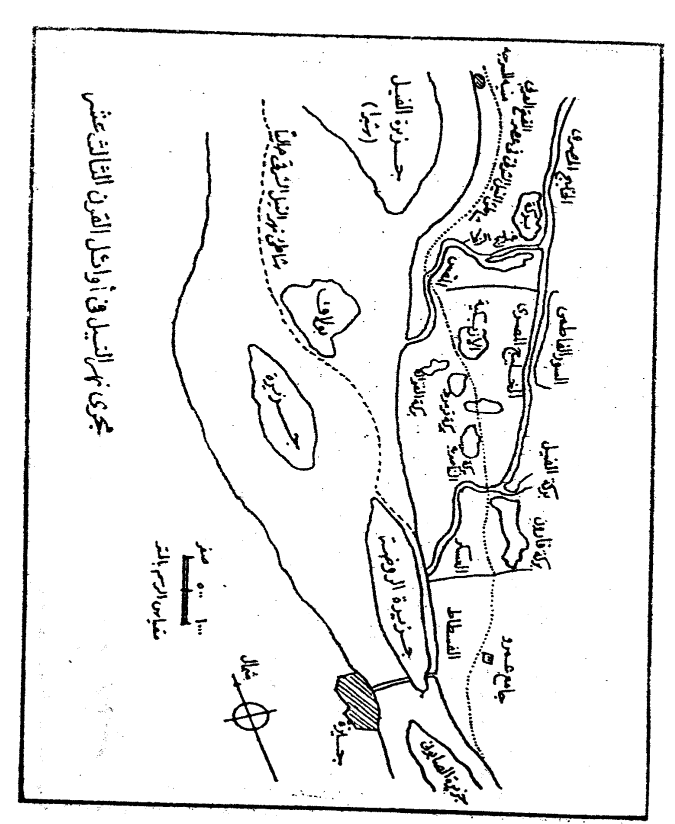
فاق الدور الاقتصادي لبولاق سائر الأدوار، التي لعبتها في عصر المماليـك الجراكسة، وقد تمثل ذلك الدور أولاً في كونها ساحل الغلة، الذي تتجمع به الغلال من كافة أرجاء مصر، من شمالها ومن جنوبها وخاصة من الوجه القبلى، والذى تم فيه أيضاً الكثير من عمليات البيع والشراء، لذلك كان هذا الساحل من أهم الجهـات التي تحصل الدولة منها أموالاً كثيرة، تتمثل في مكس الغلة ومكس السمسرة ومكس العرصة وغيرها مما يشكل مصدراً هاماً من مصادر الدخل لدولة المماليك، لـذلك أولت الدولة عنايتها لساحل الغلال، وسعت للإشراف عليـه مـن خـلال عمـل

المحتسب.

كانت بولاق أيضاً داراً لصناعة السفن، بل ومن أهم دور صـناعة الـسفن بالقاهرة بعد أن تضاءل دور دُور الصناعة الأخرى بها، لذلك حـرص سـلاطين الجراكسة على توفير ما تحتاج إليه من مستلزمات لإعداد أسطول قادر دائماً علـى مجابهة الأعداء ومواجهتهم، خاصة مع ظهور أخطار جديدة هددت الدولة في ذلك العصر، خاصة خطر البرتغاليين.

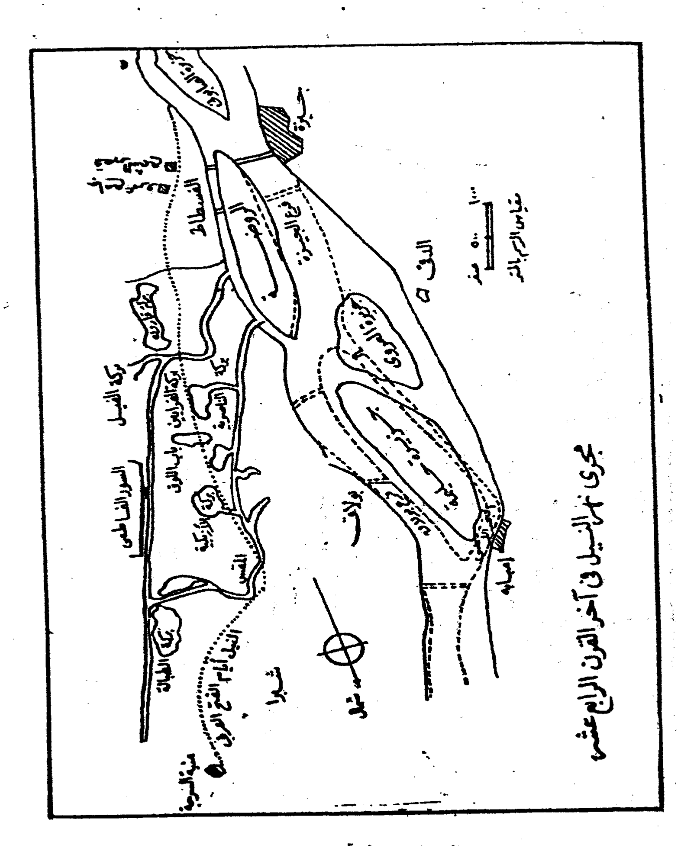
ولم يقتصر نشاط أهل بولاق الحرفى على الحرف التي ارتبطـت بـصناعة السفن فحسب، بل مارسوا أنشطة حرفية أخرى منها العمـل بمعاصـر القـصب ومطابخ السكر، فضلاً عن طحن الغلال، وصيد الـسمك وغيرهـا مـن الحـرف والصناعات.

أصبحت بولاق في عصر سلاطين المماليك الجراكسة ميناء القـاهرة الأول، الذي يستقبل السفن القادمة من شرق العالم وغربه، ومن شمال مـصر وجنوبهـا وشرقها، وكانت هذه السفن محملة بمختلف ألوان البـضائع والتجـارات والغـلال وشتى أنواع الخيرات، كذلك استقبل ميناء بولاق أعداداً كبيـرة مـن المـسافرين والرحالة والتجار منهم الأجانب ومنهم الوطنيين، وكان لها جمركها الخاص الـذي يقوم بجباية الضرائب من هؤلاء جميعاً، ويشكل بالتالي موردًا آخرًا من إيـرادات دولة المماليك. ومن ثم أثرت بولاق تأثيراً كبيراً في مختلف منـاحى الحيـاة فـي عصر دولة المماليك الجراكسة.



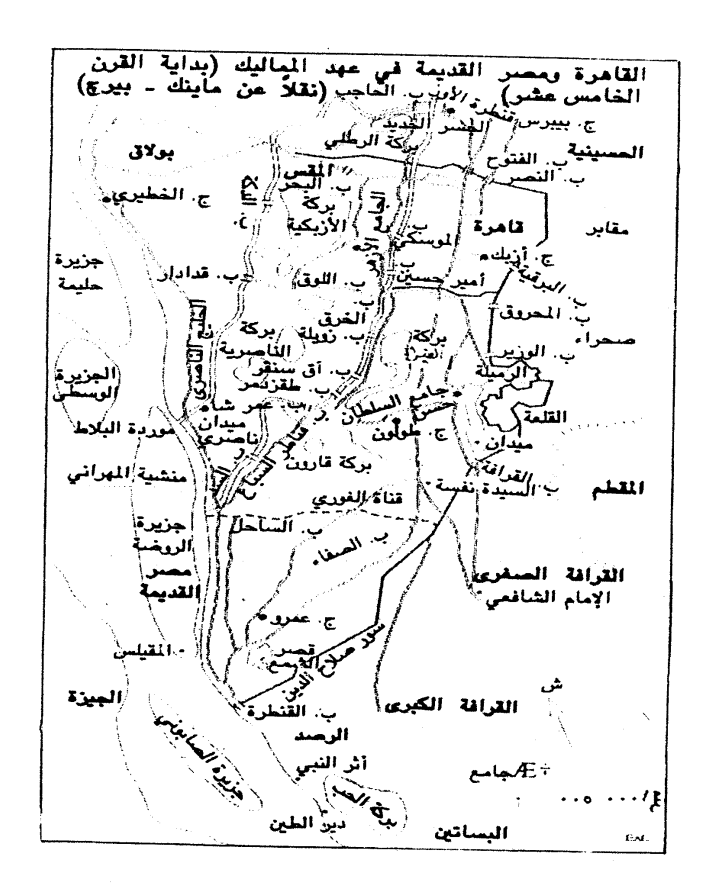
مجرى نهر النيل في أوائل القرن الثالث عشر

عبدالرحمن زكي، القاهرة، ١٩٦٦م



مجرى نهر النيل في آخر القرن الرابع عشر

نقلاً عن عبدالرحمن زكي، القاهرة، دار الطباعة الحديثة بالقاهرة، ١٩٦٦م



أندريه ريمون، القاهرة، ص١١٢

قائمة المصادر والمراجع

أولا: الوثائق :

- وثيقة رقم ٣٩٦ ج أوقاف، وزارة الأوقاف.
- وثيقة رقم ٥٣٦ ج أوقاف، وزارة الأوقاف.
- وثيقة شراء رقم ٢١٧ ج أوقاف، وزارة الأوقاف.
- وثيقة وقف الغورى رقم ٨٨٢، ٨٨٣، أوقاف (نشر عبداللطيف إبراهيم).
- وثيقة رقم ٦٦٦ ج أوقاف، مؤرخة سنة ٨٩٢هـ.
- وثيقة بيع رقم ٤٣١ ج أوقاف.
- وثيقة بيع رقم ٢٠٢ ج أوقاف مؤرخة ٢٣ ربيع الآخر ٩٠٩هـ/١٥٠٣م (نشرها أحمد محمد أحمد).
- وثيقة وقف رقم ٢٧٣، القلعة (المحكمة الشرعية) باسم أم الحسن ومؤرخة في ٩١٧هـ.
- وثيقة وقف رقم ١٨/١١٠، القلعة (المحكمة الشرعية) باسم زين الدين الاستادار.

ثانيا: المصادر العربية والمعربة :

ابن الأخوة (**محمد بن محمد بن أحمد القرشى ٦٤٨-٧٢٩هـ/١٢٥٠-١٣٢٩م**):

- معالم القربة في أحكام الحسبة. تحقيق محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطيعى، القاهرة ١٩٧٦م.

ابن إياس (**محمد بن أحمد إياس الحنفى ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م**) :

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٥ أجزاء: تحقيق محمد مصطفى فيسبادن والقاهرة ١٩٦٣-١٩٨٤م.
- جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك، تحقيق محمد زينهم، القاهرة ٢٠٠٦م.

ابن أيبك الدوادارى (أبو بكر بن عبد الله ت ٧٣٦هـ/١٣٣٥م) :

- كنز الدرر وجامع الغرر، ج٩، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت رويمر، القاهرة ١٩٦٠م.

ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتى ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) :

- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. دائرة معارف الشعب بدون تاريخ.

ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م) :

- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ج١، تحقيق فهيم محمد شلتوت، القاهرة ١٩٩٠م.
- منتجات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ج٢ (سنة ٨٥٧-٨٦٤هـ) ج٣ (٨٦٥-٨٧٤هـ)، حررها وليم بير ١٩٣٢م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧-١٢، طبعة دار الكتب بدون تاريخ، ج١٤ تحقيق جمال محمد محرز وفهيم محمد شلتوت، القاهرة ١٩٧١م، ج١٥ تحقيق إبراهيم على طرخان، القاهرة ١٩٧١، ج١٦ تحقيق جمال الدين الشيال وفهيم محمد شلتوت، القاهرة ١٩٧٢م.
- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، الأجزاء ١، ٢، ٤، ٦-١١ تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٤-٢٠٠٥م، الأجزاء ٣، ٥ تحقيق نبيل عبد العزيز، القاهرة ١٩٨٦، ١٩٨٨م.

ابن تيمية (تقى الدين أحمد ت ٧٢٨هـ/١٣٢٧م) :

- الحسبة في الإسلام، نشر قصى محب الدين الخطيب، القاهرة ١٣٨٧هـ.

ابن الحاج (عبد الله بن محمد بن العبدرى ت ٧٣٧هـ/١٣٣٦م) :

- المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات، ٣ أجزاء، القاهرة ١٣٢٠هـ.

ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أبى الفضل أحمد بن على ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م) :

- إنباء الغمر بأبناء العمر، ٩ أجزاء، نشره محمد عبد العيد خـان، دار المعارف العثمانية، بيروت – لبنان ١٩٨٦م.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٥ أجزاء، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة ١٩٦٦م.

ابن الجيعانى (بدر الدين أبو البقاء محمد بن يحيى ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م) :

- القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف، أو رحلة قايتباى إلى بلاد الشام (٨٨٢هـ/١٤٧٧م)، تحقيق عمر عبـد الـسلام تـدمرى، جروس – برس ١٩٨٤م.

ابن حبيب (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) :

- تذكرة النبية في أيام المنصور وبنيه، أجزاء ١-٣ تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٧٦-١٩٨٦م.

ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد بن إيدمر العلائى ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م):

- الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الـدين عز الدين، جزءان في مجلد واحد، بيروت ١٩٨٥م.
- الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها قسمان، بيروت بدون تاريخ، عن مطبعة بولاق ١٨٩٣م.

ابن زنبل الرمال :

- آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى، تحقيـق عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٩٨م.

ابن سودون البشبغاوى، (ت ٨٦٨هـ/١٤٦٣م) :

- ديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس، تحقيق منال محرم عبد المجيد، القاهرة ٢٠٠٣م.

ابن شاهين الظاهرى (غرس الدين خليل ت ٨٧٢هـ/١٤٦٨م) :

- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح بولس راويس، باريس ١٨٩٤م.

ابن ظهيرة (أبو إسحاق برهان الدين إبراهيم بن على ٨٢٥-٨٩١هـ) :

- الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، دار الكتب ١٩٦٩م.

ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م) :

- تاريخ ابن الفرات، م٩، ج٢، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، بيروت ١٩٨٣م.

ابن الوزان الزياتى (المعروف بالحسن الوزان وبليون الأفريقى ت ٩٥٧هـ/١٥٥٠م) :

- وصف أفريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٥م.

البقاعى (إبراهيم بن عمر ٨٠٩-٨٨٥هـ/١٤٠٦-١٤٨٠م) :

- تاريخ البقاعى المعروف بـ إظهار العصر لأسرار أهل العصر: دراسة وتحقيق محمد سالم بن شديد العوفى، ثلاث أقسام، الرياض ١٩٩٣م.

السخاوى (محمد بن عبد الرحمن محمد بن عثمان ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م) :

- الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، ١٢ جزء، بيروت بدون تاريخ.
- التبر المسبوك في ذيل السلوك، ثلاثة أجزاء، تحقيق نجوى مصطفى كامل ولبيبة إبراهيم مصطفى، القاهرة ٢٠٠٢-٢٠٠٥م.

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) :

- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جزءان في مجلد واحد، مصر ١٢٩٩هـ.
- نظم العقيان في أعيان الأعيان، حرره فيليب حتى، نيويورك ١٩٢٧م.

الشجاعى (شمس الدين الشجاعى) :
- تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده، تحقيق بربارة شيفر، فيسبادن ١٩٧٨م.

الشيزرى (عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م) :
- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق ومراجعة السيد الباز العرينى، بيروت – لبنان بدون تاريخ.

الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) :
- الوافى بالوفيات، ج١٠، باعتناء جاكلين سوبلة وعلى عمارة، فيسبادن ١٩٨٢م.

الصيرفى (على بن داود الخطيب الجوهرى ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م) :
- أنباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشى، القاهرة ١٩٧٠م.
- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ أهل الزمان، أربعة أجزاء، تحقيق حسن حبشى، القاهرة ١٩٧٠، ١٩٧١، ١٩٧٤، ١٩٩٤م.

طافور، – رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادى، ترجمة وتقديم حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٨م.

عبد الباسط بن خليل بن شاهين (ت ٩٢٠هـ/١٥١٤م) :
- نيل الأمل في ذيل الدول، ٩ أجزاء، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى، بيروت ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

العمرى (شهاب الدين أحمد بن يحيى (٧٠٠-٧٤٩هـ/١٣٠٠-١٣٤٩م) :
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دولة المماليك الأولى، دراسة وتحقيق دوروتيا كرافولسكي، بيروت، ١٩٨١م.
- التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت – لبنان ١٩٨٨م.

العينى (بدر الدين محمود ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م) :

- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى، تحقيق فهيم شلتوت، القاهرة ١٩٦٧م.
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (عصر سلاطين المماليك)، أربعة أجزاء، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٧-١٩٩٢م.
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان حوادث وتراجم (٨١٥-٨٢٣هـ)، تحقيق عبدالرازق القرموط، القاهرة، ١٩٨٥م.
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان حوادث وتراجم (٨٢٤-٨٥٠هـ) تحقيق عبدالرازق الطنطاوى القرموط، القاهرة ١٩٨٩م.

القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) :

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزء، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، القاهرة بدون تاريخ.

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) :

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، جزءان، دار صادر - بيروت عن طبعة بولاق، بدون تاريخ.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، أجزاء ١، ٢، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٧١، ج٣، ٤، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٢م.
- إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، الطبعة الثالثة، القاهرة ٢٠٠٢م.

النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ/١٣٣٣م) :

- نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣٢، تحقيق فهيم شلتوت، القاهرة ١٩٩٨م.

اليوسفي (موسى بن محمد بن يحيى ت ٧٥٩هـ/١٣٥٨م) :

- نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق ودراسة أحمد حطيط، القاهرة ١٩٨٦م.

ثالثاً: المصادر والمراجع الأجنبية :

- Ahmed Darrag, L'Egypte Sous Le Règne De Barsbay 825-841/1422-1438, Damas 1961.
- Alder. E, N, Jewish Travellers, London 1930.
- Arnold Von Harff, The Pilgrimage of Arnold Von Harff Knight, Tran. From the German by. Malcolm Letts, London 1949.
- Boaz Shoshan, "Grain Riots and the" Moral Economy's Cairo 1350-1517" In Journal of Interdisciphinary History, Vol 10, Issue 3, (Winter 1980) pp. 459-478.
- Christophe Harant, Polzic et Bezdruzic, Voyage en Egypte (1598), Le Caire, 1972.
- Dopp. P. H., "Le Caire Vu Par Les Voyageurs Occidentaux du Moyen Age" Dans Bulletin de la Société Royale de Geographie d'Egypte, T. XXIV, Deuxiéme Article, Novembre 1951, pp. 115-162, Quatrième Article, Sept. 1954, pp. 5-49.
- Félix Fabri, Voyage en Egypte de Felix Fabri 1483, Tran., Presenté et Annoté Par Le R.P. Jacques Masson, Le Caire 1972.
- Frescobaldi, Gussi and Sigoli, Visit to The Holy Places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in 1384, Trans. By Theophilus Bellorini and Eugene Hoade, Jerusalem 1948.
- Jean Chesneau, and André Thevet, Voyages en Egypte 1549-1552, Presentation et Notes de Frank Lestringant, Le Caire 1984.
- Joos Van Ghistele, Voyage en Egypte 1482-1483, Tran., Introduction et Notes Par Renée Bauwens- Préaux, Le Caire 1977.

- Lapidus, I.M., "The Grain Economy of Mamluk Egypt" In Journal of The Economic and Social History of The Orient, Brill- Leiden Vol. XII, Part I, Junuary 1969, pp. 1-17.
- Nelly Hanna, - An Urban History of Būlāq, in The Mamluk and Ottoman Periods, Le Caire 1983.
  - Contruction Work in Ottoman Cairo (1517-1798), Cahier N. 4, Supplement aux Annales Islamologiques, Le Caire 1984.
- Pierre Belon du Mans, Voyage en Egypte (1547), Le Caire 1970.
- Prescott, H. F. M., Once to Sinai, The Further Pilgrimage of Friar Felix Fabri, London 1957.
- Pauty, Edmond, Les Hammams du Caire, IFAo, Le Caire 1933.
- Thenaud, Jehan, Le Voyage D'Outremer de Jean Thenaud, Pub. Et ann., Par C.H. Schefer, Paris 1864.
- Voyages en Egypte, Pendant Les Années 1587-1588, Le Caire 1972.

رابعاً : المراجع العربية والمعربة :

إبراهيم حسن سعيد، البحرية في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٨٣م.

إبراهيم على طرخان،

- مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ١٣٨٢-١٥١٧م، القاهرة ١٩٦٠م.
- لنظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٨م.

أحمد محمد أحمد، " المنشآت الصناعية في العصر المملوكى من خلال الوثـــائق"، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أسيوط – كلية الآداب بسوهاج، قسم الآثار، ١٩٨٥م.

آدم صبرة، الفقر والإحسان في مصر عصر سلاطين المماليــك ١٢٥٠-١٥١٧م، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة ٢٠٠٣م.

أندريه ريمون،
- القاهرة تاريخ حاضرة، ترجمة لطيف فرج، القاهرة ١٩٩٣م.
- الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن ١٨م، الجزء الأول، ترجمة ناصر أحمد إبراهيم وباتسى جمال الدين، القاهرة ٢٠٠٥م.

آن وولف، كم تبعد القاهرة، ترجمة قاسم عبده قاسم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٦م.

أيمن فؤاد السيد، التطور العمرانى لمدينة القاهرة منذ نشأتها وحتى الآن، القاهرة ١٩٩٧م.

البيومى إسماعيل الشربينى،
- النظم المالية في مصر والشام، القاهرة ١٩٩٨م.
- " الأمن البيئنى في عصر السيادة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) " بحث منشور في مجلة الدراسات الشرقية، العدد ٣٣، يولية ٢٠٠٤م، ص ٧٧-١٦٠.

توفيق سلطان اليوزبكى، تجارة مصر البحرية في العصر المماليكى، الموصل ١٩٧٥م.

حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، جزءان، القاهرة ١٩٤٦م.

حلمى محمد سالم، اقتصاد مصر الداخلي وأنظمته في العصر المماليكى، إسكندرية بدون تاريخ.

درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم، الإسكندرية ١٩٧٩م.

سامى أحمد عبد الحليم أمام، " الأمير يشبك من مهدى وأعماله المعمارية بالقاهرة"، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب القاهرة ١٩٧٠م.

سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، القاهرة ١٩٦٧م.

سعاد محمد حسن حسين، "الحمامات في مصر الإسلامية: دراسة أثرية معمارية"، رسالة دكتوراة غير منشورة، آثار القاهرة ١٩٨٣م.

سعيد عبد الفتاح عاشور،
- " التـدهور الاقتـصادي فـي دولـة سـلاطين المماليـك (٨٧٢-٩٢٣هـ/١٤٦٨-١٥١٧م في ضوء كتابات المؤرخ ابن إياس" بحث منشور في بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسـطى، جامعـة بيروت العربية ١٩٧٧م، ص ٣٥١-٣٧٢.
- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٩٢م.
- العصر المماليكى في مصر والشام، القاهرة ١٩٦٥م.

السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادى، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط، الجزء الأول: البحرية الإسلامية في مصر والـشام، إسكندرية ١٩٨١م.

سهام مصطفى أبو زيد، الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربى إلـى نهايـة العصر المملوكى، القاهرة ١٩٨٦م.

شاهندة فهمى كريم، "جوامع ومساجد أمراء السلطان الناصر محمد بن قـلاوون "، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآثار – جامعة القاهرة ١٩٨٧م.

شوقى عبد القوى عثمان، التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر المماليك، القاهرة ٢٠٠٠م.

عادل شحاته طايع، " حى بولاق ثغر القاهرة منذ نـشأته وحتـى نهايـة العـصر العثمانى " دراسة أثرية حضارية، مجلدان، رسـالة دكتـوراه غيـر منشورة، آثار القاهرة ٢٠٠٦م.

عباس الطرابيلى، أحياء القاهرة المحروسة، القاهرة ٢٠٠٣م.

عبد الحميد حامد سليمان،
- تاريخ الموانى المصرية في العصر العثمانى، القاهرة ١٩٩٥م.
- الملاحة النيلية في مصر العثمانية ١٥١٧-١٧٩٨م، القاهرة ٢٠٠٠م.

عبد الرحمن زكى، القاهرة تاريخها وآثارها (٩٦٩-١٨٢٥م)، القاهرة ١٩٦٦م.

عبد الرحمن عبد التواب، قايتباى المحمودى، القاهرة ١٩٧٨م.

عبد العال عبد المنعم الشامى، السرحات السلطانية لأماكن الترويح والصيد والفروسية في مصر زمن الأيوبيين والمماليك (٥٦٧-٩٢٣هـ)، الكويت ١٩٩٤م.

عبد اللطيف على إبراهيم،

- " دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر الغورى "، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب ١٩٥٦م.
- "الوثائق في خدمة الآثار" بحث منشور في دراسات في الآثار الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة ١٩٧٩م.

عثمان على محمد عطا، الأزمات الاقتصادية في العصر المملوكى وأثرها السياسي والاقتصادى والاجتماعى ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٢١٢، القاهرة بدون تاريخ.

عفاف سيد صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة ١١٠٠-١٤٠٠م، القاهرة ١٩٨٣م.

على أحمد محمد السيد، " إقليم غرب الدلتا في أعين الرحالة الأوربيين أواخر العصور الوسطى، دراسة تاريخية على رحلة جوس فان غستال ١٤٨٢م " بحث منشور في مجلة إنسانيات، العدد ١٤، سنة ٢٠٠٣م، آداب دمنهور.

على مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، ج٦، القاهرة ١٩٨٧م.

فالترهنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المترى، ترجمه عن الألمانية كامل العسلى، الأردن - عمان ١٩٧٠م.

فاطمة حسن محمد وقاد، " دور الأسطول المصري في عصر الحروب الصليبية "، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب – القاهرة ١٩٩٨م.
فييت (جاستون)، القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة مصطفى العبادى، القاهرة ١٩٩٠م.
قاسم عبده قاسم،
- النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٨م.
- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٧٩م.
ليلى كامل محمد على الشافعي، " منشآت القاضى زين الدين الاستادار بالقاهرة، دراسة أثرية معمارية "، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية آثار القاهرة ١٩٨٢م.
مجدى عبد الرشيد بحر، القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م، القاهرة ١٩٩٩م.
محاسن محمد الوقاد، الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، القاهرة ١٩٩٩م.
محمد الششتاوى سند الرفاعى، " متنزهات القاهرة في العصرين المملوكى والعثمانى " رسالة دكتوراة غير منشورة، آثار القاهرة ١٩٩٤م.
محمد عبد الغنى الأشقر،
- تجارة التوابل في مصر في العصر المملوكى، القاهرة ١٩٩٩م.
- الملحمة المصرية عصر المماليك الجراكسة ورد الاعتبار في عهد برسباى (٧٦٧-٨٢٩هـ/١٣٦٥-١٤٢٦م)، القاهرة ٢٠٠١م.
محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م، دراسة تاريخية وثائقية، القاهرة ١٩٨٠م.
محمد محمد أمين وليلى على إبراهيم، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، القاهرة ١٩٩٠م.

محمود رزق سليم،
- السلطان قانصوة الغورى، سلسلة إعلام العرب (٥٢)، القاهرة بدون تاريخ.
- النيل في عصر المماليك، القاهرة بدون تاريخ.

مصطفى على إبراهيم دويــدار، " جزيرة الروضة منذ الفتح الإسلامي حتى نهايــة حكم المماليك "، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة طنطا ٢٠٠١م.

منى سعد محمد الشاعر، " شبكة الرى المصرية في عــصر ســلاطين المماليــك البحرية ٦٤٨-٧٨٤هـ/١٣٥٠-١٣٨٣م "، بحث منشور في أعمــال مؤتمر التاريخ الاقتصادي، جامعة الأزهر ١٩٩٨م.

لطفى أحمد نصار، وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، القــاهرة ١٩٩٩م.

لينبول، ستانلى، سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعلى إبــراهيم حــسن وأدوار حليم، القاهرة ١٩٥٠م.

ناجلا محمد عبد النبى، مصر والبندقية (العلاقات السياسية والاقتصادية في عصر المماليك)، القاهرة ٢٠٠١م.

نجلاء مصطفى شيحه، " الجاليات الأوربية في مصر عصر ســلاطين المماليــك ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٤١٧ "، رسالة دكتوراة غير منشورة، آداب بني سويف، ٢٠٠٧م.

نعيم زكى فهمى، طرق التجارة ومحطاتها أواخر العصور الوسطى، القاهرة ١٩٧٣م.

هبة الله محمد فتحى، " الأرباع والمنازل الشعبية في القاهرة في العصرين المملــوكى والعثمانى " رسالة دكتوراة غير منشورة، آثار – القاهرة ١٩٩٥م.

هدية إمام عبد الرحمن، " المماليك الجلبان ودورهم في عصر المماليك الجراكسة"، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب القاهرة ٢٠٠٣م.

فهرس المحتويات

مقدمة ٣

الفصل الأول : ظهور بولاق وإعمارها واتساعها : ٥

- مرحلة التمهيد ٧
- مرحلة النشأة والظهور ٩
- مرحلة الإعمار ١٠
- مرحلة النمو والاتساع ١٩

الفصل الثاني : المنشآت العمرانية في بولاق : ٢٧

- المنشآت الدينية والتعليمية (المساجد والمدارس والزوايا) ٢٩
- المنشآت الاجتماعية (القصور ـــ المناظر ـــ الدور ـــ الحمامات والأسبلة ـــ المغسل ـــ الجبانة) ٤٩
- المنشآت الاقتصادية (الأسواق ـــ الرباع ـــ الوكالات ـــ الفنادق ـــ القياسر) ٨٠

الفصل الثالث : دور بولاق في حياة سلاطين المماليك الجراكسة : ٩٧

- بولاق استراحة السلاطين ٩٩
- بولاق دار مملكة ومقر للحكم ١٠٠
- استقبال الرسل والسفراء في بولاق وإقامتهم بها ١٠٩

الفصل الرابع : الدور الاجتماعي لبولاق في عصر سلاطين المماليك الجراكسة : ١١٣

- بولاق دار للاستشفاء ١١٥
- بولاق أجمل متنزهات القاهرة للعامة والخاصة ١١٩
- الاحتفالات في بولاق ١٢٤
- الحلوى والأطعمة والأشربة ١٢٦

الفصل الخامس : بولاق ساحل الغلة : ١٢٩
- سوق الغلال ببولاق والعاملين بها ١٣١
- المكوس (مكس الغلة ـ مكس نصف السمسرة ـ مكس العرضة) ١٣٨
- دور السلاطين والأمراء في سوق الغلال ١٤٢
- دور المحتسب في ساحل الغلة ١٤٩
- أسباب ارتفاع أسعار الغلال وانخفاضها والنتائج المترتبة على ذلك ١٥٨

الفصل السادس : النشاط الصناعي والحرفي في بولاق عصر سلاطين المماليك الجراكسة : ١٦٩
- بولاق دار لصناعة السفن ١٧١
- الحرف والصناعات الأخرى في بولاق : ١٨١
  - أولاً : معاصر الزيت وصناعة الزيوت ١٨١
  - ثانيًا : معاصر القصب وصناعة السكر والعسل ١٨٤
  - ثالثًا : حرفة طحن الغلال ١٨٨
  - رابعًا : الصباغة ١٩٠
  - خامسًا : صناعة منتجات الألبان ١٩١
  - سادسًا : حرفة صيد السمك ١٩٢

الفصل السابع : ميناء بولاق ودوره في حركة التجارة والنقل : ١٩٥
- عوامل ازدهار ميناء بولاق ١٩٧
- ديوان الجمرك (عمالة ـ موظفوه) ٢٠٤
- الرسوم التي تحصل في ميناء بولاق من الأجانب والوطنيين ٢٠٦
- عمليات البيع والشراء في ميناء بولاق (الشهود ـ القاضي) ٢٠٨
- النقل والمواصلات ٢١٠

الخاتمة ٢١٧
الخرائط ٢١٩
قائمة المصادر والمراجع ٢٢٣

رقـــم الإيـــداع : ٢٦٦٢٩/ ٢٠٠٧
الترقيم الدولي :٧-٠٠-٣٠٠-٢٢٢-٩٧٧